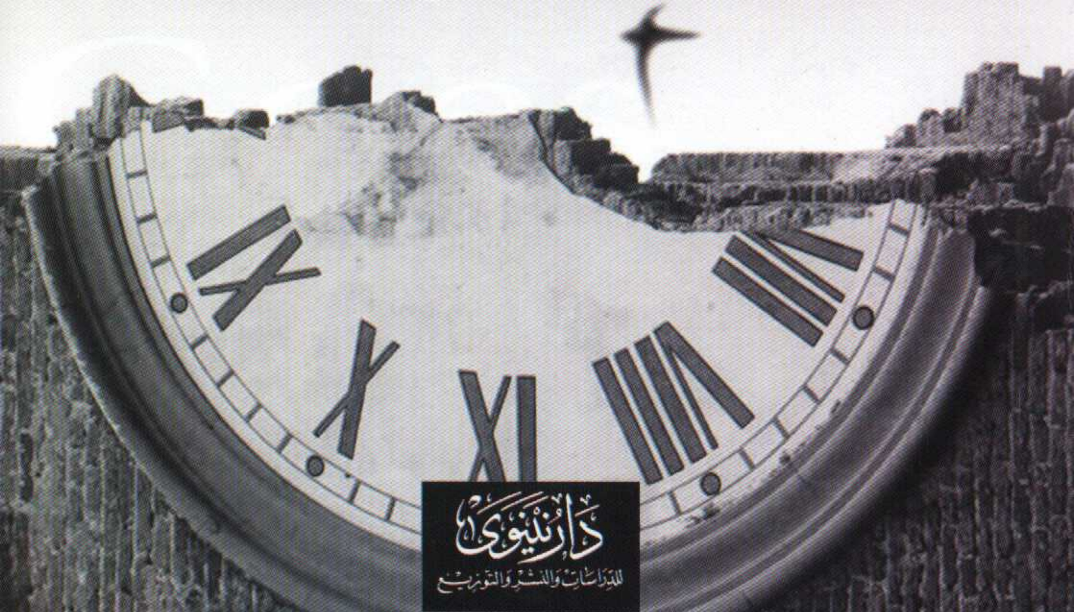
هيرمان هيسة
hermann hesse

ترجمة: أسامة منزلجي

مذكرات

في الحب والحرب والسلام

إذا ما استمرت الحرب



دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

للألماني

هرمن هسه

إذا ما استمرَّت الحرب

(تأملات في الحرب والسياسة)

ترجمة

أسامة منزلجي

اسم الكتاب: إذا ما استمرت الحرب
اسم الكاتب: هرمن هسه
اسم المترجم: أسامة منزلجي

الطبعة الأولى - ٢٠٠١

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص.ب ٧٩١٧ تلفاكس: ٥١٣٦٥٢٦

طبع هذا الكتاب بموافقة مديرية الرقابة بوزارة الإعلام

رقم الموافقة: تاريخ

الإشراف الفني وتصميم الغلاف: دار نينوى

إهداء المؤلف:

مهدى إلى ذكرى

صديقي العزيز

رومان رولان

مقدمة لطبعة عام ١٩٤٦

لم يكن تجميع مادة هذا الكتاب مهمة سارة بالنسبة الى المؤلف. فهي لم توقظ ذكريات سعيدة أو تعيد إلى الذاكرة صورة محببة. على العكس، فكل مقالة فيه تذكرني بشكل مؤلم بأوقات المعاناة، والصراع، والوحشة، أوقات كانت تُحْدِقُ بي خلالها العداوة وغياب الفهم وكنت معزولاً بصورة مريرة عن المُثُل العليا والعادات السارة. ولكي أخفف من وطأة هذه الأشباح القبيحة، والتي ازدادت وضوحاً خلال السنوات الأخيرة، بإضافة مسحة من الجمال والنور، رحت أتذكر الشيء الوحيد الجميل والباقي الذي خطر ببالي خلال أوقات الصراع والعذاب تلك، وهو إهداء هذا الكتاب إلى صديق راق وحبيب. لقد نسيت الكثير مما حدث في تلك الأيام المقبضة في عام ١٩١٤ عندما كتبت أولى هذه المقالات لكني لم أنس اليوم الذي جَلَبَتْ لي رسالةً وصلتني من رومان رولان، بالإضافة إلى إعلان عن اقتراب موعد صدور كتابه التالي، ردة فعل ملائمة، وكانت الوحيدة الّتي تلقيتها في ذلك الوقت على مقالتي. عندئذ أصبح لي رفيق يشاركني في تفكيري متيقظ مثلي، للعبث الدموي للحرب وللهوس في الحرب ومتمرد عليه، وهذا الرفيق لم يكن كمّاً مجهولاً بل كان الرجل الذي أحترمه بوصفه مؤلف الأجزاء الأولى لرواية "جان كريستوف" (عندئذ لم أكن أعرف له أعمالاً أخرى)، رجل يفوقني بمراحل في مجال الثقافة السياسية والوعي السياسي وبقينا أصدقاء حتى وفاته، وقد حالت المسافة الجغرافية التي فصلت بيننا واختلاف الثقافات وأساليب التفكير التي كبرنا بها ونضجنا دون أن أصبح مريده أو أن أتعلم الكثير منه في الشؤون السياسية لكن ذلك لم يكن هاماً. فقد تأخرت كثيراً في ولوج المجال السياسي، حين كنت في سن تقارب

الأربعين، بعد أن هزني واقع الحرب الرهيب وأيقظني وأرعبتني بعمق السهولة التي هرع بها زملائي وأصدقائي للالتحاق بخدمة مولوخ[1]. وكان عدد من الأصدقاء قد نبذوني لتوّهم وجلبتُ على نفسي أولى حملات الهجوم والتهديد وسيل الاهانات التي كان التقليديون دائماً ينجحون خلال مايسمى بالعصور البطولية في صبِّها على كل من يسير وحده. ولم يكن واضحاً قط ما إذا كنت سأنجو أم سأتحطم إثر هذا الصراع الذي حول حياتي التي كانت حتى ذلك الحين سعيدة وناجحة عن غير استحقاق، إلى جحيم. وكان شيئاً عظيماً، وأنا وسط هذا الوضع، ومفرحاً مخلِّصاً أن أعلم أنه يوجد في فرنسا في مخيم "العدو" رجل لايسمح له ضميره أن يسكت أو أن يشارك في معمعان الحقد والنزعة القومية المَرَضيّة السائدة. وفي الواقع لم أناقش شؤون السياسة مع رولان رومان خلال سنوات الحرب ولا بعدها، ومع ذلك أشك في أنه كان في قدرتي أن أعيش تلك السنين بدون دفء صداقته فكيف لاأفكر فيه الآن؟

سأتحدث قليلاً عن منشأ الكتاب الراهن: إن أغلب المقالات المتصلة بالحرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ظهرت في "أخبار زيوريخ الجديدة" وفي ذلك الوقت (وحتى عام ١٩٢٣) كنت ما أزال مواطناً ألمانياً لأني اتخذت من النزعة الوطنية والروح العسكرية موقفاً انتقادياً. وعلى الرغم من أن قسماً من الشعب الألماني شعر فور انتهاء الحرب التي خسرناها كما يشعر اليوم أيضاً[2]، باندفاع نحو نزعة اللاعنف والتوجه نحو العالمية وكان من بين حين وآخر يردِّد أفكاري، بقيت عرضة لريبته. وقد اعتبرني الرأي الألماني الرسمي قبل أن تحرز الاشتراكية الوطنية[3] أولى انتصاراتها بوقت طويل، شخصاً مشبوهاً وغير مرغوب فيه أساساً، وفي أحسن الأحوال يستحق أن يُسامَح. وخلال فترة هيمنة حزب هتلر راح يستمتع بالثأر لنفسه من كتبي، واسمي، ومن ناشري العاثر الحظ في برلين.

---

[1] مولوخ: في الأصل إله سام كانت تقدم له الأضاحي بذبح الأطفال يرمز به إلى آلة الحرب والدمار. - المترجم.

[2] أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. - المترجم.

[3] حزب النازيين بقيادة هتلر - المترجم

لدى إلقاء نظرة على جدول المحتويات يتبين أني لم أكتب مقالات "سياسية" أو آنية في سنوات معينة ولكن ينبغي ألا يفهم من كلامي هذا أني مابين تلك السنوات استغرقت في سبات، وأدرت ظهري للقضايا الراهنة. فمن دواعي أسفي الشديد أنه كان مستحيلاً علي أن أفعل ذلك منذ بدء اليقظة القاسية الأولى في الحرب العالمية الأولى، وكلّ مَنْ يقرأ أعمالي كلها سرعان ما سيلاحظ أني حتى في السنوات التي أكتب خلالها أي شيء حول القضايا الراهنة فإن التفكير في الجحيم المحتقن تحت أقدامنا والشعور بالكارثة والحرب الوشيكين لم يفارقاني قط. فبدءاً بـ"ذئب السهوب"[1] التي كانت جزئياً صرخة تحذير مكروبة ضد الحرب القادمة، وقد تعرضت لهذا السبب للهجوم وللسخرية، وحتى لعبة الكرات الزجاجية، بعالم صورها الذي يبدو ظاهرياً حتى الآن بعيداً عن الوقائع الجارية، سوف يقابل القارىء هذا الشعور مراراً وتكراراً، وقد تسمع نبرة الصوت ذاتها تتردد في قصائدي.

عندما أقول عن مقالاتي إنها "سياسية" فإني دائماً أضعها بين أقواس، إذ ليس فيها من السياسة غير جوّها العام الذي خُلِقَتْ فيه. أما من النواحي الأخرى فهي مناقضة للسياسة، ذلك لأني في كل من هذه المقالات جاهدت كي أقود القارئ ليس إلى عالم أشد شحناً بمشاكله السياسية، وإنما إلى كيانه الأعمق أمام كرسي محاسبة ضميره هو إنني في هذا على خلاف مع المفكرين السياسيين على مختلف مناحي تفكيرهم وسوف أظل، بعناد، أجد في الإنسان، في الإنسان الفرد وفي روحه، عوالم لاتصل اليها الدوافع والأشكال السياسة. أنا إنسان أدعو إلى الفردانيّة وأعتبر أن الوقار المسيحي بالنسبة الى كل روح انسانية هو أفضل مافي المسيحية وأقدسه. ولعلني في هذا أشاطر عالِماً قد أضحى للتو شبه منقرض، وذلك في أننا نشهد ظهور انسان جمعي، مجرد من الروح الفردية، سوف يلغي كل تراث البشرية الديني والفرداني. وليس من شأني أن أرغب في أو أخشى مثل هذا الاحتمال. ولطالما أُكْرِهْتُ على خدمة آلهة كنت أشعر أنها حية ومفيدة. وقد حاولت أن أفعل ذلك حتى وأنا واثق من أني سأُواجَهُ بالعداء أو بالسخرية. والدرب الذي أُكْرِهْتُ على طرقها وتمر

---

[1] صدرت ترجمتنا له عن دار حوران في دمشق عام ١٩٩٧.

بين مطالب العالم ومطالب روحي أنا لم تكن مريحة ولاممهدة، وآمل ألاّ أُضطر إلى السير فيها من جديد. لأنها تنتهي بالأسى والخيبات المريرة. ولكن أستطيع أن أقول بلا ندم أني منذ يقظتي كنت عاجزاً كأغلب زملائي ونقادي عن تعلم درس جديد والانضواء تحت راية مختلفة كل بضع سنوات.

منذ يقظتي الأولى قبل ثلاثين عاماً أصبحت ردة فعلي الأخلاقية إزاء كل حدث سياسي عظيم تبرز دائماً غريزياً. وبدون أن أبذل أي مجهود. ولم تهتز أحكامي قط، وبما أني رجل غير مسيس بأي حال فقد دُهشت أنا نفسي من مصداقية ردود فعلي ولطالما تفكَرت في مصادر هذه الغريزة الأخلاقية وفي المعلمين والقادة الذين على الرغم من افتقاري للاهتمام المنظم بالسياسة، ساهموا كثيراً في صياغتي، حتى أني كنت دائماً واثقاً من حكمي وأبديت مقاومة شديدة ضد كافة أصناف الاصابة بالاضطرابات الذهنية والنفسية الشائعة. إن على الانسان أن يدعم ماثقفه، ووسمه بسمة مميزة مصاغة، وهكذا وبعد طول تفكير في المسألة يجب أن أقول: ثمة ثلاثة مؤثرات قوية ساهمت، على امتداد حياتي، في تكوين شخصيتي، وهي الروح المسيحية واللاقومية في المطلق التي اتصَفَ بها مسقط رأسي وقراءة مؤلفات المفكرين الصينيين العظام، وآخيرا وليس آخراً، أعمال المؤرخ الوحيد الذي كرست نفسي له بكل ثقة، وتوقير ومنافسة ممتنة. ياكوب بركهارت[1].

مونتانيولا، حزيران عام ١٩٤٦

---

[1] ياكوب بركهارت (١٨١٨ – ١٨٩٧): مؤرخ سويسري موسوعي واسع الاطلاع، من أشهر كتبه "حضارة عصر النهضة في ايطاليا".

O freund, nicht diese Tone!*

(آه ياأصدقائي، ليس هذه النغمات!)

أيلول عام ١٩١٤

الأمم يقبض بعضها بخناق البعض الآخر. وفي كل يوم يعاني عدد لايُحصى من الرجال ويموتون في معارك رهيبة ووسط سيل الأنباء المثيرة التي ترد من الجبهة، تذكرت، كما يحدث أحياناً لحظةً منسية منذ زمن بعيد من سنوات فتوتي الأولى. كنت في الرابعة عشرة من العمر، وذات يوم صيفي حار كنت جالساً في غرفة الدرس في شتوتغارت، أقدم الامتحان السنوي السوابي الشهير العام. وكان موضوع المقالة التي نكتبها يملى علينا: "ما هي الجوانب الخيرة والشريرة في الطبيعة البشرية التي تثيرها الحرب وتغذيها؟" وماكتبته حول الموضوع لم يكن يستند إلى أساس أي تجربة من أي نوع. وكانت النتيجة كئيبة، فما كنت أفهمه أنا الصبي عندئذ عن الحرب، عن مزاياها وأعبائها لايمت بأي صلة لما تعنيه تلك الكلمات اليوم. لكنني مؤخراً أطلت التفكير في الحرب وعلاقتها بالأحداث الجارية وتلك الذكرى الصغيرة. وبما أنه بات من عادة الباحثين والصُنّاع اليدويين الآن أن ينفّسوا عن آرائهم في الموضوع الذي يتناولونه، لم أعد أتردّد في التعبير عن رأيي. أنا إنسان ألماني وعواطفي ومطامحي ألمانية، ومع ذلك، ما أرغب في قوله لايتعلق بالحرب وبالسياسة وإنما بموقع المحايدين والمهام الموكلة اليهم. ولاأعني بهذا الدول المحايدة

---

* هذا البيت الشعري الشهير، مأخوذ من قصيدة الشاعر الألماني شيللر «أنشودة للفرح»، وقد استعان بها الموسيقار بيتهوفن في آخر سيمفونيته التاسعة.

سياسياً وإنما كل العلماء، والفنانين والإدباء الذين يبذلون جهوداً لصالح السلام والانسانية.

مؤخراً ذهلنا بظهور دلائل حدوث فوضى هدّامة بين صفوف أولئك المحايدين، فبراءات اختراع ألمانية تُعلَّق في روسيا وموسيقى ألمانية يُحظَر سماعها في فرنسا، ويُحظَر تداول المنتجات الثقافية لدول معادية في ألمانيا. وتُقرِّر كثيرٌ من الصحف الألمانية أن تكفَّ عن نشر أي ترجمة، أو نقد، أو حتى أن تأتي على ذكر أعمال لمؤلفين انكليز أو فرنسيين، أو روس، أو يابانيين، وهذه ليست إشاعة بل قرار حقيقي بُدِيء بتطبيقه فعلاً.

الآن بات من الواجب وبصمت إهمال قصة خرافية يابانية جميلة أو رواية فرنسية جيدة، ترجمها بحب وإخلاص مترجم ألماني قبل بدء الحرب، وستُرفَض هدية رائعة قدمت بلفتة حب إلى شعبنا، لأن بضع سفن يابانية تشن هجوماً على تسينغتاو[1] وإذا ماخطر لي اليوم أن أمدح عملاً إيطالياً أو تركياً أو رومانياً فيجب أن أتوقع أن يعمد دبلوماسي أو صحافي إلى تحويل هذه الدول الصديقة إلى أعداء قبل أن تصل مقالتي إلى المطبعة.

في الوقت نفسه نرى فنانين وعلماء ينضمون إلى حملة الاحتجاج العنيف على قِوى مُحاربة معيَّنة. وكأنَّ مثل هذه الأقوال اليوم، بينما العالم يحترق، لها أي قيمة، وكأنما لأي فنان أو أديب، حتى وإن كان من أفضلنا وأكثرنا شهرة، مايقوله في شؤون الحرب.

إن الآخرين يساهمون في الأحداث الجليلة بحمل الحرب الى غرف مكاتبهم وتأليف أغان تحث على شن حرب وحشية أو مقالات مفرطة التطرف تشعل الأحقاد بين الأمم، ولعل هذا هو أسوأ الأمور قاطبة. إن الرجال الذين يجازفون بحياتهم في كل يوم على الجبهة قد يكونون فريسة الاحساس بالمرارة، ونوبات خاطفة من الغضب والحقد. الأمر نفسه يصح على السياسيين الفاعلين. ولكن هل وظيفتنا نحن الكتاب، والفنانون والصحافيون، أن نزيد الطين بلة؟ أليس الوضع أصلاً غارقاً فيما يكفي من البشاعة ويرثى له؟ هل يفيد فرنسا لو أن فنانى العالم كلهم يدينون الألمان لتعريضهم قطعة هندسية معمارية جميلة لخطر

[1] تسينغتاو: ميناء في شرق الصين.

التدمير؟ هل يفيد الألمان أن تمتنع عن قراءة المؤلفات الانكليزية والفرنسية؟ هل يمكن لأي شيء في العالم أن يصبح أفضل، أصلب وأصوب إذا ما شوّه كاتبٌ فرنسي سمعة العدو بأفظ العبارات واستثار جيش بلده حتى درجة الغضب البهيمي؟

إن هذه المظاهر كلها بدءاً "بالإشاعة" المُخْتَلَقَة بدون أي وازع ضمير وحتى المقالة الملتهبة بالحماس، من حَظْر تداول فن "العدو" وحتى الحط من قدر الأمم كافة، تنجم عن الفشل في التفكير، في الكسل العقلي الذي له مايبرره تماماً عند جندي على خط النار لكنه لايليق أبداً بكاتب مفكر أو فنان. من هذا التعنيف أُعْفِي مسبقاً كل من كان يؤمن حتى قبل نشوب الحرب بأن العالم قد توقف عند حدودنا. وأنا لا أتحدث عن أولئك الذين يعتبرون كل تقريظ للرسم الفرنسي إساءة وتستعر ثورة غضبهم كلما سمعوا كلمة أجنبية، ويكتفون بمواصلة عمل ما سبق أن عملوه، وإنما أولئك الآخرين كلهم الذين انهمكوا بقدر من الوعي في تشييد صرح الثقافة الانسانية التي تتجاوز الحدود الوطنية وقرروا الآن فجأة أن يشنوا حرباً على عالم الروح -إن مايفعلونه خطأ وينافي العقل بصورة شاذة. لقد خدموا الانسانية وآمنوا بالمثل الأعلى الإنساني العالمي طالما لم يتعارض أي واقع فظ مع هذا المثل الأعلى، وطالما بدا الفكر والفعل الانسانيين ملائمين وبديهيين أما الآن، وقد أصبحت هذه المثل العليا تنطوي على العمل الشاق ومحفوفة بالخطر، الآن وقد أصبحت مسألة حياة أو موت، إذا بهم يتخلّون عن القضية ويرنمون النغم الذي يطرب جيرانهم لسماعه.

هذه الكلمات، التي تنتشر بدون أن تُنْطَق ليست موجهة ضد العاطفة الوطنية أو حب الوطن، إنني آخر من ينكر وطنه في وقت كهذا ولايخطر ببالي أن أمنع جندياً من أن يؤدي واجبه. فبما أن إطلاق النار هو نظام هذه الأيام فليكن إطلاق نار - ولكن ليس لإطلاق النار بحد ذاته وليس بدافع الحقد على العدو اللعين وإنما لهدف معاودة نمط أفضل وأرقى من النشاط بأسرع وقت ممكن. إن كل يوم يجلب معه دمار الكثير مما كافح أصحاب النوايا الطيبة كلهم من فنانين وعلماء ورحالة ومترجمين وصحافيين من الأقطار كافة، من أجل تحقيقه طوال حياتهم. وهذا لايمكن تعويضه. لكن من السخف والخطأ أن

يرمي أي رجل كان، في ساعة صفاء، آمن بالفكرة الإنسانية، وبالفكر العلمي وبجمال فني يعبر الحدود الوطنية، وإذا به يصاب برعب حدث رهيب، أقول يرمي الراية ويحيل أفضل ما فيه خراباً شاملاً. أعتقد أنه يوجد بين كتّابنا وأدبائنا عدد قليل جداً ممّن ستُعتبر أقوالهم الحاليّة، شفهية كانت أم مكتوبة بروح الغضب السائد، من بين أفضل انجازاتهم، ولايوجد أي كاتب جاد يفضّل في قرارة قلبه أناشيد كورنر[1] الوطنية على قصائد غوتة الذي نأى بنفسه تماماً وبجلاء عن حرب التحرير.

يهتف المواطنون الكبار: هذا صحيح تماماً. لطالما ارتبنا بغوتة الذي لم يكن قط وطنياً وأفسد العقل الألماني بنزعته العالمية المعتلة التي طال ابتلاؤنا بها وأضعفت، كما هو واضح، وعينا الألماني.

هذا هو جوهر القضية. إن الروح الوطنية لم تكن تنقص يوماً غوته، على الرغم من أنه لم يكتب أي نشيد وطني في عام ١٨١٣. غير أن تفانيه في سبيل الانسانية كان أثمن بالنسبة إليه من تفانيه في سبيل الشعوب الألماني الذي كان يعرفه ويحبه أكثر مما عرف وأحب أي شيء آخر. لقد كان مواطناً ووطنياً في عالم الفكر والحرية الداخلية والضمير الفكري الشامل. كان في أفضل لحظات فكره يرى تواريخ الأمم ليس كأقدار منفصلة، مستقلة، وإنما كأجزاء محكملة لحركة كلية.

لعل مثل هذا الموقف سيُدان بوصفه نزعة عقلية انعزالية عليها أن تلزم الصمت في لحظة الخطر الجدي.. ومع ذلك فهو يمثل الروح التي يتنفسها أفضل مفكرينا وكتابنا الألمان. إن الوقت الحاضر هو الوقت المناسب لتذكر هذه الروح وما تتضمنه من ضرورات العدالة والاعتدال، والكياسة والأخوة. هل نستطيع أن ندع الأمور تصل الى مرحلة لايجرؤ عندها إلا أشجع الألمان على تفضيل كتاب انكليزي جيداً على آخر ألماني رديء؟ وبحيث يصبح موقف رجال جيشنا، الذين يعاملون سجيناً من الأعداء بمراعاة، بمثابة تأنيب حي موجه الى مفكرينا الذين ماعادوا يرغبون في احترام العدو وتقديره حتى عندما يكون مسالماً ونستفيد منه؟ ماذا سيحدث بعد انتهاء الحرب؟ خلال فترة توحي

---

[1] كارل تيودور كورنر (١٧٩١ - ١٨١٣): شاعر ألماني وواضع كلمات أوبرات وأغاني.

لنا منذ الآن بالتشاؤم عندما ستكون حركـة السـفر والتبـادل الثقـافي بـين الأمـم متوقفة تماماً؟ ومن يمكنه أن يعمل باتجاه أوضاع أفضل، باتجاه تفاهم متبادل، إذا لم نكـن نحـن الجالسـون هنـا على مقاعدنـا ونعلـم أن إخوتنـــا يقفـون في الخنادق؟ تحية الى كل رجل يجازف بحياته وسط وابل الرصـاص والقنـابل في ساحة الوغى! لقد أصبح الاعتماد علينا نحن الذين نحب وطننا ولانتشـائم مـن المستقبل لنحافظ على منطقة من السلام، لنمد جسوراً لنبحث عن سُبُل أخـرى ولكن لكي لانضرب (بأقلامنا!) أو أن ننسف أسس مستقبل أوروبا.

كلمة أخيرة أوجهها إلى أولئك الذين ملأتهم الحرب باليأس ويعتقـدون أنـه بسبب وجود حرب دائرة فإن كل الحضارة والانسانية قد ماتت. لطالمـا كـانت هناك حروب منذ أن عرفنا الأقدار الانسانية المبكرة، وعشية الحرب الحالية لم يكن هناك من سبب للاعتقاد بأنه لم تعد هناك حروب. إن مثل هـذا الاعتقـاد نشأ من فترة سلام مطولة. وسوف تظل الحـروب تنشـب إلى أن تصبح غالبيـة الكائنات البشرية قادرة على أن تعيش في عالم الروح الانسـانية بمفهـوم غوتـة. سوف تظل الحروب تنشب بيننا زمننا طويلاً وربما إلى الأبد. ومع ذلك فسيبقى إلغاء الحرب أنبل أهدافنا والغاية النهائية للأخلاق المسيحية الغربية. إن عالِماً يفتش عن سبيل للقضاء على مرض ما لـن يتخلـى عـن عملـه لأن وبـاءً جديـداً تفشى كذلك لن نكف أبداً عن أن نجعـل سـواد «السـلام علـى الأرض» وإفشـاء الصداقة بين البشر هما هدفنا الأسمى. إن الحضارة الانسانية تتحقق عبر حـوار الدوافع الحيوانية لتغدو دوافع أكثر روحانية، وعـبر الاحسـاس بالعـار، وعـبر المخيلة والمعرفة. وعلى الرغم من أنه لم ينجح حتى يومنا هذا أي مادح للحيـاة في الهروب من الموت، فإن الإيمان الراسخ بـأن الحيـاة تسـتحق أن تعـاش هـو المغزى والعزاء النهائيان للفن كله، وهذه الحرب العالمية البائسة بالذات يجـب أن تجعلنا أشد وعياً بأن الحب أسمى من الكراهية، والفهم أسمى من الغضب، والسلام أسمى من الحرب. وإلا فما جدواها؟

إلى وزير مسؤول

آب عام ١٩١٧

في هذا المساء، وبعد يوم عمل شاق، طلبت من زوجتي أن تعزف لي سوناتة لبيتهوفن. ونقلتني الموسيقى بأنغامها الى الواقع الوحيد الذي نملكه، الذي يمنحنا الفرح والعذاب، الواقع الذي نعيش فيه ولأجله.

بعد ذلك قرأت بضعة أسطر في كتاب يضم موعظة الجبل والعبارة الجوهرة العريقة والعُلوية «لاتقتل»!.

لكني لم أجد السكينة، لا كانت بي رغبة في النوم ولا في أن أتابع القراءة. كنتُ مترعاً بالقلق وبالاضطراب وفجأة، سيدي الوزير، وبينما كنت أفتش في عقلي عن سبب ذلك تذكرت بضع جمل من أحد خطاباتك التي كنت قد قرأتها قبل بضعة أيام.

لقد كان خطابك متين التأليف، وإلا لما تميَّز بالأصالة، والأهمية والتحريض. وهو، باختصار، يتحدث تقريباً عما يتحدث عنه الموظفون الحكوميون في خطاباتهم منذ زمن طويل: أي بشكل عام «إننا» لانصبو بحماس شديد كصبونا إلى السلم، وإلى نشوء تفاهم جديد. وتعاون مثمر في بناء المستقبل، وإننا لانسعى إلى تحقيق ثرائنا ولا إلى إشباع شهواتنا في القتل - غير أن «وقت التفاوض» لم يحن بعد ولذلك لاوجود في الوقت الراهن لبديل لشن حرب شجاعة. إن كل وزير تقريباً في أي دولة مشتركة في الحرب كان يمكن أن يلقي مثل هذا الخطاب وربما سيظل يفعل غداً أو بعد غد..

إذا كان خطابك قد ابقاني يقظاً في هذه الليلة، على الرغم من أني قرأت العديد من أمثاله التي تنتهي النهاية الكئيبة ذاتها، ومن ثم خلدت الى نوم

عميق، فإني متأكد الآن من أن اللوم يقع على سوناتة بيتهوفن وعلى الكتاب العريق الذي قرأت فيه لاحقاً، ذلك الكتاب الذي يضم وصايا جبل سيناء العشر الرائعة وكلمات المخلّص الوضّاءة.

إن موسيقى بيتهوفن وكلمات الكتاب المقدس تمنحني بالضبط الشيء نفسه، إنها مياه تنفجر من النبع نفسه، النبع الوحيد الذي يستسقي الانسان منه الخير. ومن ثم فجأة سيدي الوزير، خطر لي أن خطابك وخطابات زملائك في الحكومة في كلا المعسكرين لاتستمد من ذاك النبع وأنها تفتقر إلى ما يمكن أن يضفي أهمية إلى الكلام الانساني وقيمة وأنها تفتقر إلى الحب، تفتقر إلى الطابع الانساني.

إن خطابك يظهر شعوراً عميقاً بالاهتمام وبالمسؤولية نحو شعبك، وجيشه، وشرفه. لكنه لايظهر أي تعاطف مع الانسانية وبفظاظة أقول: إنه يلمح الى تقديم مئات الآلاف الأخرى من الإضاحي الإنسانية.

لعلك ستسمّي إشارتي إلى بيتهوفن نزعة عاطفية، ومع ذلك أعتقد أنك تضمر احتراماً خاصاً للوصايا العشر ولأقوال يسوع - علناً على الأقل. ولكن اذا كنت تؤمن بهدف واحد من الأهداف التي تشنون باسمها الحرب، بحرية الأمم، بحرية الملاحة البحرية وبالتطور الاجتماعي أو بنيل الدول الصغيرة حقوقها - إذا كنت حقاً تؤمن في أعماق قلبك بهدف واحد من هذه الأهداف السخية، فسوف يتوجب عليك أن تلاحظ بعد اعادة قراءة خطابك أنها لاتخدم ذاك الهدف الوحيد أو أي هدف آخر. إنها لاتمثل تعبيراً أو نتاجاً لإيمان ما، لأي وعي بحاجة انسانية، وإنما وياللأسف هي تعبير ونتاج لأزمة، وهي أزمة مفهومة بدون أدنى شك. إذ ماذا يمكن أن يكون أصعب في الوقت الحاضر من التسليم. بخيبة الأمل بمسار الحرب والبدء بالبحث عن أقصر السبل المؤدية الى السلام؟.

ولكن مثل هذه الأزمة، حتى وإن كانت مشتركة بين عشر حكومات، لاتدوم الى الابد، فالأزمات تُحلُّ بالضرورات، وذات يوم سوف تجد من الضروري بالنسبة إليك وإلى أعدائك أن تواجهوا أزمتكم ببسالة وتصدروا قرارات تضع حداً لها.

إن خيبة الأمل أصابت المتورطين في الحرب في كلا المخيمين في مسار الحرب منذ وقت طويل. وبغض النظر عمّن ربح هذه المعركة أو تلك، يغضّ

النظر عن حساب الربح والخسارة في الأرض وفي عدد السجناء الكبير، فلم تكن نتيجة الحرب مطابقة للتوقعات. فلا حل، ولا قرار، ولاشيء يلوح في الأفق.

لقد وضعتَ خطابك لكي تخفي هذه الأزمة الكبرى عن نفسك وعن شعبك، لكي ترجيء اتخاذ القرارات الحيوية (التي دائماً تدعو الى تقديم التضحيات) ــ والموظفون الحكوميون الآخرون وضعوا خطاباتهم للسبب نفسه. وهذا مفهوم فمن الأسهل على رجل ثوري أو على كاتب أن يرى العامل الانساني في وضع سياسي ما ويستخلص الاستدلالات المناسبة أكثر مما قد يفعل رجل دولة مسؤول. إن فعل هذا على أحدنا اسهل لأنه غير ملزم بأن يشعر بالمسؤولية الشخصية حيال الكآبة العميقة التي تخيِّم على أمة ما عندما ترى أنها لم تحقق الهدف من شن حربها وإن آلافاً كثيرة من الحيوات الانسانية ومليارات الثروات قد يتم التضحية بها بلا طائل.

لكن هذا ليس السبب الوحيد الذي يجعل من الأصعب عليك أن تميز الأزمة وتتخذ قرارات تضع حداً للحرب. السبب الآخر هو أنك لاتكاد تنصت إلى الموسيقى أو تقرأ الكتاب المقدس أو للمؤلفين العظام. أراك تبتسم أو لعلك ستقول إنك كمواطن لايتولى عملاً عاماً تشعر بألفة شديدة مع بيتهوفن. ومع كل ما هو نبيل وجميل ولعل هذا صحيح. ولكن ماأتمناه من أعماق قلبي هو أن تتعرَّف فجأة. في يوم من ذات الأيام، وأنت تستمع مصادفة الى مقطوعة رفيعة من الموسيقى، إلى الاصوات المتصاعدة من النبع المقدس، أتمني أن تقرأ ذات يوم في ساعة صفاء أمثولة من يسوع، بيتاً من شعر غوتة، أو قولاً مأثوراً للاورتزو[1].

إن مثل تلك الساعة ستكون ذات أهمية قصوى للعالم. فقد تجد الحرية الداخلية، قد تزول فجأة الغشاوة عن عينيك والصمم عن أذنيك. فمنذ سنين عديدة، سيدي الوزير، وعيناك وإذناك متساوقة الأهداف النظرية بدل الواقع لقد تعددت مضذ زمن بعيد - وللضرورة أحكام! - على أن تغلقها دون كل عناصر الواقع، أن تتجاهله، أن تنكر وجوده. أتعرف ماأرمي اليه؟ نعم، أنت تعرف. ولكن ربما يمنحك صوت شاعر عظيم، صوت الكتاب المقدس، صوت

---

[1] لاو ــ تزر (٦٠٤ ؟ ــ ٥٣١ ؟ ق . م) : فيلسوف صيني. يُعتبر مؤسس مذهب الطاوية ومؤلف كتاب " طاو ــ تيه تشينغ ".

الانسانية الخالد الذي يحدثنا بجلاء ووضوح عن الفن، ربما تمنحك القدرة على الرؤية والسماع الصحيحين. فماذا يمكن أن ترى وتسمع! لن ترى أو تسمع المزيد عن النقص في اليد العاملة وسعر الفحم. لامزيد عن الرسم الطني[1] والأحلاف، والقروض، والقوات المجندة. وباقي ماعتبرته حتى ذلك الحين الواقع الوحيد. وبدل ذلك سوف ترى الأرض، أمنا الأرض العتيقة الصبور، المنتثرة بالقتلى، والمحتضرين، المسلوبة والمهشمة، المحترقة، والمدنسة، سوف ترى جنوداً ممددين أياماً بلياليها على أرض مجردة من السلاح، عاجزين عن طرد الذباب عن جراحهم المميتة بأيديهم المبتورة. سوف تسمع أصوات الجرحى، وزعيق المجانين، والتفجعات المتهمَة، للأمهات والآباء والعشاق والأخوات، وصراخ الجياع.

إذا ما سمعت أذناك من جديد هذه الأشياء كلها التي واظبت طوال سنين وشهور على تجنب سماعها، فقد تعيد النظر في أهدافك، ومثلك العليا ونظرياتك، بعقل منفتح، وتحاول أن تقدِّر قيمتها الحقيقية في مواجهة بؤس شهر واحد، أو يوم واحد، من الحرب.

آه، ليت هذه الفسحة من سماع الموسيقى، هذه العودة الى الواقع الحقيقي، تصادفك! سوف تسمع صوت الإنسانية، ثم تغلق على نفسك في غرفتك وتبكي. وفي اليوم التالي تخرج وتؤدي واجبك نحو الانسانية. سوف تضحي ببضع ملايين أو بلايين من النقود، وبقدر ضئيل من هيبتك وبآلاف الأشياء الأخرى (كل الأشياء التي تُطيلُ الآن أمد الحرب من أجلها) ومعها، ايضاً إذا لزم الأمر، حقيبتك الوزارية، وسوف تقوم بما يأمل الجنس البشري ويصلي كي تقوم به، بخوف وعذاب أخرسين. سوف تكون أول من يدين هذه الحرب اللعينة، من بين لموظفين الحكوميين، وأول من يخبر أقرانه عما يشعرون به الآن سراً: إن تلك الأشهر الستة أو حتى الشهر الواحد من الحرب يكلِّف أكثر من قيمة أي شيء يمكنها تحقيقه.

إذا ماحدث هذا، سيدي الوزير سيُخلَّد اسمك وستبرز مآثرك شامخة في عيون البشر فوق مآثر الذين شنوا حروباً ظافرة كلهم.

---

(١) الرسم الطني: رسم يفرض على أساس الطن.

إذا ما استمرت الحرب
سنتين أخريين
أواخر عام ١٩١٧

منذ أن كنت صبياً تعودت أن أختفي عن الأنظار بين حين وآخر، لأجدد قواي بالانغماس في عوالم أخرى. وكان أصدقائي يبحثون عني وبعد مرور بعض الوقت يعلنون عن فقدان أثري. وعندما كنت أعود في نهاية المطاف، كنت أتسلى كثيراً عندما أسمع مايقوله من يُسمُّون بالعلماء عن «فترات تغيُّبي» أو فترات انحطاطي. وعلى الرغم من أني لم أكن أقوم إلا بما يمتُّ الى صُلب فطرتي وما سيقوم أغلب الناس بفعله عاجلاً أم آجلاً، إلا إن أولئك المخلوقات الغريبة اعتبروني إنساناً شاذاً؛ وبعضهم رأى أني ممسوس؛ وآخرون نسبوا إليّ قدرات خارقة.

وها أنا الآن، مرة أخرى، أختفي بعض الوقت. لقد فقد الحاضر بالنسبة إليّ سحره بعد مرور سنتين أو ثلاث على بدء الحرب، فانسحبتُ لأتنفس هواءً مختلفاً. غادرت المستوى الذي نعيش عليه وذهبت لأعيش على مستوى آخر. أمضيت بعض الوقت في أصقاع الماضي النائية، رحت أعدو عبر الأمم، والحقب فلم أجد الطمأنينة. راقبت مشاهد الصلب والتآمر المعتادة. وحركات التقدم على الأرض، ومن ثم انسحبتُ بعض الوقت داخل المدى الكوني.

عندما عدت، كان ذلك في عام ١٩٢٠[1]، وأصبت بالخيبة إذ وجدت أن الأمم مازالت تتقاتل بالعناد المجنون ذاته. كانت بعض الحدود قد تغيرت أو

---

(1) على الرغم من أن هذه المقالة قد كُتبت في عام ١٩١٧ إلاّ أنه يبدو أن هرمن هسه أضاف إليها في وقت لاحق. ــ المترجم ــ

بضعة مواقع لبعض الثقافات الأرقى، والأعرق، المختارة قد دُمِّرت باجتهاد. ولكن، وبشكل عام، لم يكن قد تغير في المظهر الخارجي للأرض شيء يذكر.

لقد أُحرز تقدُّم هائل في مجال المساواة. ففي أوروبا على الأقل، كما سمعت اصبحت الدول متشابهة، حتى الفرق بين الدول المشاركة في الحرب والدول الحيادية، اختفى. ومنذ ظهور قذف القنابل بالمناطيد الحرة، التي ترمي بقنابلها آلياً على السكان المدنيين من علو نحو خمسين إلى ستين الف قدم عن سطح الأرض، أضحت الحدود الدولية، على الرغم من حراستها حراسة مشددة، وهماً. وكان تشتت تلك القنابل التي ترمى عشوائياً في السماء، يتم على مساحات شاسعة جداً حتى أن قادة المنطاد كانوا يخشون أن ينال هذا السيل المتفجر بلدهم نفسه - وكم باتت عمليات الحط على مناطق متحالفة أو حيادية أمراً غير ذي بال.

لقد كان هذا هو التقدم الحقيقي الوحيد الذي أحرزه فن الحرب، هنا على الأقل وجد الطابع الخاص لهذه الحرب تعبيراً واضحاً عنه. لقد انقسم العالم الى فريقين يحاولان أن يحطم كل منهما الآخر، لأن كليهما يريد الشيء نفسه، تحرير المضطَهَدين، والغاء العنف، وإقامة سلام دائم. كان كل فريق ينطوي على رفض قوي لأي سلام لايدوم إلى الأبد - فإذا لم يكن السلام الدائم سيتحقق كان الطرفان يصممان على الالتزام بالحرب الدائمة، واللامبالاة التي كانت المناطيد الحربية تمطر بها بركاتها من أعال عجائبية على الأهداف الصحيحة وغير الصحيحة على السواء كانت تعكس جوهر روح هذه الحرب حتى درجة الكمال. ولكن من نواح أخرى كانت تُشَنُّ بأسلوب قديم بموارد ضخمة ولكن غير كافية. كانت المخيلة السقيمة للعسكريين والتقنيين قد اخترعت بضع آلات تدميرية جديدة - أما صاحب الرؤيا الابداعية التي ابتكر منطاد رامي القنابل الآلي فكان فريد نوعه، لأن المفكرين والرؤيويين والشعراء والحالمين كانوا في تلك الأثناء قد بدأوا يفقدون بالتدريج اهتمامهم بالحرب، ولما لم يبق غير الجنود والتقنيين للاعتماد عليهم لم يعد الفن العسكري يحرز أي تقدم، وتواجهت الجيوش بمثابرة رائعة يقاتل أحدها الآخر، وعلى الرغم من وجود

نقص في المعادن، بحيث أضحت الأوسمة العسكرية ومنذ وقت طويل تتكون حصراً من الورق، لم يُسجَّل أي نقص في أي مكان في الأعمال الباسلة.

وجدت منزلي مدمراً جزئياً بفعل القنابل الملقاة من الجو، إلا أنه كان بشكل ما مايزال صالحاً للإيواء فيه، غير أنه كان بارداً وغير مريح وكان دبش الأرضية وتزيينات الجدران في حالة يرثى لها وسرعان ما خرجت لأتمشى.

كان تغييراً كبيراً قد طرأ على المدينة؛ فلا محال تجارية والشوارع مهجورة. ثم إذ برجل يقترب مني ثُبِّت على قبعته رقم من التنك وسألني ماذا أفعل هنا. فقلت إني أتمشى قال: هل معك تصريح؟ لم أفهم، وتبع ذلك مشاحنة كلامية وأمرني أن أتبعه الى أقرب مركز للشرطة.

وصلنا الى شارع كل الأبنية فيه عليها علامة بيضاء تحمل أسماء المكاتب وارقاماً وأحرفاً.

كانت احداها تقول: «لايشغله مدنيون، B ٢٤٨٧ ــ ٤». ودخلنا مبنى حكومياً عادياً، وغرفاً للانتظار وأروقة تفوح برائحة الورق والملابس الرطبة والبيروقراطية. وبعد طرح عدة أسئلة أُخذت الى الغرفة رقم ٧٢ وبدأوا يستجوبونني.

تفحصني موظف رسمي، ثم سألني بصوت صارم «ألا تعرف كيف تقف في حالة انتباه»؟ فقلت «لا» سأل «ولم لا؟» قلت في خوف «لأنهم لم يعلموني قط».

قال «على أية حال، لقد كنت تتمشى بدون إذن». أتعترف بهذا؟ قلت «نعم. يبدو أن هذا صحيح. لاأدري. في الواقع، إني أعاني من المرض منذ وقت طويل..»

أسكتني بإشارة منه، وقال: «العقوبة: الحرمان من لبس الحذاء مدة ثلاثة أيام. اخلع حذاءك!».

خلعت حذائي.

صعق الموظف الرسمي من فرط الرعب، وهتف «ياإلهي، يارجل! حذاء جلدي! من أين حصلت عليه؟ أجننت؟»

«قد لاأكون بكامل قواي العقلية، ليس لي أن أحكم. لقد اشتريت الحذاء منذ بضع سنين».

«ألا تعلم أن انتعال الأحذية الجلدية من أي نوع أو شكل كانت ممنوع على المدنيين؟ - حذاؤك مُصادَرْ. والآن لنر أوراقك الثبوتية».

ياللسماء الرحيمة، ليس معي أي شيء منها!

أنَّ الموظف الرسمي قائلاً: «شيء لايُصدَّق! لم أر مثل هذه الحالة منذ أكثر من عام!» ونادى على رجل بوليس «خذ هذا الرجل الى المكتب رقم ١٩، غرفة ٨».

ساقني حافي القدمين خلال عدة شوارع ثم و لجنا بناءً حكومياً آخر ومررنا بأروقة وشممنا رائحة الورق واليأس، ثم دُفعْتُ الى داخل إحدى الغرف وخضعت لاستجواب موظف رسمي آخر، وهذا كان يرتدي زياً رسمياً.

«لقد عُثِرَ عليك تسير في الشارع بدون أوراق ثبوتية. أنت مُغَرَّم بدفع ألفي غولدن وسوف أعد لك إيصالاً بالمبلغ فوراً» قلت متلعثماً «عفواً، أنا لاأحمل مثل هذا المبلغ الضخم. هلا استبدلته بفترة من الحبس؟»

«أتقول أحبسك» ؟ يالها من فكرة ياصاحبي العزيز! أتتوقع منا أيضاً أن نطعمك؟ - كلا، ياصديقي، إذا كنت غير قادر على دفع هذه الغرامة التافهة، سأضطر الى أن أفرض عليك أقسى عقوبة، وهي سحب مؤقت لتصريح وجودك! تلطف واعطني بطاقة وجودك!

لم يكن معي أي ورقة.

لم يفه الموظف بأي كلمة. استدعى اثنين من زملائه، وأخذوا يتداولون همساً ويومئون مراراً باتجاهي ويرمونني بنظرات الرعب والذهول. ثم أمر الموظف بأخذي إلى غرفة الاحتجاز وذلك أثناء إجراء التشاورات بخصوص قضيتي.

وهناك كان عدة أشخاص موزعين في المكان بعضهم جالساً وآخرون واقفين ووقف جندي يحرس الباب. لاحظت أني بغض النظر عن كوني حافي القدمين كنت أفضل منهم بكثير في ملبسي. وقد عاملني الآخرون باحترام خاص وأفسحوا مكاناً لجلوسي. وأخذ رجل رعديد يقترب مني سائراً بانحراف، ثم مال علي وهمس في أذني: لدي صفقة جيدة لأجلك. عندي في البيت حبة من الشمندر السكري. حبة كاملة بحالة ممتازة. تزن نحو سبعة باوند. إنها لك إن شئت. ماذا تدفع في مقابلها؟

قرّب أذنه من فمي، فهمست له «اطلب أنت. كم تريد فيها؟»

ردّ بهمس خفيف «فلنقل مئة وخمسين غولدناً!»

هززت رأس رفضاً وأشحت بوجهي عنه وسرعان مااستغرقت في التفكير.

اتضح لي أن غيابي قد طال كثيراً، وسيكون من الصعب علي أن أتكيَّف. كنت مستعداً أن أهب الكثير في مقابل أن أحصل على حذاء وجورب، فقد كانت قدماي باردتين برودة شديدة جراء المشي بهما على أرض الشارع الرطبة. غير أن كل من كان في الغرفة كان أيضاً حافياً مثلي.

بعد مضي بضع ساعات جاؤوا في طلبي. أُخذت الى المكتب رقم ٢٨٥، غرفة ١٩. ف هذه المرة مكث رجل البوليس معي. تمركز بيني وبين الموظف الرسمي موظف عالي المركز، كما بدا لي.

بادرني بالقول «لقد وضعت نفسك في موقف حرج جداً. لقد كنت تعيش في هذه المدينة بدون تصريح بالوجود. إنك تدرك ولاشك أن أقسى العقوبات معمول بها»

قمت بانحناءة قصيرة.

قلت «من فضلك لدي طلب واحد، لقد أدركت أني غير متكيّف بالمرة مع الوضع القائم وموقفي يزداد سوءاً على سوء - ألا تستطيع أن تحكم علي بالاعدام؟ سوف أكون شديد الامتنان إن فعلت!»

نظر الموظف الرسمي بدقة في عينيّ.

قال بلطف «إنني أتفهمك، ولكن يمكن لأي شخص أن يطلب ما تطلب على أي حال، تحتاج الى شهادة وفاة. هل معك ثمنها؟ إنها تكلفك أربعة آلاف غولدن».

«كلا لا أحتكم على هذا القدر من المال. لكني أعطيك كل ما أملك. إن لدي رغبة قوية في الموت»

رسم ابتسامة غريبة.

«أنا أصدقك، فلست وحدك في هذا. لكن الموت ليس بهذه البساطة. أنت تنتمي الى دولة يا عزيزي، ومدين لها بجسدك وبروحك. يجب أن تعي ذلك.

ولكن بالمناسبة - أرى أنك مقيد تحت اسم سنكلير[1]، إميل. أتكون سنكلير، الكاتب؟»

«أنا هو»

«أوه هذا يسعدني كثيراً. ربما استطعت أن أساعدك أيها الضابط، يمكنك أن تغادر».

ترك رجل الشرطة الغرفة، وصافحني الموظف الرسمي.

قال بنبرة ودية «لقد قرأت مؤلفاتك باهتمام شديد وسأبذل اقصى جهدي لأساعدك - ولكن، ياإلهي كيف تورطت في هذا الوضع الرهيب؟»

«في الواقع، كنت غائباً منذ مدة. فمنذ نحو سنتين أو ثلاث التجأت الى العالم الفسيح، وبصراحة حسبت أني عندما أرجع سأجد أن الحرب قد انتهت - ولكن قل لي، هل تستطيع أن تدبر لي شهادة وفاة؟ إن فعلت سأكون شديد الامتنان لك».

«قد أستطيع. ولكن أولاً سوف تحتاج الى تصريح بالوجود. من الواضح أنه لايمكن عمل شيء بدونه. سوف أعطيك رسالة موجهة الى المكتب ١٢٧، وسوف يخرجون لك، بتوصية مني، بطاقة وجود. لكنها ستكون صالحة فقط مدة يومين»

«أوه، هذا أكثر من كافٍ»

«عظيم! عندما تحصل عليها، عُد إلى هنا»

وتصافحنا.

قلت برقة: «ثمة أمر آخر. هل لي بسؤال؟ يجب أن تدرك أنني لاأعرف أي شيء عما يجري».

«اسأل ما تشاء»

«حسن، إليك ما أود أن أعرفه: كيف يمكن للحياة أن تستمر في ظل هذه الأوضاع؟ كيف يمكن للناس أن يتحملوها؟»

---

[1] إميل سنكلير هو الإسم المستعار الذي استعان به هرمن هسه لنشر هذه المقالة، وقد عاد إلى الاستعانة به في روايته " دميان ".

«أوه إن وضعهم ليس بهذه الدرجة من السوء. إن حالتك استثنائية: رجل مدني - وبدون أوراق ثبوتية! لم يبق هناك الكثير من المدنيين. إن كل من ليس جندياً بلا استثناء يُعتبر موظفاً مدنياً. وهذا بالنسبة الى أغلب الناس يجعل الحياة مقبولة وعدد كبير منهم سعداء حقاً. إن المرء يتعود شيئاً فشيئاً على نقص المواد. عندما تنفد البطاطا يتوجب علينا أن نقنع بثريد نشارة الخشب إنهم الآن يلطِّفون طعمها بالقطران، وهو لذيذ بصورة مدهشة - كلنا كنا نعتقد أن مذاقه سيكون كريهاً لكننا تعودنا عليه. الأمر ينطبق على كل شيء آخر».

قلت: «فهمت. إن الأمر حقاً ليس مفاجئاً. ولكن هناك شيئاً واحداً مازلت لاأفهمه. قل لي: لماذا يبذل العالم كله هذه الجهود الجبارة؟ يحتملون مثل هذه الظروف القاسية، وكل هذه القوانين وهذه الآلاف من الدوائر الرسمية والموظفين الرسميين - ما مغزى المحافظة على هذا كله وصيانته؟»

رمقني الرجل المحترم مذهولاً.

هتف، وهو يهز رأسه «ياله من سؤال؟ أنت تعرف أننا في حالة حرب. العالم كله في حالة حرب. هذا مانعمل على المحافظة عليه، ومانصنع القوانين ونتحمل الظروف القاسية لأجله. الحرب! ولولا هذه الجهود والانجازات الجبارة لما تمكنت جيوشنا من القتال مدة أسبوع واحد. كانت ستجوع - ولايمكن أن نسمح بهذا».

قلت ببطء «نعم، معك حق في هذه النقطة! بعبارة أخرى، الحرب كنز يجب المحافظة عليه بأي ثمن. نعم، ولكن - أعرف أنه سؤال غريب لماذا تعلي من قدر الحرب إلى هذه الدرجة؟ أتستحق منك هذا كله؟ أحقاً الحرب كنز؟»

هز الموظف الرسمي كتفه ورماني بنظرة مشفقة كان يرى أني فقط لا أتوصل إلى فهمه.

قال «ياعزيزي الهر سينكلير، أنت لم يعد لك اتصال بالعالم. أُخرج الى الشارع، تحدث الى الناس، ثم ابذل جهداً عقلياً بسيطاً واسأل نفسك: ماذا تبقى لنا؟ ما هو جوهر حياتنا؟ لن تجد إلا جواباً واحداً معقولاً: إن الحرب هي كل ماتبقى لنا! أما المسرة والمنفعة الشخصية والطموح الاجتماعي،

والجشع والحب والنشاط الثقافي . هذا كله انتهى أمره. وإذا كان مايزال في العالم قانون، أو نظام أو فكر فيجب أن نشكر الحرب عليه. - والآن، هل فهمت؟»

نعم، الآن فهمت، وشكرت السيد المحترم من صميم قلبي. غادرته ووضعت التوصية الموجهة الى المكتب ١٢٧ بحركة آلية في جيبي. لم أكن أنوي أن أستخدمها، ولم تكن بي رغبة في تسبيب مزيد من المضايقة للسادة في تلك المكاتب. وقبل أن يتمكن أحد من ملاحظة وجودي وإيقافي، رحت أتلو بيني وبين نفسي الرقيّة النجمية القصيرة، وأوقفت وجيب قلبي، وجعلت جسدي يتلاشى تحت أجمة من الشجيرات. وواصلت جولاتي الكونية وتخليت عن فكرة التوجه إلى أرض الوطن.

عيد الميلاد

كانون أول عام ١٩١٧

حتى في حضرة المُذكِّرْ العظيم كانت دائماً تنتابني هواجس مبهمـة في فـترة عيد الميلاد وتخلف في فمي مذاقاً كريهاً. هناك كان يوجـد شـيء جميـل ولكـن ليس أصيلاً، شيء موثوق عالمياً ومحترم لكنه مع ذلك يوحـي بقـدر من الريبة المستترة.

الآن وقد اقترب عيد الميلاد الرابع في زمن الحـرب لا أسـتطيع أن أتخلـص من ذاك المذاق في فمي، صحيح أني سأحتفل بعيـد الميلاد، لأن لـدي أطفـالاً ولاأريد أن أحرمهم من مسرة متاحة. لكني سوف أحتفل بعيـد الميلاد الخـاص بالأطفال هذا بالروح ذاتها التي احتفلتُ بها بعيد ميلاد مع السـجناء في سياق مجهودي الحربي - كلفْتةٍ رسميةٍ أو تنازُل لصالح تقليد زمن الحرب، أو نزعة عاطفية فاترة. إننـا خـلال السـنوات الثـلاث الأخـيرة عاملنـا سـجناء الحـرب البائسين أولئك كمجرمين قساة. وها نحـن الآن نرسـل إليهـم صنـاديق صغـيرة جميلة ولفافات تحتوي نتفاً من نبات دائم الخضرة - إنها تثير المشاعر، أحياناً أنا نفسي أتأثر بها، أكاد أتمثل مشاعر السجين الـذي يتلقى هديتـه الصغـيرة ويتدفق عليه سيل من الذكريات حالما يشم نتف نباتاته الخضراء. لكـن هـذا في أعماقه هو أيضاً نزعة عاطفية.

إننا طوال كل عام كامل نُبقي السجناء في حبسهم، على الرغم من أن كـل مافعلوه أنهم سمحوا لتحرُّك العدو أن يباغتهم، ومن ثم في عيـد الميـلاد نقوم بزيارة مئات آلاف أو الملايين من أولئك البائسين حاملين هدايا رقيقة ونذكِّرهـم

بوليمة الحب. هكذا بالضبط نعامل أطفالنا. نحن ندعوهم مرة واحدة في العام للابتهاج في أسطورة الحب العلوي. في أمسية واحدة فقط. وتحت شجرة الميلاد، نحيطهم بشكل مؤثر برعايتنا بينما ندفعهم طوال الوقت الباقي الى تنكّب المصير نفسه الذي نلعنه جميعاً.

عندما يرمي أحد السجناء هدية عيد ميلاد جميلة أعطيتُها له في وجهي ويدوس النتف الخضراء المثيرة للمشاعر فلا لوم عليه أبداً. وعندما لايثق أطفالنا بمشاعرنا، بتهليلنا في حضرة الطفل يسوع، عندما يعتبروننا منافقين وسخفاء، هم أيضاً لالوم عليهم ابداً. فلولا حفنة من الورعين الصادقين لأصبح عيد الميلاد بالنسبة الينامنذ زمن بعيد مجرد مناسبة عاطفية. أو أسوأ، منطلقاً لحملات الدعاية، أو ساحة لإقامة مشروع مشبوه، أو لترويج منتج رديء.

لماذا؟ لأن عيد الميلاد، وليمة الحب البريء لم يعد، بالنسبة إلينا جميعاً ومنذ زمن بعيد، تعبيراً عن مشاعرنا الصادقة. لقد أصبح النقيض المباشر لها، أي بديلاً للمشاعر، محاكاة رخيصة. مرة واحدة في العام نتصرف وكأننا نعلق أهمية كبرى على العواطف النبيلة، كأنما يسعدنا أن ننفق المال عليها. إن انفعالنا العابر، في الواقع، بالجمال الحقيقي لتلك المشاعر قد يكون عظيماً جداً. وكلما زادت عظمة وصدقاً، سادت عظمة العاطفة. إن العاطفة تمثل موقفنا النموذجي من عيد الميلاد ومن حفنة من المناسبة المادية الأخرى التي لازالت آثار الطقوس المسيحية خلالها تظهر في حياتنا. إن مشاعرنا في مثل تلك المناسبات مفادها مايلي: «إن هذا التصور للحب شيء عظيم»! ما أصدق القول: إن الحب وحده يستطيع أن يوصلنا الى الخلاص! ويا خسارة لأن ظروفنا تمنحنا رفاهية هذه العاطفة النبيلة فقط مرة واحدة في العام، ولأن عملنا وهموماً أخرى هامة تبعدنا عنها طوال ما تبقى منه! إن لهذا الشعور كل علائم العاطفة. وذلك لأن من قبيل العاطفة أن ننفس عن أنفسنا بمشاعر لانأخذها بقدر كاف على محمل الجد بحيث نضحي من أجلها ونتحول إلى الفعل.

عندما يشتكي الكهان والورعون من أن الإيمان قد تلاشى من العالم وأخذ معه السعادة، فهم على حق. إن موقفنا من القيم الانسانية كلها أشد أهمية وفظاظة مما شهده العالم طوال قرون.. وهذا يتبدى جلياً في موقفنا من الدين،

ومن الفن وفي فننا ذاته، ذلك لأن الرأي المهموس القائل إن أوروبا المعاصرة قد ارتقت الى ذرى لم يسبقها إليها أحد في مجال الفن، أو «الثقافة» فيما يتعلق بهذا الموضوع، هو من ابتكار محافظي ثقافتنا.

إن «مثقف» هذه الأيام يتخذ موقفاً مميزاً من تعاليم يسوع: فهو على امتداد العالم لايفكر فيها ولايعيش على نبراسها، لكنه في عشية عيد الميلاد يفسح المجال لذكرى حزينة، غامضة، من عهد الطفولة ويتمرغ بعواطف ورعة، تفهة، ورخيصة، فقط مرة أو مرتين، أثناء إنصاته إلى آلام القديس متّى مثلاً. وينحني لهذا العالم الذي طال نسيانه ولكنه مازال مضطرباً ويتمتع سراً بالقوة.

الجميع يعترفون بهذا، والجميع يعرفونه، والجميع أيضاً يعرفون أنه أمر مؤسف جداً. وقد قيل لنا أن اللوم يقع على التطورات السياسية والاقتصادية أو على الدولة، أو النزعة العسكرية، وما الى ذلك. إذ لابد أن يوضع اللوم على أحد. لاتوجد دولة «تريد الحرب» تماماً كما أنه لاتوجد دولة تريد يوم دوام من أربع عشرة ساعة، أو الفقر المنزلي أو نسبة وفيات الأطفال العالية.

قبل أن نحتفل بعيد ميلاد آخر، قبل أن نحاول مرة أخرى أن نسترضي توقنا الأبدي والهام حقاً بعاطفة مقلدة جماعية، فلنواجه وضعنا المزري ببسالة. إن اللوم لايقع على فكرة أو مبدأ من أجل بؤسنا كله، من أجل بطلان حياتنا، خشونتها، وعمقها، من أجل الحرب والجوع وكل ماهو شرير وكئيب، نحن مَنْ يجب أن يُلام. وفقط من خلالنا من خلال بصيرتنا وإرادتنا يحدث التغيير.

لافرق إن عدنا إلى تعاليم يسوع واحتضناها من جديد، أو بحثنا عن أشكال جديدة. لأنه في مجال الضرب على وتر الانسانية الأبدي، تستوي تعاليم يسوع ولاوتزو وفيداس وغوتة، ليس هناك إلا عقيدة واحدة ليس. هناك إلا دين واحد. ليس هناك إلا سعادة واحدة. هناك الف شكل وألف سفير ولكن فقط نداء واحد. صوت واحد. إن صوت الله لايأتي من جبل سيناء، ولايأتي من الكتاب المقدس. إن جوهر الحب والجمال والقداسة لايكمن في الديانات المسيحية أو في العصور القديمة أو في غوتة أو في تولستوي - إنه يكمن فيك وفيّ، في كل واحد منا. هذه هي العقيدة الأبدية الوحيدة والمتطابقة دائماً، حقيقتنا الأبدية الوحيدة. إن مانحمله في داخلنا هو عقيدة «مملكة السماء».

أضيئوا شموع عيد الميلاد لأجل أطفالكم! دعوهم يرتلون الترانيم، ولكن لاتضلّلوا أنفسكم، لاتركنوا على مر السنين الى القناعة بالشعور العاطفي، المحزن، الرث، الذي ينتابكم وأنتم تحتفلون بالعطل الدينية أطلبوا أكثر من ذلك من أنفسكم! إن الحب والفرح والغامض المسمى «السعادة» لم تنته من هنا أو من هناك، إنها فقط في «داخلنا».

* * *

هل سيحل السلام؟

كانون أول عام ١٩١٧

مؤخراً أعلن ويلسون ولويد جورج عن إرادتهما التي لاتلين أن يواصلا القتال حتى إحراز النصر النهائي. والقضاء الايطالي عامل الاشتراكي مرغاري كمجنون لأنه نطق بضع كلمات إنسانية عفوية. واليوم ينكر مبعوث قولف بثقة جافة في النفس الاشاعة القائلة بوجود اقتراح ألماني جديد بعقد سلام: «إن ألمانيا وحلفاءها ليس لديهم أقل سبب لتكرار تقديم عرض السلام الشهم».

بعبارة أخرى يبقى الحال على ما هو عليه، إذا ما حاولت ورقة عشب مسالمة أن تخرق سطح التربة فسوف تسرع جزمة عسكرية إلى سحقها.

وفي الوقت نفسه نقرأ أن مباحثات السلام بدأت في تربيت - لبتوفسك - وأن الهر كولمن قد افتتح دورة تعليمية حول أهمية عيد الميلاد وتكلم، مستعيناً بالإنجيل، عن السلام على الأرض. فإذا كان يعني ما يقول، إذا كان لديه حتى أقل فهم لتلك الكلمات الهائلة، فإن السلام آت محالة. لكن لسوء الحظ إن تجربتنا عن المقتطفات المأخوذة من الانجيل التي ترد على السنة رجال الدولة لم تكن حتى الآن مشجعة.

منذ بضعة أيام وعيون العالم مثبتة على مكانين.. والشعور السائد هو أنه في تينك المكانين سوف تبلغ اقدار الأمم أوجها، ويومىء المستقبل، وتهدر الكارثة بالوقوع. ويتطلع العالم محبوس الأنفاس جهة الشرق، حيث تجري مباحثات السلام في بريت - ليتوفسك. وفي الوقت نفسه يراقب ما يحدث على الجبهة الغربية يعتصره ألم رهيب، لأن الكل يشعر، الكل يعرف أنه في غياب حدوث

معجزة فإن أفظع كارثــة يمكـن أن تحـل بالبشـر توشـك أن تقـع : إنهـا أمَّـر، وألعن، وأبشع وأشد المعارك قسوة على مرّ الأزمان.

إن الجميع يتكهنون بها والجميع، ماعدا حفنــة مـن الخطبـاء والسياسـيين المتفائلين ومستغلي ظرف الحرب، يرتجفون لمجرد التفكير فيها. أما بخصوص نتيجة هذه المذبحة الجماعية، فالآراء تختلف. ففي كلا المعسكرين أغلبية تؤمن بجدية بإحراز النصر الحاسم. ولكن ثمة أمراً واحداً لايمكن لأي شخص يتمتـع بأثر من الحس السليم أن يصدقه ألا وهو أن المثل الأعلى، والأهداف الانسـانية التي تبرز جلية من خلال خطابات رجال الدولة كلهـم، سـوف تتحقـق وكلمـا كانت هذه المعارك الختامية للحرب العالمية أضخم، وأكثر، دمويــة، تدميراً، قلّ ماتنجزه من أجل المستقبل وقلّ الأمـل في تهدئـة الأحقـاد والتنـافس، أو في التخلص من الفكرة القائلـة: إنـه يمكـن بلـوغ الأهـداف السياسية بالاسـتعانة المجرمة بالحرب. فـإذا مـاحقق أحـد المعسـكرين بحـق النصـر الحاسـم (وهـذا الهدف هو التبرير الوحيد الذي يقدمه القـادة في خطابـاتهم المهيِّجـة)، عندئـذ ستكون النزعة العسكرية التي نبغضها قد أحرزت فوزهــا. وإذا كـان المنـاصرون للحرب جادين في قراراتهم في كلمة واحدة مما يقولون حــول أهـداف الحـرب، فإن سخافة نقاشاتهم كلها وعمقها التام يصعق المخيلة.

هل يمكن تبرير مذبحة لايمكن تصـور مداهـا بخليـط مـن المغالطـات لاأمـل يرجى منها، وبآمال وخطط متناقضة؟ بينما كـل الشـعوب صاحبـة حتـى أقـل تجربة في الحرب ومعاناتها تنتظر نتيجة مباحثات السـلام بـالصلاة والـترقب، وبينما نحن جميعاً مدفوعون الى الشعور بالحب والامتنـان لـلروس لأنهـم، أولاً بين الأمم، هاجموا الحرب من جذورها وصمموا علـى إنهائهـا، وبينمـا نصـف العالم يموت من الجوع وانقسم الجهد الانساني النافع على نفسه إذا لم يكن قد توقف تماماً - في ذلـك الوقـت، كـانت الاسـتعدادات تتـم في فرنسـا مـن أجـل مايشيع القشعريرة في أجسادنا لمجرد ذكر اسمه، مذبحة جماعيــة مـن المتوقـع أن تقرر، لكنها لن تفعل، نتيجـة الحـرب، مـن أجـل الحصـول علـى تجمُّـع البطولة والصبر النهائي والعبثـي، انتصار المتفجـرات والآليـات النهـائي علـى الحياة الانسانية والروح الانسانية!

على ضوء هذا الوضع من واجبنا، الواجب المقدس الوحيد لكل ذي إرادة طيبة على الأرض، ليس أن نتلفع باللامبالاة وندع الأمور تأخذ مجراها، بل أن نبذل قصارى جهدنا لكي نمنع وقوع تلك الكارثة الختامية.

تقولون، نعم ولكن ماذا عسانا نفعل؟ لو إننا مسؤولون ووزراء لقمنا بواجبنا، ولكن الحال هو أننا بلا حول ولا قوة.

هذا هو رد الفعل السهل اتجاه كل مسؤولية ثم أصبح الوضع شديد الوطأة. فإذا لجأنا الى السياسيين والقادة، يهزون بدورهم رؤوسهم ويستحضرون عجزهم. لايمكننا أن نجلس ونلقي باللوم عليهم.

إن اللوم يجب أن نلقيه على العجز والجبن الكامن في كل منا، وتفكيرنا يجب أن نصبه على عنادنا ونفورنا، وكرد على الرائع ميرغاري، رفض سونينو أن يقول" أي شيء من شأنه أن يمنح العدو العون والعزاء ومبعوث قولف الذي أتيت على ذكره لتوي يعلن أنه ليس لدى ألمانيا «أوهى سبب» للقيام بأي خطوة أخرى لصالح السلام. لكننا نحن أنفسنا نعطي في كل يوم برهاناً على اتخاذنا الموقف نفسه. إننا نتقبل الأشياء كما ترد، نتهلل لإحراز الانتصارات ونأسى لوقوع خسائر في معسكرنا، ونقبل الحرب ضمناً بوصفها أداة سياسية.

وا أسفاه إن كل أمة وكل عائلة، كل فرد في أوروبا كلها وأبعد منها لديه، أكثر من "سبب" كاف من أجل أن يبذل أقصى جهده لصالح السلام الذي نتوق اليه. فقط ثلة تتقلص من الأقلية تريد حقاً استمرار الحرب - وهم بدون أدنى شك يستحقون احتقارنا وأصدق كراهيتنا. وحدها قلة قليلة من المتعصبين المرضى أو المجرمين المجردين من الأخلاق تقف في صف هذه الحرب، ومع ذلك - ويبدو بعيداً عن التصور فهي تستمر، ولايكل الطرفان عن زيادة تسلحهما من أجل إنجاز المحرقة النهائية المزعومة في الغرب!.

إن ما يجعل هذا ممكناً هو انغماسنا في الكسل، والتهاون، والجبن، إنه ممكن فقط لأننا في قرارة قلوبنا نوافق أو نتسامح مع الحرب، لأننا نرمي بموارد عقولنا وأرواحنا إلى الرياح ونترك الآلات الضالة تسير على هواها! هذا مايفعله القادة السياسيون، وماتفعله الجيوش، ولكن نحن أنفسنا، المتفرجون، لسنا أفضل منهم، نحن جميعاً نعلم أن في استطاعتنا أن نوقف الحرب إذا كنا

جادين في إرادتنا. نعلم أنه عندما يشعر الرجال حقا بضرورة القيام بعمل ما فإنهم يقدمون على تنفيذه رغماً عن كل مقاومة. لقد بقينا نتفرج باعجاب وقلوب خافقة عندما توقف الروس عن القتال وأبدوا رغبتهم في الجنوح نحو السلم. لم يبق شعب واحد على سطح الأرض لم يتأثر بعمق من قلبه وضميره بهذه الدراما الرائعة لكننا في الوقت نفسه رفضنا الالتزامات التي تتضمنها هذه المشاعر. إن كل سياسي في العالم يقف بكل حماس في صف الثورة، والعقل، وإيقاف القتال - ولكن على أن يحدث هذا في معسكر العدو، وليس في معسكره! إذا كنا جادين نستطيع أن نوقف الحرب. لقد اقتفى الروس مرة أخرى قدوة الأقدمين والمبدأ المقدس القائل إن الضعيف يمكن أن يكون الأقوى. لِمَ لا يقتدي أحد بهم؟ لِمَ تَقْنَع البرلمانات والوزارات في كل مكان بالهراء الكئيب نفسه، بالتفاهات اليومية نفسها، لِمَ لا ينهض أحد في أي مكان ويناصر فكرة عظيمة، الفكرة الوحيدة الهامة اليوم؟ لماذا لايساندون تقرير مصير الأمم إلا عندما يأملون في أن ينتفعوا منه؟ لماذا مازال الناس يخدعون بالمثالية الزائفة لتجار الكلام الرسميين؟ يقال إن كل أمة تحصل على الحكام الذين تريدهم وتستحقهم. لعل هذا صحيح. على أي حال نحن الأوروبيون لدينا أشد الحكام دموية وتجرداً من الرحمة: الحرب. أهذا ما نريد ونستحق؟

لا، لانريدها كلنا نريد العكس وبغض النظر عن حفنة من الاستغلاليين، لاأحد يريد هذا الوضع المغم، المخجل. فماذا نستطيع أن نفعل إذن؟ نستطيع أن نحرض أنفسنا! نستطيع أن نستغل كل فرصة متاحة لاظهار استعدادنا للسلام. نستطيع أن نتخلى عن تلك الاستفزازات العقيمة مثل مبعوث فولف المذكور آنفاً ونكف عن التكلم مثل سونينو. ونحن عند مفترق الطرق الحالي فإن قليلاً من المهانة، والتنازل، والدافع الانساني لايضيرنا! كيف نستطيع، بعد أن لوثنا أنفسنا بكل تلك الدماء، أن نقلق بشأن التفاهات الوطنية الحقيرة؟.

الآن هو الوقت المناسب لطرد رجال الدولة أولئك الذين يفهمون السياسة الخارجية بلغة البرامج الوطنية الأنانية، الذين يتجاهلون بكاء البشرية! لماذا ننتظر حتى تسفك حماقتهم دماء المزيد من الملايين؟

علينا جميعاً - العظيم الشأن منا والمتواضع، المتورط في الحرب والحيادي - ألا نسد آذاننا عن التحذير الرهيب لهذه الساعة، عن التهديد الذي تنذر به أعمال الرعب الوحشية. إن السلام في متناولنا! كفكرة، كرغبة! كاقتراح، كطاقة تعمل في صمت، هي في كل مكان، في كل قلب، لو أن كلاً منا يصمم بقوة على خدمة قضية السلام، على الجهر بأفكاره وتصوراته الخاصة عن السلام - لو أن كل إنسان حسن النية يقرر أن يكرس نفسه بعض الوقت حصراً لإزاحة العقبات والعوائق الموضوعة في طريق السلام، فسوف نحصل على السلام.

إذا ما أُنجز هذا فسوف نساعد جميعاً على تحقيقه، سوف نشعر جميعاً أننا جديرون بتولي المهام العظيمة التي سيسندها إلينا - في حين أننا جميعاً حتى الآن ممسوسون بشعور مشترك بالذنب.

إذا ما استمرت الحرب

خمس سنين أخرى

أوائل عام ١٩١٨

(في خريف عام ١٢٥، خرجت "الصحيفة الرسمية" الصحيفة الوحيدة التي كانت ماتزال تصدر «أسبوعياً» في مملكة ساكسوني، بالمقالة القصيرة التالية التي حملت العنوان المبهم نوعاً ما):

كاسبر هاوزر جديد

بالقرب من روتبرغ في فوتلاند تم الوقوع مؤخراً على اكتشاف محير ومقلق. وحده المستقبل قادر على أن يبين إنْ كل ماكان يجب أن نعتبره مجرد ظاهرة غريبة أم أنه قضية تثير اهتماماً أبعد أثراً بكثير.

في سياق عملية «التخلص من المواطنين الذين يثبت عدم صلاحيتهم للخدمة العامة»، وهو برنامج نُظِّم في منطقتنا بكفاءة يُقتدى بها ونُفِّذ بإنسانية، واضعاً في الحسبان صعوبات حتمية، ابلغت السلطات المحلية في روتبرغ عن إحدى تلك الحالات التي يكثر حدوثها ويعمل فرد فريد، على الرغم من عجزه الأكيد عن أن يكون ذا أي فائدة مهما كانت للدولة ولخير المجتمع، على أن يتخطى بشكل واضح مدة حياته المقدرة له، ويبدو أنها في الحالة الراهنة تقدر بعدة أشهر. وقبل عام من الآن، صنّفتْ لائحةُ التحكم بالشيخوخة هذا الفرد المنعزل، المدعو فيليب غاسنر والمقيم في منزل ريفي منعزل خارج إحدى القرى، عاطلا عن العمل وذَكَّرَته، كالعادة في مثل تلك الحالات، بواجبه المدني وذلك بالتخفيض المضطرد لمخصصاته من المؤن. وعندما انقضى الموعد المحدد، ولم يُبلِّغ عن وفاته، ولا سُجِّل إسمه في مركز التخدير المحلي، وعلى الأثر بعثت

السلطات المحلية على الأثر الرقيب كيله الى منزل غاسنر لينقل إليه إشعاراً رسمياً بواجبه المدني ويبلغه عقوبة العصيان.

على الرغم من أن هذا الإشعار قد تم نقله وفق الأعراف المتفق عليها وكانت مرفقة بالخدمة المجانية المعتادة، إلا أن غاسنر الذي يبلغ نحو السبعين زمن العمر، اصيب بحالة من الهياج الغريب ورفض بعناد أن يذعن للقانون.. وعبثاً عنفه الرقيب لموقفه غير الوطني وحاول أن يبين له أن مما يثبط الهمة أن يرفض رجل عجوز، أمضى سني شيخوخته ينعم بمظاهر التكريم المدني، تقديم تضحيةٍ كل الشبان المعقود عليهم الأمل على استعداد لتقديمها على جبهة القتال. وعندما أعلن له الرقيب أنه رهن الاعتقال، تمادى غاسنر الى حد إبداء المقاومة. فوجىء الرقيب بالقوة الجسدية لهذا الرجل الذي خفضت عنه مخصصاته من المؤن، فانتقل الى تفتيش المنزل. وهنا جاء الجزء الذي لايصدق من القصة: لقد اكتُشِفَ وجود شاب يافع في الطابق الثاني المطل على الحديقة. كان العجوز يخفيه منذ سنين طويلة.

هذا الشاب البالغ السادسة والعشرين من العمر ويفيض بالصحة اتضح أنه أوليس غاسنر، ابن صاحب المنزل. ولازال مبهماً كيف تمكن ذاك العجوز الماكر أن يزوغ من سلطة التجنيد الالزامي ويحتفظ بابنه مخبأ لسنين طويلة؟ الفرضية الأرجح هي أنه لجأ الى التزوير الإجرامي في السجلات. ولاشك في أن الموقع المنعزل للمنزل، وموارده المالية المتوفرة، ووجود حديقة مطبخ تتلقى عناية فائقة وتزودهما بما يفيض عنهما من طعام، يفسر الكثير.

إن ما يهمنا هنا ليس عملية التزوير والتهرب من الخدمة الخطيرة وغير العادية، وإنما حالة الشذوذ النفسي التي برزت الى حيز الوجود والتي يقوم الآن الخبراء بإجراء الأبحاث عليها. إن القصة لاتكاد تصدق، لكن الشهادة المتوفرة لاتترك أي مجال للشك!

يتفق المختصون جميعاً على أن أليوس غاسنر، طبيعي عقلياً فبالاضافة الى مهارته في القراءة والكتابة، والحساب، كان فائق التهذيب، وقد كرس نفسه، بمعية مكتبة خاصة عامرة بالكتب، لدراسة الفلسفة، وألف عدداً من الأبحاص حول نظرية المعرفة وجوانب متنوعة من تاريخ الفلسفة، ناهيك عن قصائد

ومحاولات خاطفة في الكتابة الابداعية، وكلها تقف شاهداً على الأقل على صفاء في التفكير وذهن مدرب.

ولكن هناك فجوة شديدة الغرابة في الحياة العقلية لهذا الشاب الغريب - إنه لايعرف أي شيء عن الحرب الدائرة. لقد عاش طوال تلك السنين خارج العالم المحيط بنا جميعاً! وكما أنه رسمياً لم يكن موجوداً بالنسبة الى العالم، كذلك فإن عالمنا وزمننا الحاضر غير موجودين بالنسبة إليه. لعله الانسان الراشد الوحيد في أوروبا الذي على الرغم من سلامة عقله التامة، لايعرف أي شيء عن الزمن الذي يعيش فيه، عن الحرب العالمية وعن الأحداث والثورات التي وقعت خلال السنوات العشر الأخيرة!

إننا نشعر برغبة في أن نقارن هذا الفيلسوف الغريب بكاسبر هاوزر، ذاك الشخص الأسطوري الذي أمضى سنوات حياته المبكرة في إبهام منعزل، بعيداً عن عالم الناس.

ربما لن يطول أمر كشف الغموض عن قضية غاسنر الإبن البسيطة نسبياً وإصدار الحكم فيها. لقد ارتكب جريمة خطيرة وعليه أن يتحمل العواقب. أما بالنسبة الى الإبن وتورطه في الجريمة فالآراء تختلف كثيرا. حالياً هو يخضع للاختبار في مستشفى للأمراض العقلية. وردة فعله الوحيدة حيال القليل مما عرفه حتى الان عن الأحداث الجارية وعن واجباته المدنية والرسمية، كانت دهشة طفولية مشوبة بالخوف. إن من الجلي تماماً أنه لايأخذ محاولات تثقيفية في هذه الأمور بجدية شديدة؛ يبدو أنه يعتبر أن كل مايمت بصلة إلى عالم الحاضر هو قصص استخدمت لاختبار حالته العقلية. وحتى الآن لم تحظ الأسئلة والاختبارات القائمة على قاعدة الكلمات الأساسية التي يعرفها كل طفل بأي استجابة.

لقد علمنا، قبيل التوجه إلى الصحافة، أن كلية الفلسفة في جامعة لايبزيغ تبحث الآن في القضية. وسوف تتم دراسة كتابات غاسنر بدقة، ولكن، بغض النظر عن القيمة الإيجابية أو السلبية لهذه الكتابات، فإن الكلية متلهفة إلى التعرف الى الرجل نفسه وقد تقرر أن تحصل عليه بوصفه نموذجاً فريداً لنوع منقرض من الرجال. هذا «الرجل المنتمي لما قبل الحرب» سوف يخضع لبحث شامل وقد يُحْتَكَرْ لأغراض علمية.

الأوروبي

كانون الثاني عام ١٩١٨

أخيراً رقّ رب العالمين وأرسل فيضاناً عاتياً، واضعاً بذلك نهاية لحقبة من تاريخ الأرض تراكمت خلال الحرب العالمية الدموية. وجرفت المياه الرحيمة مادنس الكوكب العجوز: حقول الثلج المشيعة بالدماء، والجبال المدججة بالمدافع، والجثث المتعفنة والذين يندبونها، والثملين من شبق الدماء والفقراء المدقعين، والجياع والذين ضربهم الجنون.

وأخذت السماء الزرقاء تنظر بهدوء إلى الكرة الملساء.

لقد ظلت التكنولوجيا الأوروبية حتى النهاية تبدي جلداً. ظلت أوروبا على امتداد أسابيع كثيرة تدافع عن نفسها باقتداروعناد في وجه المياه وهي ترتفع ببطء. في أول الأمر بالسدود الضخمة التي كان ملايين من سجناء الحرب يعملون على انشائها نهاراً وليلاً، ثم بالاستحكامات المصطنعة التي كانت تنهض بسرعة هائلة وتبدو للوهلة الأولى أشبه بمتاريس عملاقة ولكن بالتدريج تستدق لتصبح على شكل أبراج. وكان الرجال ينسحبون إلى تلك الأبراج ويحافظون على إيمانهم حتى النهاية بما يتصف أمثالهم من بطولة مؤثرة. غرقت أولاً أوروبا. ومن ثم العالم بأكمله، ولكن فوق ذرى آخر الأبراج الغارقة كانت الأضواء الكاشفة ما تزال ترمي أشعتها الساطعة الى العتمة الرطبة، بينما المدافع تحرك ببطء قاذفاتها من برج إلى آخر بأقواس رشيقة. واستبقيَ سيل القذائف البطولي حتى النهاية.

أخيراً غرق العالم كله. وطاف الأوروبي الوحيد الناجي معلقاً بطوق النجاة فوق صفحة المياه، مستخدماً ما تبقى له من قوة ليسجل أحداث الأيام

الأخيرة، لأنه أراد لجيل المستقبل أن يعرف أن أرض أجداده قد زال أعداؤها قبل زوالها بعدة ساعات، وهكذا ضمنت الاحتفاظ بسعفة النصر إلى الأبد.

ثم ظهرت سفينة سوداء ضخمة في الأفق الرمادي وأخذت تقترب ببطء من الأوروبي المستنزف. وابتهج، عندما لمح المركب، إذ رأى شيخاً جليلاً واقفاً على متنها - ذا بنية مهيبة ولحية مسترسلة شائبة - وبعد ذلك غاب عن الوعي. انتشله عملاق أفريقي من الماء. وسرعان مافتح عينيه ليرى أمامه الشيخ الجليل واقفاً يبتسم، ذلك لأن نجاح مهمته كان عندئذ قد اكتمل. لقد تم إنقاذ عينة من كل نوع من أنواع المخلوقات الموجودة على الأرض.

بينما كانت السفينة تجري منسابة مع اتجاه الريح، بانتظار انحسار المياه الموحلة، تشكلت حياة سعيدة. لحقت أسراب ضخمة من الأسماك بالسفينة، واحتشدت طيور وحشرات من كل لون فوق المتن المكشوف، وامتلأ كل حيوان وكل انسان بالبهجة لنجاته وبقائه حياً ليعيش حياة جديدة. أرسل الطاووس المتعدد الألوان صراخه الصاحي الحاد عبر امتداد المياه. وضحك الفيل وأخذ يرش نفسه وزوجته بالماء من خرطومه المرتفع، واستلقت السحلية المتقزحة الألوان على الخشب المغسول بأشعة الشمس. وكان الهندي يجمع السمك البراق بطعنات سريعة من رمحه من مياه الفيضات اللامحدودة. والأفريقي كان يضرم النار بحك عصي جافة معاً وفي أوقات فرحه يوقع بضربات متناغمة على فخذي زوجته الريانين براحة يده. ووقف الهندوسي نحيلاً ومستقيماً معقود الزراعين، يتمتم بأبيات من الشعر القديم يحكي عن الخليقة. وجلس الأسكيمو يتبخر تحت أشعة الشمس ينضح بالماء وبالدهن وعيناه الصغيرتان تضحكان بينما ثور أمريكي طيب يشمه. واقتطع الياباني الضئيل الحجم لنفسه عصا، وأخذ يوازنها بعناية، تارة على أنفه وأحياناً على ذقنه. والأوروبي الذي أنقِذَتْ كتاباته معه، وضع جَرْداً بالأحياء الموجودين.

تشكلت مجموعات وصداقات، وعندما كان يبدو أن ثمة شجاراً سينشب كان الرجل الجليل يسرع الى إخماده بتلويحة من يده، وكان كل شيء يتسم بالألفة والمرح، وحده الأوروبي نأى بنفسه، وانشغل في الكتابة - ثم اجتمع البشر والحيوانات كلهم بمختلف أعراقهم وأنواعهم وابتكروا لعبة مسابقة

يستعرض كل منهم فيها مهاراته. وأراد كل منهم أن يكون الأول، واضطر الشيخ الجليل إلى أن العمل على حفظ النظام بنفسه. فقسّم مسافرين الى مجموعتان منفصلة. الحيوانات الضخمة والحيوانات الصغيرة، والبشر. أولاً كان على كل منهم أن يتكلم بصوت عال ويعلن عن العمل المتميز الذي يتوقع أن يتفوق فيه، ومن ثم أخذ كل منهم يقوم بأدائه بدوره.

هذه اللهفة الجميلة استمرت أياماً عديدة، لأن أعضاء كل مجموعة كانوا يتوقفون فجأة عن أداء مايؤدون ويهرعون للفرجة على أداء مجموعة أخرى. وماأروع ماكانوا يقومون به! لقد كان كل مخلوق من مخلوقات الله يستعرض مواهبه المستترة، ماأروعه من عرض لثروة الحياة! وكم ضحكوا وغنوا، واحتشدوا وصفقوا وضربوا اقدامهم بالأرض وهتفوا مهللين!

أبدع ابن عرس في الركض، وشنفت القبرة الآذان بتغريدها، ونفخ ديك الحبش صدره، وراح يمشي بعظمة، وتسلّق السنجاب ببراعة لانظير لها، وقلّد قرد ضخم إنساناً مالايياً[1] وقلد السعدان الأفريقي القرد الضخم. وراح الراكضون والمتسلقون والسباحون والطائرون يتنافسون بلا كلل، وكان كل منهم فريداً على طريقته ويستحق الأعجاب لإجلها. كان بعض الحيوانات يقومون بأعمال سحرية وآخرون يختفون عن الأنظار . كثيرون تميّزوا بالقوة الجسدية وآخرون بالمكر، والبعض بالهجوم، والبعض الآخر بالدفاع عن نفسه. أظهرت الحشرات كيف تدافع عن نفسها بأن تبدو أشبه بالعشب أو بالخشب. أو بالطحالب أو كجزء من الصخور، بينما كان الضعفاء يحوزون على الإعجاب ويدفعون النظارة الضاحكين الى الفرار بنفث روائح كريهة، واتقاء شر هجومهم. لم يتخلف أحد، كان لكل منهم مواهبه، وجُدلت أعشاش الطيور أو أُلصقتْ أو نُسجت، أو بُنيَتْ من الإسمنت. وبيّنتْ الطيور المفترسة كيف تميز أصغر الأشياء من الأعالي الشاهقة.

الآدميون أيضاً أحسنوا الأداء. فبرشاقة وبلا كبير جهد تسلق الأفريقي الضخم السارية وبثلاث حركات رشيقة حوّل الملايي[1] سعفة نخيل الى مجذاف وأخذ يجذف مبحراً على متن لوح صغير من الخشب فوق صفحة

---

[1] المالايي: أي من سكان الملايو.

المياه. وأصاب الهندي أصغر الأهداف بسهم خفيف، ومن نوعين من اللحاء جدلت زوجته حصيراً حازت على إعجاب صارخ. وعقد الذهول ألسنة الجميع أمام إنجازات الهندوسي السحرية وبيَّنَ الصيني كيف يستطيع شعب مجتهد أن يضاعف محصول القمح ثلاث مرات باقتلاع شتلات القمح واستزراعها على فترات منتظمة.

كان الأوروبي مكروهاً جداً، وكم من مرة أثار عداوة أقربائه من البشر بتحقير إنجازات الآخرين. فعندما أصاب الهندي عصفوراً محلقاً عالياً في السماء، هز الرجل الأبيض كتفيه استخفافاً وأعلن أن في استطاعته أن يصيب هدفاً أعلى من ذلك بثلاث مرات بمقدار قليل من الديناميت. وعندما تَحَدُّوه أن يفعل ذلك همهم وتلعثم وقال: إنه بحاجة الى هذا الشيء وذاك وأشياء أخرى كثيرة. وسخر أيضاً من الصيني، قائلاً نعم. صحيح أن ذاك الاستزراع لشتلات القمح قد بين مدى اجتهاد شعبه، لكنه شكَّكَ في أن ذاك الكد المرهق يمكنه أن يوفر لهم السعادة. وقد حاز الصيني على الاستحسان العام بإجابته بأن أي شعب لديه مايكفي من الطعام ويبجل الآلهة هو شعب سعيد، لكن هذا الكلام أيضاً أثار سخرية الأوروبي.

واستمرت المنافسة المرحة إلى أن استعرضت الحيوانات كلها والآدميون مواهبهم ومهاراتهم. واستمتع الجميع وسعدوا. وضحك الشيخ الجليل من بين لحيته البيضاء وقال من باب التقريظ: إن في استطاعة المياه الآن أن تنحسر بكل مرح، ذلك لأن حياة جديدة تغمرها سعادة غير محدودة تولد.

وحده الأوروبي لم يقم بأي عمل مميُز ثم أخذ الجميع يطالبونه متذمرين أن يتقدم ويؤدي ماعنده، ليبين إن كان هو أيضاً له الحق في أن يتنفس هواء الله النقي ويركب منزل الشيخ الجليل العائم. وظل فترة طويلة يرفض ويتعلل بالأعذار. لكن نوحاً تدخلَ بعدئذ بنفسه وعلى الإثر تكلم الرجل الأبيض قال: «أنا أيضاً طورت مقدرة عندي ودربتها حتى درجة البراعة. إن عيني ليست أحدَّ نظراً من بقية المخلوقات، ولايكمن تميُّزي في أذني أو أنفي أو في أي مهارة يدوية أو ماشابه.. إن موهبتي هي من طبيعة أرقى. موهبتي تكمن في فكري».

هتف الأفريقي «أرنا!» واقتربوا جميعاً

قال الرجل الأبيض برفق: «إنه لايُرى. لعلكم لم تفهمونـي. إن مـا يمـيزني هو عقلي».

ضحك الأفريقي بمرح، كاشفاً عن صف من الأسنان الناصعة البيـاض ولـوى الهندوسي شفتيه الرقيقتين متهكماً ورسم الصيني ابتسامة ودية لاذعة.

قال ببطء: «الفكر؟ أرنا من فضلك فكرك هذا. إننا حتى الآن لم نر منك أي شيء».

قال الأوروبي متهجماً "لاشيء فيه يُرى. إن موهبتي الخاصة تتلخـص فيمـا يلي: إنني أخزّن في رأسـي صوراً للعـالم الخـارجي. ومـن تلك الصـور أركّـبُ لنفسي صوراً وأنظمـة. إن في إمكـاني أن أختصـر العـالم كلـه في عقلـي، بكلمـة أخرى، أن أعيد تشكيله.

مرر نوح يده على عينيه.

قال ببطء «عفواً ولكن مافائدة هذا؟ لقد خلق الله العالم لتوه مـرة. فلـم تريـد أن تعيد خلقه وتبقيه داخل رأسك الصغير وتستأثر به؟».

علا هتاف الاستحسان وانهمرت الأسئلة من كل جانب.

قال الأوروبي: «مهلاً. أنتم لاتفهمون. إن عمل الفكر لايمكن عرضه مثل أي مهارة أو حرفة».

ابتسم الهندوسي قال «أوه» بل يمكن ياابن العـم الأبيـض. أوه نعـم يمكـن، أرنا عمل فكرك، في الحساب مثلاً، فلنجد مسابقة في الحساب. إليـك مـايلي: رجل وزوجته لديهم ثلاثة أطفال، أسس كل منهم عائلة. فكم سنة سـتمر قبـل أن يصبح عددهم جميعاً مئة؟».

أنصت الجميع في لهفة، وهم يعقدون مـابين عيونهـم ويقومـون بـالعد علـى أصابعهم. وأخذ الأوروبي يعتصر ذهنه، لكنه ما كاد يبدأ بعملية الحساب حتى أعلن الصيني الجواب. فاعترف الرجل الأبيض قائلاً: «لابأس بهذا، ولكن هذا مجرد سرعة بديهة. إن ذكائي لم يخلق لحل الخدع الصغيرة، بل خلـق لحـل المشاكل العويصة التي تعتمد عليها سعادة الجنس البشري».

وقال نوح مشجعاً «رائع، إن المهارة التي تجلب السعادة هي أهم بـلا شـك من غيرهـا. فقـط أخبرنـا بمـا تعرفـه عـن سـعادة الجنـس البشـري. وسـنكون

ممتنين». انتظر الجمع كالمسحور الرجل الأبيض أن يتكلم. الآن سنعرف! بورك الرجل الذي سيبين لنا أين توجد سعادة الإنسان! فليغفر لنا ما تلفظنا به من كلمات فظة! إذا كان يعرف الجواب فما حاجته الى مهارات العين، والأذن، أو اليد، إلى الكد والمثابرة والحساب!

كان الأوروبي حتى ذلك الحين مترفعاً وواثقاً من نفسه، أما الآن وفي مواجهة فضولهم المفعم بالاحترام، هَزّه الارتباك.

قال بتردد «الذنب ليس ذنبي، ولكن مازلتم لا تفهمون. أنا لم اقل أني أعرف سر السعادة. أنا فقط قلت إن تفكيري يناقش معضلات سوف يعزز حلها سعادة البشر. ومثل هذا العمل يستغرق إنجازه زمناً طويلاً، لاأنتم ولا أنا سوف نعيش نرى إتمامه. إن المعضلات معقدة وسوف تُسهم أجيالٌ عديدة في تقليب التفكير فيها».

أنصت الجمهور بارتباك وريبة متصاعدين. ماذا كان الرجل يقول؟ حتى نوح نفسه اشاح ببصره وعبس.

ابتسم الهندوسي للصيني. ولما لم يقل الآخرون أي شيء تكلم الصيني. قال بدماثة بالغة "إخوتي الأعزاء، إن إبن العم الأبيض هذا يمازحنا. إنه يحاول أن يبلغنا أن عقله يعمل على أمر قد يعيش أو لا يعيش أحفادُ أحفادُ أحفادنا ليشهدوا تحققه. إني أقترح أن نصفق له بوصفه مازحاً. إنه يقول أشياء لا أحد يفهمها، لكننا جميعاً نعتقد أننا إذ فهمناها فهماً تاماً فسوف تدفعنا الى أن نضحك ونضحك ونضحك. ألا تشعرون جميعاً الشعور نفسه؟ – أنا سعيد لسماعها – إنني أدعو الى تحية مُضحكنا ثلاثاً!

اشترك معظم الآدميين، والحيوانات في التحية وسعدوا لأن الحادثة المزعجة قد انتهت، لكن البعض استاؤوا وغضبوا وتركَ الأوروبي وحده وشأنه. وقرابة المساء اجتمع الأفريقي والأسكيمو والهندي والمالايي وذهبوا إلى الشيخ الجليل وقالوا:

«أيها الأب المبجل، لدينا سؤال نطرحه عليك. إننا لانحب ذلك الرجل الأبيض الذي يسخر منا. إن كل حيوان، كل دب وحشرة، كل تَدْرُج وخنفساء وكلاً منا نحن الآدميين أيضاً لدينا شيء نعرضه، موهبة نمجدُ بها الله ونحمي

حياتنا ونعززها ونحملها. لقد شاهدنا مواهب مذهلة، والبعض دفعنا الى الضحك، ولكن، أصغر المخلوقات لديه شيئاً مرضياً يقدمه - وحده ذاك الرجل الشاحب الذي انتشلناه أخيراً لم يقدم لنا غير كلمات متغطرسة وغريبة، وتلميحات ونكات لم يفهمها أحد ولم تمدنا بأي متعة - وهكذا، أيها الأب العزيز نحن نسألك: هل من المناسب أن ينضم مثل هذا المخلوق إلينا ونحن نبدأ حياة جديدة على هذه الأرض الحبيبة؟ ألن تكون النتائج مدمرة؟ أنظر اليه! إن عينيه غائمتان وجبينه مملوء بالتجاعيد، ويديه شاحبتان ورخوتان ووجهه متجهم وحزين، وكل شيء فيه ينضح كآبة. ثمة خطأ فيه يعلم الله من أرسله إلى سفينتنا!».

رفع الشيخ الجليل عينيه الودودين وصوبهما الى سائليه.

قال ببطء ودماثة حتى أن وجوههم أضاءت «يا أولادي، يا أولادي الأعزاء! إن ماتقولونه هو معاً صحيح وخاطىء. لكن الله قد أعطى جوابه حتى قبل أن تطرحوا سؤالكم. ولايسعني إلا أن أوافقكم على أن الرجل القادم من بلدٍ في حالة حرب لايستهوي القلوب كثيراً، ولاأكاد أفهم لماذا يوجد مثل هؤلاء النزقين لكن الله الذي خلق اشباهه يعرف الجواب. كلكم لديكم فيض من المآخذ ضد الرجال البيض، فهم الذين خربوا أرضنا المسكينة وجلبوا إليها هذا القضاء الإلهي. ولكن انظروا، لقد أرسل الله إلينا إشارة تفيد بحكمته من إنقاذ هذا الأبيض. إنكم جميعاً، أنت أيها الأفريقي، وأنت أيها الهندي، وأنت أيها الأسكيمو، تصطحبون معكم زوجاتكم الحبيبات استعداداً للحياة الجديدة التي نأمل في أن نباشرها قريباً على الأرض. الرجل الأوروبي فقط وحيد. لقد أفزعني ذلك طويلاً، أما الآن فلا أعتقد أني أعرف السبب. لقد نجا هذا الرجل ليكون بمثابة تحذير لنا وحافزاً، وربما شبحاً. لكنه لن يستطيع أن يخلّد. إلا بالانغمار من جديد في نبع الانسانية الثرية بتنوعها؟ لن يستطع أن يخرّب حياتكم على الأرض الجديدة. فاطمئنوا!»

هبط الليل، وفي الصباح ارتفعت ذروة الجليل المقدس المدببة شامخة من قلب المياه.

* * *

الحلم بعد العمل

آذار عام ١٩١٨

أجدني، وأنا في منصبي كنائب سكرتير في إحدى الإدارات الحكومية في وضع يشبه تماماً وضع أغلب الذين اضطروا قبل بضع سنين أن يتخلوا عن عاداتهم وسخروا منذ ذلك الحين للخدمة العامة. إن العمل يبقينا على مدى أيام طويلة في حالة من التوتر، ننام معها ونستيقظ معها، نقلق بشأن إرادتنا، نفتش عن مناهج أفضل وأبسط، ونغرق وجودنا الشخصي بأكمله في بوتقة الأحوال السائدة. وفجأة إذ بذاتنا - «آدم القديم»[1] على رأي اللاهوتيين تتململ في داخلنا، كسلى ومتقلبة كمن يحاول أن يفيق من حالة خدار، كمن لم يسيطر تماماً على أطرافه أو أفكاره.

هكذا شعرتُ قبل بضعة أيام بينما كنت أتمشى خارجاً من المكتب متأبطاً حزمة من الملفات. كانت أشعة الشمس دافئة والهدوء مشبعاً بمذاق مبكر للربيع وينوح برائحة توحي كأن شجيرات البندق تزهر في مكان قريب. وقبل ذلك بقليل، وأنا أركب الحافلة، كانت أفكاري مشغولة بسجناء الحرب، كنت أملي التفكير في الرسائل والمذكرات التي كنت أُخطط لتدوينها بعد العشاء.. وكنت عندئذ في طريقي الى خارج المدينة، وفجأة شردت أفكاري عن التركيز على السجناء، والرقابة، ونقص الورق، أو على صعوبة الحصول على إعانة مالية. بين لحظة وأخرى بت أرى العالم كما يبدو عندما نكون متحررين من الهم. كانت الشحارير السمينة تندفع من خلال الأسيجة الجرداء وأشجار الزيزفون التي تحف بحدود المزارع كان نسيج أغصانها الرقيق يحفر سماء

---

[1] آدم القديم: نزعة الإثم المتأصلة في الإنسان.

الربيع الزرقاء بسحبها الرقيقة. وكنت ترى هنا وهناك على حواف الحقول بقعاً من الخضرة النضرة البراقة، والنور يعبث بالطحلب الوافر على جذوع أشجار الجوز. ونسيت كل ما كنت أحمل داخل حقيبتي وفي رأسي، وعلى مدى ربع الساعة التي استغرقتها المسافة التي مشيتها، لم أكن أعيش في ما نسميه "الواقع" وإنما في الواقع الأصيل الجميل الذي نحمله في داخلنا. لقد فعلت ما يفعله الأطفال والعشاق والشعراء. نسيت كل إرادة وهدف وانسقت مع التيار بحثاً عن أحلام براقة وجميلة، أحلام هي أمنيات! عبرت أمام عيني وبينما كنت أتابعها فوجئت برؤية أشياء جديدة حُبِلَ بها للمرة الأولى في ذاك اليوم. تبيَّنتُ أنانية طاهرة بريئة ونقية، عالماً مدوراً مكتفياً بذاته من رغبات وصور ذاتية، لاأخلاقية واجتماعية للمستقبل. لاعلاقة لها بالحرب والسلام، ولابتبادل السجناء، ولابالفن أو المجتمع أو النظام المدرسي أو دين المستقبل. هذه الهموم لم تصل الى الاعماق، بل بقيت على السطح للمرة. الأولى نزع الشر المتأصل أقنعته، كان طفلاً وكل رغباته تخصه وتخص رفاهيته الصغيرة.

رأيت حلماً رائعاً، حلمت أن السلام قد حل، وأطلق سراحنا ورحلنا، وكانت الشمس مشرقة وأصبح في إمكاني أن أفعل بالضبط ما أشاء.

في أحلامي أفعل ثلاثة أشياء. أولاً أستلقي على شاطىء محيط وأترك قدمي في المياه، وأمضغ ورقة عشب، ناعس العينين وأهمهم لحناً كنت أحاول بين حين وآخر أن أتذكر اللحن الذي أهمهمه. ولكن بلا فائدة ما همّني؟ وأتابع الهمهمة حتى أكتفي وأرشش قدمي بالماء. وكدت أستغرق في النوم تحت الشمس الحارة، لكني فجأة تذكرت كل شيء: أنا حر وسيد نفسي، وفي وسعي أن أفعل ما أشاء. أنا مستلق على شاطىء البحر ولايوجد غيري في طول المدى وعرضه. ففزت وأطلقت صيحة حرب الهنود وارتميت في المياه الزرقاء محدثاً ترشيشاً تجولت في المكان، سبحت قليلاً، شعرت بالجوع، ركضت على طول الشاطىء، نفضت الماء عن شعري، وتمددت بجوار حقيبة ظهري المفتوحة. أخرجت منها ببطء شريحة من الخبز، خبزاً أسود ممتاز صنع قبل الحرب. وسجقاً ـ من النوع الذي كنا نأخذه معنا في النزهات المدرسية ونحن صبية ـ وشريحة من الجبن السويسري وتفاحة وقطعة من الشوكولا. نشرت هذه

الأشياء أمامي وورحت أتأملها إلى أن لم أعد أطيق التحمل. فانقضضت عليها. وبينما كنت أمضغ تصاعدت من الخبز والسجق سعادة طفولية نائية ومنسية واكتنفتني من كل جانب.

لكنها لم تدم طويلاً وسرعان ماتبدل المشهد وإذ بي أظهر بكامل ملابسي وسيماء جادة، جالساً في غرفة باردة تطل على حديقة، أضع في جحري كتاباً وأنا مستغرقاً تماماً في قراءته. لم أعرف ماهو الكتاب. كل ما عرفته أنه كتاب في الفلسفة - ليس لكانط أو أفلاطون، كان في الغالب يدور حول نظام Angelus Silesius ورحت أقرأ وأقرأ وأتشرب المتعة الخارقة للغوص الحر الهادىء الخالي من هموم الأمس أو الغد. في هذا البحر الجميل، الذي لاينضب من الانتباه والصفاء. من أحداث متوقعة بلهفة تبررني وتؤكد تفكيري. قرأت وتأملت وأنا أقلب الصفحات ببطء، وفي النافذة كانت نحلة ذهبية غامقة تطن وتئز وكأن العالم الصامت كله موجود داخلها، ولارغبة لها إلا في أن تعبر عن تخمتها بالهدوء والرضا.

كان بين حين وآخر يبدو لي أني أسمع عن بعد، من داخل المنزل أصواتاً نبيلة، لآلة الكمان أو تشيللو. وشيئاً فشيئاً أخذت تعلو وتغدو أكثر واقعية، وأصبحت قراءتي وتفكيري أنغماساً سمعياً، حسياً. وهيمنت ألحان موتسارت على عالم خاص ساكن.

مرة أخرى تبدل حلمي وكأني كنت هناك طوال حياتي. كنت جالساً على كرسي مخيم بجانب جدار منخفض عند حافة كرمة عنب في واد جنوبي. كنت أضع على ركبتي مربعاً من الورق المقوى. وأحمل بيدي اليسرى لوحة ألوان خفيفة، وبيدي اليمنى فرشاة. وإلى جانبي غرزت عصاي المخصصة للمشي في التربة الطرية، وحقيبة مطروحة ومفتوحة، وأرى داخلها أنابيب الألوان الصغيرة المضغوطة. أتناول أحدها، أرفع السدادة، وأعصر باستمتاع قليلاً من لون أزرق مخضر نقي الى لوحة ألواني، وأضيف بعض اللون الأبيض والأخضر الفيروسي الصافي لرسم الجو المسائي ومقداراً قليلاً جداً من الأحمر الزاهي. وبقيت أرنو إلى الجبال النائية فترة طويلة من الوقت وإلى السحب الذهبية الغامقة الشبيهة بالدخان ومزجت، لون اللازورد مع الأحمر، حابساً

أنفاسي بحذر لأن المشهد يجب أن يكون ذا رهافة وخفة وأثيرية لامتناهية. وبعد برهة تردد رسمت فرشاتي، بضربات دائرية سريعة، سحابة وضّاءة وسط زرقة السماء، بظلال رمادية وبنفسجية. وبدأت ظلال الأخضر الخفيفة في مقدم اللوحة واشجار الكستناء الكثيفة الأوراق تعبث معاً وتتناغم مع أحمر وأزرق الخلفية المخففان. وضجت صداقات الألوان وعواطفها، وتجاذبها وعداواتها، وسرعان ما تركز كل ما في داخلي من حياة في مربع الورق المقوى الصغير المستقر على ركبتي. لقد كان كل ما على العالم أن يقوله أو يفعله لأجلي، ويعترف به ويطلب مغفرتي بسببه - وأعترف أنا للعالم - موجوداً هناك متقداً وساكناً في الأبيض والأزرق في الأصفر الساطع البهيج والأخضر الصافي والعذب. وشعرت أن هذه هي الحياة! هذا هو نصيبي من العالم، وفرحي وحملي الثقيل. هنا أنا في بيتي. هنا ينتظرني السرور، هنا أنا ملك، هنا أستطيع أن أدير ظهري بلا مبالاة سعيدة للعالم الرسمي.

سقط ظلٌ على لوحتي الصغيرة. رفعت بصري .. كنت واقفاً خارج منزلي وانتهى الحلم.

* * *

الحرب والسلام

صيف ١٩١٨

لاريب في أن من يصف الحرب بأنها حالة بدائية وطبيعية هـو علـى حـق. فبقدر ما يتصرف الإنسان كالحيوان فإنه يعيش بالصراع، ويعيش على حساب الآخرين، الذين يخشاهم ويكرههم. عندئذ تصبح الحياة حرباً.

أما «السلام» فتعريفه أصعب بكثير. السلام لاهو حالة فروسية أصيلة ولاشكل من التعايش بالقبول المشترك. السلام شيء لانعرفه، نحـن فقط نشعر به ونفتش عنه. السلام مثل أعلى معقد بـلا حـدود، ومتقلقل وهش. - يمكن لنفخة هواء أن تنسفه. السلام الحق أصعب وخارق أكثر ومن أي إنجاز أخلاقي أو عقلي - حتى بالنسبة إلى شخصين يعيشان معاً ويحتاج كل منهما الى الآخر.

ومع ذلك هدف السـلام، الرغبة في السلام قديمة قدم الزمن فمنذ آلاف السنين ونحن نردد القول المأثور الجوهري والعظيم «لاتقتل». إن الإنسان يتميَّز أكثر من أي سمة أخرى بقدرته على الخروج بالأقوال المأثورة العظيمة، بالأوامر الضخمة البعيدة الأثر؛ إنها تميزه عن الحيوانات وتبدو أنها ترسم خطاً فـاصلاً بينه وبين «الطبيعة».

إننـا، أمـام مثـل هـذه الأقـوال المـأثورة العظيمـة، نشعر أن الانسـان ليس حيواناً، إنه ليس كياناً محدوداً ومحدْداً، ليس كيانـاً مكتمـلاً بشـكل نهـائي، إنما في حالة ضرورة، مشـروع، حلـم بالمستقبل. هـو تـوق الطبيعـة إلى أشـكال وامكانات جديدة. عندما لُفِظَتْ الوصية «لاتقتل» للمرة الأولى كـانت شاسعة في مداها. كانت تقريباً مرادفاً لعبـارة «لاتتنفـس»! أو مـن الواضح أنـه كـان طلبـاً مستحيلاً وتدميراً للذات. ومع ذلك احتفظ هذا القول المأثور بقوته علـى امتـداد العصور، وُضِعَتْ على أساسه القوانين، والمواقف، والمذاهب الأخلاقية، وقليل

من الأقوال المأثورة الأخرى استطاع أن يطرح مثل هذه الثمار ويقلب حياة الانسان الى هذا الحد.

إن عبارة «لاتقتل» ليست صيغة روتينية منبثقة من «الغيريّة» المدرسية. فالغيريّة لا تظهر في الطبيعة، وعبارة «لاتقتل» لاتعني: لاتؤذي الآخر! بل تعني: لا تحرم نفسك من الآخر. لاتؤذي نفسك! إن الآخر ليس غريباً؛ إنه ليس شيئاً نائياً، لاصلة له بي، ومكتفياً بذاته، إن كل شيء في العالم. كل آلاف «الآخرين» يوجدون فقط طالما أني أراهم وأتحسسهم، وأقيم علاقات معهم، إن العلاقات التي أقيمها مع العالم، مع «الآخرين» هي جوهر حياتي.

لقد كانت معرفة هذا الأمر، والإحساس به وتلمُّس الدرب المؤدية إلى هذه الحقيقة المعقدة، هي درب البشرية. وقد كان هناك تقدم وانكفاء. وومضت أفكار نيِّرة، أوجدنا على أساسها قوانين غامضة؛ وكهوف الضمير، وحدثت تطورات غريبة كالمعرفة الروحية والخيمياء، وعلى الرغم من أن بعض معاصرينا اعتبرها أموراً تافهة، إلا أنه من الممكن أنها شكلت محطات رئيسية في رحلة بحث الانسان عن البصيرة. ومن الخيمياء، التي بدأت كدرب مؤدية إلى أنقى صوفية والتنفيذ النهائي لأمر «لاتقتل» ابتكرنا نحن بعجرفة مبتسمة، علماً وتكنولوجيا أنتجا متفجرات وغازات سامة. فأين التقدم؟ أين الانكفاء؟ لايوجد هذا ولاذاك.

إن الحرب العظمى التي نشبت خلال السنوات القليلة الماضي أيضاً كان لها وجهان. ويبدو أنها جلبت معاً التقدم والانكفاء. لقد أوحت تقنياتها الوحشية في القتل الجماعي بالانكفاء؛ وكأنها تسخر من كامل فكرة التقدم والحضارة. غير أننا رأينا أن بعض الحاجات، لأفكار المتبصرة، وأعمال الكفاح الجديدة التي أنتجتها الحرب، هي نوع من التقدم، وقد أعطى أحد الصحفيين الحق لنفسه التخلص من تهيجات داخلية بوصفها «حثالة انطوائية» - ولكن ألا يمكن أن يكون مخطئاً؟ أليس من المعقول تماماً أن هزءه الفظ كان نحو أفضل مافي حاضرنا، وأشده جوهرة وحيوية.

مهما يكن، ثمة رأى كثيراً ماشاع في سياق الحرب كان مخطئاً من أساسه: وهو أن هذه الحرب، عبر هولها وضخامة آليّة رعبها الدائرة، جديرة بأن

تشيع الرعب في قلـوب أجيـال المستقبل بحيـث يجعلهـا تنـاقض الحـرب الى الأبد. إن الخوف لايعلّم الرجال أي شيء. إذا كان الرجال يستمتعون بـالقتل، فلن تردعهم أي ذكرى عن الحـرب. لا، ولا معرفة الدمار الـذي أحدثتـه الحرب. نادرة جداً أفعال الرجال التي تنبع من اعتبارات عقلانيـة. ويمكن للرجال أن يقتنع تماماً بأن فعلاً ما عبثي ومع ذلك يظل يستمتع بالقيام به. إن كل رجل متحمس يفعل هذا بالضبط.

لهذا تراني، كما يعتقد العديد من أصدقائي وأعدائـي، لا عنفياً. لم أعـد أؤمن بأن السلام العالمي يمكن تحقيقه بوسائل عقلانيـة، بـالوعظ، والتنظيـم، والدعاوة السياسية إلا بقدر إيماني باختراع حجر الفيلسوف على يد عصبة مـن الخيميائيين.

ما الذي، إذن، يمكنه أن يُعلِي روح السلام الحقيقيـة علـى الأرض؟ إنهـا ليست الوصايا العشر وليس التجربة العملية. على حب السـلام، ككـل، تقـدم انساني، أن ينبع من المعرفة. إن المعرفـة الحيـة كلهـا بوصفهـا نقيـض لمعرفـة الأكاديميـة ليـس لهـا إلا هـدف واحـد. هـذه المعرفـة يمكـن أن يراهـا الآلاف ويصيغونها بألف وسيلة مختلفة، ولكن يجب دائماً أن تجسـد حقيقـة واحـدة. إنها معرفة الجوهر الحي في داخلنا، في كل منا، فيك وفـي، السـحر السـري، الورع السري الذي يحمله كل منا. أنهـا المعرفـة التـي، بـدءاً مـن هـذه النقطـة الأعمق، يمكنها في كل زمـان أن تتجـاوز كـل الأضداد أن تحـول الأبيـض إلى أسود والشر الى خير، والليل الى نهار. الهنـود يسـمونها «أتمـن»[1] والصينيـون «طاو» والمسيحيون يطلقون عليها «منة». وحيثما وجـدت تلـك المعرفـة السـامية (سواء عند يسوع، أم بـوذا، أو أفلاطـون أم لاو - تسـو) يتـم عبـور عتبـة تبـدأ بعدها المعجزات، لاتعود هنـاك حـرب ولا عـداوة. نسـتطيع أن نقـرأ عنهـا في العهد الجديد وفي محاولات غوتاما. ويمكن لكل من لديه رغبـة في الضحـك أن يضحك عليها ويسميها «حثالة انطوائية»، أما بالنسبة إلى من خبرها فإن العدو

[1] أتمن: في اللغة السنسكريتية، وتعني» النفس» وفي الهندوسـية هي الروح الشـخصية، أو الذات الكونية.

يصبح أخاً، والموت يغدو ولادة، والعار شرفاً، والكارثة حظاً سعيداً ويكشف كل شيء عن وجهين، عن أنه «جزء من هذا العالم» و«لاينتمي الى هذا العالم» لكن عبارة «هذا العالم» تعني «ما هو خارجنا»، وكل ماهو خارجنا يمكن أن يصبح عدواً، خطراً، وخوفاً من الموت، والفجر يبزغ عندما نعرف أن هذا العالم «الخارجي» برمته ليس فقط هدف تصورنا وإنما في الوقت نفسه هو من خلف روحنا، وعند تحويل الخارجي نحو الداخل، والعالم نحو الذات.

إن ما أقوله بديهي، ولكن كما أن كل جندي يُصرَع هو تكراراً أبدي لخطأ، كذلك يجب تكرار الحقيقة الى أبد الآبدين وبألف شكل وشكل.

* * *

التاريخ

تشرين ثاني ١٩١٨

عندما كنت طفلاً صغيراً أتردد على مدرسة لاتينية رديئة، كـان مـا يسمى بـ«التاريخ» يبدو لي شيئاً مهيباً نائياً، نبيلاً، وعظيماً مثل يهوه أو موسى، كـان التاريخ موجوداً في وقت من الأوقات، كان حاضراً وواقعاً، قصف رعوده وبَرْقَـةُ ومنذ ذلك الحين لم يعـد لـه وجـود، الآن هونـاء وجليـل، يوجـد بـين طيـات الكتب، ويدرَّس في المدرسة. وكانت أحداث واقعة تاريخية أدخلت إلى إدراكنـا نحن التلاميذ هي حرب عام ١٨٧٠[1] وكانت هذه أشدّ إدهاشاً وإثارة من بقيـة الحروب، ذلك لأن آباءنا وأقاربنا كانوا قد اشتركوا فيها ونحن أنفسـنا لم نكـن قد تأخرنا عن معايشتها إلا ببضع سنين. لابـد أنهـا كـانت مجيـدة: بطولـةٌ، وتلويح بالرايات وجنرالات على صهوات جياد، وامبراطور مُنْتَخَبْ حديثاً. ولما كنا متأكدين بكل جدية ـ وثقة ـ من أن معجزات ومآثر بطولية قـد أنجـزت في تلك الحرب، فإن الجو العـام كلـه كـان رائعـاً، «تاريخيـاً حقيقيـاً ـ ويختلـف اختلافاً كلياً عن الأمس واليوم». لقد كان الرجال والنساء قد حققوا مآثر مذهلة، وقاسـوا مشـقات لاتصـدق؛ وبكـى الشـعب كلـه وضحـك. وانتشـى بـالأحداث المتسارعة، تعانق الغرباء من الشارع، وكانت أعمال البطولة والتضحية بديهية، ياللسماوات! ليتنا شهدنا تلك الأحداث! لاأحد ممَّن نعرفهم كان من الأبطـال، لا أحد من أساتذة المدارس الذين كانوا في أوقات معينة مـن العـالم يحكـون لنـا قصصاً ملهمة ولا آبائنا وأقاربنا الذين اشترك عدد كبـير منهـم في تلـك الحـرب

---

(1) حرب عام ١٨٧٠: الحرب البروسية الفرنسية، وانتهت بسقوط المبراطورية الفرنسـية الثانية وقيام الامبراطورية الألمانية.

البطولية، العظيمة. ولكن لابد أنه كان فيهـا شـيء مميَّز، فقد وُضِعَتْ عنهـا كتب سميكة مصورة، وعُلِّقت صور بسمارك في كل غرفة جلوس، وفي كل فصـل خريف يحتفل بيوم سيدان[1]، أعظم العطل الرسمية على مدار العام.

لم يبدأ هذا التوهج بالشحوب في نظري إلا بعد بلوغي سن الخامسة عشـرة. بعدئذ أخذت أرتاب في الطابع الجليل للحرب، ورفضت أن أصدق بعد ذلك أن رجال وأمم وأزمان سابقة يختلفون عن رجال وأمم اليوم، وأن حيـاتهم لم تكـن تتألف من وقائع يومية وإنما مـن مشـاهد مـن أوبـرا عظيمـة. علمـت أنـه كـان واجـب أسـاتذتنا في المدرسـة أن يعملـوا علـى سـحقنا قـدر اسـتطاعتهم وكـانوا يطالبوننا بفضائل هم أنفسهم لايملكونها، والتـاريخ الـذي وضعـوه أمامنـا كـان خدعةً فبركها البالغون لكي يقلِّلوا من شأننا ويبقوننا في أماكننا.

إن كنت قد حملت تلك الصور الطائشة والمزدرية للتاريخ فلذلـك أسـبابه إن الشبان الصغار لايعيشون بالنقد والتفاوض وإنما بالمشاعر والمثل العليا. وقد كـان يمور في داخلي شيء لم يهـدأ منـذ ذلـك الحـين: أصبحـت لا أثـق بـالأصوات الخارجية، وكلما كانت ذات طابع رمزي قلَّت ثقتي بها. باختصار، كنت قـد بدأت أشعر أن مايثير الاهتمام وذا قيمة، ما يمكـن أن يهمنـا بحـق، ويثيرنـا، ويفي بمتطلباتنا، لايوجد خارجنا بـل في داخلنـا. طبعـاً لم أكـن أدرك أن هـذا حقيقي - بل كنت أشعر به، وبدأت أقرأ الفلسـفة، وأصبـح مفكـراً حـراً، أشـق طريقي، بين الشعراء - دائماً مع حس داخلي مبهم بأن هذه هي طريقي الطريق الى ذاتي، وأنه لاوجود لأي طريق أخرى تلائمني وتلائم حاجـاتي.. وباشـرت بممارسة مايسميه المسيحيون «التأمل» والمحللـون النفسـيون بـ«الانكفـاءة علـى الذات». ولاأدري إن كانت تلك هي الطريقة، طريقة الصيرورة والحياة، أفضـل من غيرها؛ كل ماأعرفه هو أنهـا ضروريـة للإنسـان الـورع أو للشـاعر، وأنهمـا حتى لو أرادا أو حاولا بكل طاقتهما لـن يبرعـا فيمـا يسـميه متعهـدو الحكمـة الرسميون في أيامنا «الفكر التاريخي».

---

[1] سيدان: بلدة في شمال شرق فرنسا تقع على نهر موز. شهدت هزيمة فرنسا أمـام ألمانيـا خلال الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠.

لقد بقيت سنوات عدة قادراً على أن أدع العالم يجري في مساره وبالعكس. بالنسبة إلي ما كان يؤخذ على محمل الجد في العالم ويتجلى في الخطب والافتتاحيات الصحفية كان مجرد صخب وعنف - في حين أن ماكنت أفعله، ما كنت آخذه على محمل الجد وأقدّسه كان بالنسبة إلى العالم لهو ووهم، وكان يمكن لهذا أن يستمر. غير أن التاريخ عاد إلى الظهور! وفجأة أعلن كُتّاب الافتتاحيات الصحفية، وبروفسورات الجامعات ومدرسوا المراحل الثانوية، أن التاريخ ملأ من جديد الحياة اليومية، وأن «يوماً عظيماً» قد بزغ فجره ولم نعد نحن الأرواح الساذجة من كتاب وغيرهم، الذين استخفينا بالتاريخ، وذوي التفكير الورع، الذين حذرنا إخوتنا المواطنين من غطرسة قادتنا المجنونة ولامبالاتهم المرعبة، لم نعد شعراء مسالمين، وموضعاً للسخرية - أصبحنا لاوطنيين وانهزاميين ومصدر إزعاج وهذه فقط بعض العبارات الجديدة الجميلة. لقد شُجينا ووُضِعْنا على اللوائح السوداء. وانهالت علينا مقالات حاقدة من صحافة «الفكر القويم» ولم نكن أفضل حالاً في حياتنا الخاصة. وعندما سألت في ربيع عام ١٩١٥ صديقاً المانيا مالضرر من إعادة الإلزاس إلى فرنسا تحت ظروف معينة قال إنه شخصياً يسامحني على نقاط ضعفي ولكن الأفضل لي ألا أتفوه بمثل هذه الأقوال على مسمع أي شخص آخر إذا رغبت في الاحتفاظ برأسي بين كتفي.

كان الكلام مايزال دائراً حول «عظمة المرحلة» وكنت ماأزال لاأراها. طبعاً أنا أفهم لماذا بدت تلك المرحلة عظيمة لعدد كبير من الناس. ثم أخذ الآلاف منهم يقيمون أول اتصال لهم بالروح، بنوع من الحياة الداخلية. بدأت العوانس العجائز اللواتي تعودن على إطعام كلاب البودل يتولين العناية بالجرحى؛ وأخذ الشبان، بالمجازفة بحياتهم، يكتسبون أول شعور طاغ بماهية الحياة. وهذا أمر لايستهان به، وينطوي على عظمة - ولكن فقط بالنسبة الى الذين كان تفكيرهم تاريخياً وكان في إمكانهم أن يتحدثوا عن المراحل العظيمة والمراحل الخسيسة. أما بالنسبة إلينا نحن الشعراء وأصحاب الفكر الديني، الذين آمنوا بالله حتى في كل يوم من أيام الأسبوع وكانوا على معرفة مسبقة بحياة الروح، بالنسبة إلينا هذه المراحل لم تبدُ أعظم أو أقل عظمة من مراحل أخرى. وذلك لأنه في قرارتنا وعمق كياننا كنا نعيش خارج الزمن.

حتى بعد أن عاد التاريخ إلى جدول الأعمال وأعيد عرض الأوبرا العظيمة على مسرح العالم فإن شعورنا لم يتغير. لقد تحقق الكثير مما تمنيناه - القوى التي اعتبرناها شيطانية سقطت والرجال الذين مقتونا بوصفنا أشراراً وخطرين غادروا مسرح الأحداث.

مع ذلك مازلنا عاجزين عن الانغماس كلياً في الأحداث العظيمة، عن المشاركة في ثمالة هذه «الأوقات العظيمة» الجديدة. إننا نستشعر ارتعاشة الأرض ونشارك الضحايا في معاناتهم، وفقرهم وجوعهم. لكننا لم نر في هذه المعاناة ولا في الرايات الحمر، والجمهوريات الحديثة، ومظاهر الحماس الشعبي «عظمة» حقيقية. حتى في أيامنا هذه الحقيقة الوحيدة التي نلاحظها. ونوليها اهتماماً صادقاً هي القوة الحيوية الكامنة في التاريخ، وتوهج القدسي. لقد كان القيصر عدونا، ومع ذلك، كان يمكن أن نتعاطف معه إلى أقصى درجة لو أنه نجح في التخلي عن عرشه بأسلوب فخم ولائق. إننا نُكنُّ حباً أكبر بما لايقارن للجندي الشاب الذي ذهب الى حتفه مع أفدح الأضاليل وأكثرها تطرفاً عن أرض الأجداد والامبراطور ونعتبره أهم بما لايقارن من الخطيب الديموقراطي البارع الذي يصفه بالأحمق. وسواء أكان النظام ديموقراطياً أم ملكياً، جمهورية فيدرالية أم اتحاد حمهوريات فيدرالياً، فلا فرق بينهما في نظرنا، ما يهمنا ليس ماهية النظام وإنما طريقة عمله. نحن نفضل رجلاً مجنوناً يقوم بعمل مجنون بكل إخلاص وحب، على البروفسورات الذين يمكن أن نتوقع منهم أن يتزلّفوا لنظام الحكم الجديد بضعف شخصيتهم نفسه الذي انحنوا به بالأمس للأمراء ولمذابح الكنائس. نحن جميعاً مع «إعادة تقييم القيم كلها» غير أن إعادة التقييم هذه لايمكن أن تحدث إلا في قلوبنا.

«إنني أسمع أصوات أولئك الذين ينسبون موقفنا اللا- تاريخي، اللاسياسي، إلى اللامبالاة المفرطة للمفكرين». إنهم يعتبروننا كتبة يرون في الحرب والثورة، والموت والحياة مجرد كلمات. أمثال هؤلاء الرجال موجودون ولاشك. ولكن لايجمعهم بنا أي قاسم مشترك. نحن لسنا مجردين من المبادىء الأخلاقية. صحيح أننا لا نميّز بين المبادىء «القويمة» و«الفاسدة» واليمينية أو اليسارية - لكننا نميِّز تشكيلتين من البشر: الذين يحاولون أن يعيشوا وفقاً

لمبادئهم والذين يحملونهـا في جيـوب بذلاتهـم. إننـا لانعتـبر الانسـان الألمـاني الذي، لأنه مخلص للقيص وغير قادر على أن يعيـش في عـالم ثـوري ، ينتحـر بروح من الفروسية الرومانسية عند قدمي تمثال ويليم الثاني[1]، أقـول لانعتـبره مثالاً ساطعاً لكننا نحبه ونفهمه، في حين أننا نمقت الرجل الحاذق الذي تعلّـم لتوه أن يتكلم الرطانة الثورية بالسلاسة نفسها التي كان في السـابق يتكلـم بهـا الرطانة الوطنية القديمة.

أي أمور جبارة تحدث هذه الأيام، كم من قلب يخفق مـن جديـد بتكريـس وأمل مشبوبين! ما أضخم الإمكانـات! إننـا نحـن الغريبـو الأطـوار والوعـاظ في الصحراء لسنا منعزلين لسنا لامباليين، ولاننظر إلى الآخرين مـن بـرج عـاجي - ولكن مايحدث، بالنسبة الينا، في الأرواح الإنسانية يبدو عظيماً. بالنسبة إلينـا إن التحول عن الولاء للقيصر إلى ولاء ديموقراطي هو بحد ذاته مجـرد تغيـير في الرايات. كم نتمنى أن يكون الأمر أكثر من ذلك بالنسبة الى آلاف الرجال!

إن أحداً لم يحتفل بانتهاء أربع سنين من الحرب التي لم يميّزها مؤخراً إلاّ إعلان الهدنة على الجبهة الغربية. لقد جرت الاحتفالات علـى هـذا الجـانب لأن الحكم الاستبدادي قد انتهى، وعلى الجانب الآخر اغتباطاً بالنصر. لاأحـد يبدو شديد الحمـاس لأن إطـلاق النـار العبثـي توقـف بعـد أربـع سـنوات مـن الرعب. ما أغرب أحوال العالم! ما أتفه الأسباب بالمقابل التي دفعـت بالنـاس إلى العودة الى تحطيم زجاج النوافذ ورؤوس بعضهم البعض!.

* * *

---

[1] ويليم الثاني (١٨٥٩ - ١٩٤٢): امبراطور ألمانيا (١٨٨٨ - ١٩١٨)

الرابع

كانون أول عام ١٩١٨

كان ياما كان في قديم الزمان بلد كبير وجميل، لكنه لم يكن ثرياً. كان الناس مستقيمين، أقوياء وقادرين، لكنهم كانوا قنوعين وراضين بما قسمه الله لهم. لم يكن هناك أي مظهر واضح للثراء، وحياة البذخ، والظهور الاجتماعي، وكثيراً ماكان الجيران الأكثر ثراءً في البلد الكبير يرمون نظرات السخرية والرثاء الساخر على المتواضعين من الناس.

ومع ذلك بعض الأشياء التي لاتشترى بالمال بل تجزيها البشرية ازدهرت بين هؤلاء الناس المغمورين من نواح أخرى. وقد بلغوا درجة من الازدهار حظيت عندها البلد مع مرور الزمن وعلى الرغم من فقرها باحترام بالغ. ازدهرت أشياء كالموسيقى والأدب، والفكر. إن فيلسوفاً عظيماً أو كاهناً أو شاعراً ليس ملزماً بأن يكون ثرياً أو أن يرتدي ملابس على الموضة، أو أن يسطع في المجتمع، إنه يكرم ذاته. هذه هو موقف أقوى الأمم في هذا البلد الفقير الغريب. إنهم يهزون أكتافهم استخفافاً بفقره ومظهره الأخرق في العالم. لكنهم يقرِّظون مفكريه وشعراءه وموسيقييه ويتحدثون عنهم بلا حسد.

وتصادف أنه على الرغم من أن أرض الفكر هذه ظلت فقيرة وغالباً ما اضطهدها جيرانها كانت تفيض بنهر ثابت، هادىء من الدفء والفكر، ألهم جيرانها والعالم بأسره.

غير أن هذا الشعب منذ الأزل كان يتميز بخاصية مذهلة، لم تكن فقط تثير سخرية الأجانب لكنها أيضاً كانت مصدر ألم مرير في الوطن: لقد كانت روافده العديدة المختلفة دائماً في حالة نزاع مع بعضها، وتمزقها الشجارات والغيرة المتبادلة. وكان رجال البلد البارزين يقترحون بين حين وآخر أن تتحد الروافد

المختلفة في الصداقة والجهد المشترك لكن بروز هذا الرافد أو أميره فوق الباقين وادّعاءه الزعامة كان لايقَابَلْ إلا بالبغض من الآخرين وهكذا لم يتم الوصول قط الى أي اتفاق.

ثم تم التغلُّب على أمير أجنبي وغازٍ كان قد أذاق البلد اضطهاداً ثقيل الوطأة، وبدا فترة من الوقت وكأن هذا قدْ يؤدي إلى اتحادهم، ولكن سرعان ماعادت الشجارات القديمة وتمرد الأمراء الصغار، وتلقى رعاياهم هبات كبيرة منهم على شكل مناصب، وألقاب، وشرائط ملونة فساد رضا عام وميل الى التجديد.

في تلك الأثناء كان العالم بأكمله يمر بمرحبة تغيير كبرى، ذاك التحول الغريب للرجال والأشياء الذي ظهر كالشبح أو كالوباء من دخان أوائل الآلات البخارية ليقلب الحياة رأساً على عقب. وامتلأ العالم بالكد، وتحكَّمتْ به الآلات التي دفعت البشر الى العمل بجهد أكبر فأكبر. ونتج عن ذلك ثروات ضخمة، والقارة التي كانت قد اخترعت الآلات زادت من سيطرتها على العالم أكثر من ذي قبل، واقتسمت الأمم الأكثر قوة القارات الأخرى فيما بينها وبقيت الأمم الضعيفة خالية الوفاض.

امتدت الموجة التوسعية حتى وصلت البلد المذكور لكنه كان ضعيفاً وكان نصيبه من الغنيمة هزيلاً. وبدا كأن ثروة العالم قد أعيد توزيعها ومرة أخرى بدا أن البلد الفقير قد حصل على أقل القليل.

ثم أخذت الأحداث تتخذ منحى جديداً. الأصوات التي كانت تهدر مطالبة بالاتحاد لم تصمت. وظهر رجال دولة أقوياء وعظماء، وساهم في تقوية البلد وتوحيده إحرازُ نصر على شعب جار، وتعاضدت روافد الشعب وكونوا رايخاً عظيماً. وهكذا استيقظ البلد الفقير المؤلف من حالمين ومفكرين ومؤلفي الموسيقى. وبعد أن أضحى بلداً ثرياً، قوياً وموحداً، أصبح مساوياً في قوته إخوته الأكبر. ولم يكن قد تبقى شيء ليُنهَبْ ويُستولى عليه في القارات النائية. ووجدت القوة الجديدة أن الجوائز قد أخذت كلها، ولكن عندئذ كانت الحضارة الآلية، التي بالكاد وصلت إلى ذاك البلد حتى ذلك الحين، قد دخلت مرحلة مذهلة من التطور، وخضع البلد كله مع شعبه الى تحول متهور، فازداد ثراءً وقوة وخوفاً.

أخذوا يكدسون الثروة ويحيطون أنفسهم بسور دفاعي مضاعف ثلاث مرات من الجنود والمدافع، والحصون. وسرعان ما انتشر الذعر بين الدول المجاورة وأخذت بدورها يحثها الخوف والريبة من الوافد الجديد، تشيّد التحصينات والمدافع والسفن الحربية.

لكن هذا لم يكن أسوأ ما في الأمر، فكلا الطرفين كان في استطاعته أن يتحمل تكاليف التسلح الباهظة، ولا أحد منهما كان يفكر في شن حرب؛ لقد كانا يتسلحان فقط من باب الاحتراس، ذلك لأن الأثرياء يحبون أن يروا الأسطورة الحديدية تحيط بأموالهم.

أما أسوأ الأمور فكان ما حدث للرايخ من الداخل.. فهذا الشعب الذي ظل العالم على مدى فترة طويلة يجامله بمزيج من السخرية والاعجاب، كان يمتلك الكثير من الثقافة وأقل القليل من المال، استيقظ الآن على مفاتن المال والسلطان، فشيَّد وادّخر وتاجر وأقرض المال، ولم يكن هناك من يجاريه من سرعة الثراء، فمالك مطحنة أو دكان حدادة كان سرعان مايحتاج الى بناء مصنع، والذي كان يستخدم ثلاثة من العمال أصبح يحتاج إلى عشرين منهم، بل إن بعضهم كان سرعان مايستخدم المئات والآلاف. وكان كلما ازدادت سرعة عمل الأيدي العاملة والآلات، ازداد تكديس الأموال في أيدي من لديهم موهبة تكديس الأموال. لكن العمال بأعدادهم الهائلة لم يعودوا سادة حرفهم كما كانوا سابقاً وبخاصة في العبودية والرق.الأمر نفسه حدث في البلدان الأخرى، هناك أيضاً تحولت الورشة إلى مصنع، والمعلمُ الحرفي أصبح ملكاً، والعاملُ عبداً ولم تفلت أي بلد من العالم من هذا المصير. أما ماكان يميز الرايخ اليافع هو أن تأسيسه تزامن مع ظهور الروح الجديدة في مجال العمل التجاري في العالم. لم يُخفِ الرايخ وراءه أي ماض، ولا ثروة تكدست خلال فترة طويلة، وإنما كان يتسارع نحو عصر سريع الايقاع مثل طفل قليل الصبر.

صحيح أن أصواتاً ارتفعت محذرة، قالت للناس إن هذه درب خاطئة وأعادت الى الأذهان الأيام الخوالي، أيام المجد الهادىء، غير المدعي لبلدهم، والرسالة الروحية التي كان يحملها والفيض المنتظم من الأفكار النبيلة، والموسيقى والشعر، الذي كان يُصدِّره في السابق الى العالم. لكن الناس، في غمرة

نشوتهم بثرائهم الحديث ضحكوا منه. إن الأرض مدورة وتدور؛ وكون أجدادهم قد كتبوا قصائد وألفوا كتباً في الفلسفة فهذا حسن جداً لكن الجيل الجديد أراد أن يبين أن بلده قادر على إنجاز شيء آخر. وهكذا راحوا يواصلون الطرق في الآلاف من مصانعهم لإنتاج آلات جديدة، وسكك حديدية جديدة، وسلع جديدة، وأيضاً، من باب الاحتراس، بنادق ومدافع جديدة، وانفصل الأثرياء عن الشعب، ووجد العمال الفقراء أنفسهم منبوذين، وكفوا بدورهم عن التفكير في الشعب، الذي هم جزء منه، ولم يعودوا يفكرون إلا في أنفسهم، في حاجاتهم ورغباتهم. وهنا الأثرياء وذوو السلطان، الذين امتلكوا الكثير من المدافع والبنادق من باب الحيطة والحذر من الأعداء الخارجيين، هَنأوا أنفسهم على بعد نظرهم، لأنه أصبح لديهم الآن أعداء في الداخل لعلهم أشد خطراً.

إن هذا كله تراكم في الحرب العظمى التي ظلت تدكّ العالم طوال أعوام. وهانحن اليوم نقف بين أطلالها، والهدير مازال يصم آذاننا، نعاني مرارة عبثيتها مشمئزين من أنهار الدماء التي تفسد علينا أحلامنا كلها.

كانت نتيجة الحرب أن الرايخ اليافع المزدهر، الذي اندفع أبناؤه الى القتال بحماس كبير، انهار. لقد أصابه الصمم، الصمم التام، وحتى قبل أن يناقش المنتصرون السلام، فرضوا أتاوة على الشعب المهزوم. وعلى مدى أيام طوال وبينما الجيش، المهزوم يتوجه أسراباً نحو أرض الوطن، كانت رموز سلطة البلد السابقة تنتقل الى الاتجاه المعاكس، تستلم للعدو المنتصر وأخذت الآلات والأموال تصب من البلد المنهزم في أيدي الأعداء.

إلا أن المنهزمين، في لحظة مصابهم بمصيبتهم الكبرى، استعادوا وعيهم، فخلعوا قادتهم وأمراءهم وأعلنوا أنهم قد شاخوا.. ونصبوا مستشارين من بينهم وأعلنوا إرادتهم أن يواجهوا مصيبتهم بفكرهم وبطاقاتهم الخاصة.

إن هذا الشعب الذي بلغ سن الرشد وسط تلك التجارب المريرة لايعرف بعد وجهته أو من أين يطلب العون والقيادة. لكن الآلهة تعرف، لماذا أُنزلت مآسي الحرب على هذا الشعب وعلى العالم.

ومن قلب هذه الأيام لاح شعاع من نور، مضيئاً الدرب التي يتعين على هذا الشعب المهزوم أن يطرقها.

لايمكنه أن يعود الى الطفولة، لاأحد يستطيع. وببساطة لا يستطيع أن يتخلى عن مدافعه، وآلاته، وأمواله، ويعود الى كتابة القصائد وعزف السوناتات في المدن الصغيرة التي تلفها السكينة. ولكن يمكنه أن يسير على الدرب التي ينبغي على الفرد أن يسلكها عندما تؤدي به حياته الى ارتكاب الأخطاء ومعاناة العذاب المقيم. إنه يتذكر ماضيه، منشأه، وطفولته، وعظمته، ومجده، وهزيمته ويعثر عبر هذه الذكرى على القوة المتأصلة فيه ولايمكن أن تضيع. وكما يقول الورعون، على المرء «أن ينظر الى الداخل». وفي أعماقه السحيقة سوف يعثر على كيانه الأعمق بكراً، ولن يحاول أن يتفادى مصيره بل سيعانقه وسينطلق في بداية جديدة معتمداً على أفضل ما فيه وأشده أصالة.

إذا ما حدث هذا وإذا ما سارت هذه الأمة التي تتعرض لظروف صعبة بكامل إرادتها وبإخلاص على درب القدر، فإن شيئاً ما مما ضاع سيولد من جديد. وسينبع من جديد نهر هادىء، ثابت، من هذا الشعب ويتغلغل في العالم، ومن جديد سوف ينصت من كانوا أعداءه بلهفة الى غمغمات هذا النهر الهادىء.

درب الحب

كانون أول ١٩١٨

طالما أن الإنسان ثري فإنه يستطيع تحمل نفقات القيام بأمور تافهة وحمقاء، وعندما تفسح الرفاهية الطريق للبلوى، تبدأ الحياة بتثقيفنا. وعندما يقاوم طفل مشاغب العقوبة والاصلاح على أساس أن بقية الأطفال مشاغبون مثله، نبتسم ونعرف بماذا نجيب، لكننا نحن الألمان أنفسنا كنا أولئك الأطفال المشاغبين، فعلى امتداد الحرب كنا لانكف عن القول: إن أعداءنا على الأقل ليسوا أفضل منا، وعندما اتهمنا بالتوسعية أشرنا الى المستعمرات الانكليزية، وجوابا على النقاد حول دولتنا الاستبدادية قلنا إن في يد الرئيس ويلسن من السلطة المطلقة أكثر مما يتمتع به أي أمير ألماني. وهكذا دواليك. وها قد جاءت أيام البلوى. ليتها تجلب معها بداية الثقافة! إننا معشر الألمان في وضع مالي عسير، ولا ندري كيف سنعيش غداً، هذا إذا عشنا. إننا الآن، وأكثر من أي

وقت مضى خاضعون لإغراء قوي كي ننغمس في إيمـاءات ومشـاعر عقيمـة نقـرأ رسائل وقصائد، مقالات وتعليقات على غرائـز الطفـل المُعـاقَبْ الشـريرة كلهـا. ونرى هنا وهناك ألمانـاً بـدأوا مـن جديـد يفكـرون «تاريخيـاً (أي، لاإنسـانياً)» ووضعنـا الراهـن يشـبه الـدرك الـذي أوصَلَنـا إليـه فرنسـا في عـام ١٨٧٠، والاستدلالات المستخلصة هي نفسها التي استُخلِصَتْ في فرنسـا عندئـذ: صـرّوا أسـنانكم، تحملـوا مـايجب أن تتحملـوه، ولكـن في أعمـاق قلوبكـم غــذّوا روح الانتقام وذات يوم قادم سوف تُصلِح ما جلبتْه الكارثة.

قبل أربع سنوات ولدى اندلاع أولى شرارات الحرب، عندما كتـب الجنـود الألمان علـى بوابـات ثكنـاتهم «مـا يـزال الاعـلان عـن الحـروب مقبـولاً» كـان أصحاب الرأي المخالف منا عاجزين عن إبداء الـرأي. ذلـك أن كـل كلمـة عـن الانسانية، عن التحذير، كل كلمة تعبر عن فكرة جادة للمستقبل، وكـل واحـد منا كان يُواجَهْ بالذم والريبة والحذر وخسارة الصداقة.

إننا لانريد لهذا أن يحدث مرة أخرى. بتنا نعرف الآن أن علم نفسـنا كـان خاطئاً، وأننا في بداية الحرب قمنا بإيماءات وتلفظنا بكلمات نبعت، ليس مـن إرادتنا الإصيلـة، وإنمـا مـن الهسـتيريا، صحيـح أن «الآخريـن» فعلـوا الشـيء نفسه؛ انهالت الإهانات على العدو، بل حتى على أنبل صفاته وعلى انجازاته الخارقة، وكانوا في المعسكر المقابل لايقلون خساسة عنا هنا في ألمانيا، على كلا الجـانبين كـان يوجـد مُهيِّجـون وأشـرار يتكلمـون بهسـتيريا وبـلا أي شـعور بالمسؤولية.

ثمة أمر واحد يجب أن نتوقف أخيراً عن فعله وهو أن نبّرر أنفسـنا بـالقول إن سلوك العدو ليس أفضل من سلوكنا. وإذا كان الجنرال فوش اليـوم لايعـرف الرحمة مثلما كان جنرالنا هوفمن في بريست - ليتفوسك، فلا يليق بنا أن ننبـح عليه. إنه يتصرف كمنتصر، تماماً كما تصرفنا نحن عندما كنا منتصرين.

اليوم نحن لسنا المنتصرين وتغيَّرَ دورنا. إن قدرتنا على الاستمرار في العيـش في العالم والنجاح فيه يعتمدان بشكل كـامل علـى قدرتنـا علـى معرفـة دورنـا، وعلى رغبتنا الصادقة في أن نتحمل عواقب وضعنا.

لقد دفعت البلوى شعبنا إلى التخلص من قادته القدامى وإعلان سيطرته على زمام أمره، وككل تحرُّك أصيل، نبع هذا التحرك من أعماق اللاوعي الخصبة. كان يقظة من أضاليل سحيقة. كان خرقاً للتقاليد المتصلبة كان أول قبس من حدس «مادام أن المُثُل العليا الوطنية التي رفعها قادتنا القدامى زائفة، أليست الانسانية، والعقل، والنية الطيبة سبيلاً أفضل؟»

قلوبنا تقول نعم. لقد فقدنا بين ليلة وضحاها «أقدس كنوز» الأيام الخوالي، رميناها لأننا رأينا أنها ليست أفضل من مجوهرات زائفة.

علينا أن نستمر بهذه الروح لقد اخترنا أصعب درب يمكن للإنسان، ولا أقول شعب، أن يسلكها: درب الصدق، درب الحب. إذا سلكناها حتى نهايتها سوف ننتصر. عندئذ لن تعود هذه الحرب الطويلة والهزيمة المؤلمة جرحاً متقرحاً وستصبح حظنا الحسن الذي نستحقه، ومستقبلنا الأفضل، وفخرنا وملكيتنا.

إن السير في درب الحب شاق جداً لأن لا أحد يثق في الحب، لأنه يُقابل بالشك من الجميع، وهذا ماندركه نحن أيضاً حالما ننطلق على دربنا الجديدة. ويقول أعداؤنا: لقد احتميتم تحت الراية الحمراء لتتجنبوا عواقب أعمالكم! - لكن الكلمات لاتقنع عدو صدقنا.. يجب أن نقهره ببطء وبلا هوادة بالحققة وبالحب. إن الأفكار الطيبة منتشرة - الأخوة الانسانية، عصبة الأمم، التعاون الودّي بين الشعوب كافة، نزع السلاح - لقد دار الكثير من الكلام حولها هنا وفي البلدان العدوة، وبعضها ليس جاداً كثيراً. علينا أن نتناول هذه الأفكار بجدية. وأن نبذل قصارى جهدنا لتحقيقها.

إن لنا دوراً ومهمة كمهزومين. مهمتنا هي المهمة المقدسة والأزلية لكل التعساء في الأرض: ليس فقط أن نتحمل قدرنا بل وأن نأخذه على عاتقنا كاملاً، أن نتّحد به، أن نفهمه - إلى أن نكف عن الشعور بأن سوء حظنا هو قدر غريب، انقض علينا من سحب نائية، وإنما هو جزء لايتجزأ منا، ينفذ إلى كياننا ويرشد أفكارنا.

إن كثيراً منا ينكصون عن مثل هذا القبول الكامل لقدرنا (وهو السبيل الوحيد للسمو به) بشعور زائف بالعار.

لقد تعودنا على أن نطلب من أنفسنا شيئاً لايوجد عند أي إنسان بـالفطرة: البطولة. فطالما أنت تحرز النصر تبدو البطولة جذابة جداً. وما إن تُهزَم وتفتقـد القوة لمواجهة وضعك والسيطرة عليه حتـى يتضـح أن البطولـة عدائيـة وخطـرة وقوة شالّة - عندئذ تنزع قناعهـا ويظهـر مولـوخ[1]. هـذا المولـوخ، الـذي كلّفنـا الكثير من إخواننا، هذا الإله المجنون الذي يحكم العالم منذ سنين، يجـب أن يكف عن أن يكون مثلنا الأعلى وقائدنا!

لا، يجب أن نسير على الدرب التي انطلقنا عليها، درب الصـدق والحـب الموحشة والشاقة، وحتى نهايتها. إذ يجب ألا نعود أبداً إلى التأمل الحزيـن في ماكنـا عليـه: شـعباً قويـاً فـاحش الـثراء ومدججـاً بالأسـلحة، يحكمنـا المـال والسلاح. وحتى لو أتيحت لنا الفرصة لاستعادة سلطتنا الكاملة والسيطرة علـى العالم كله، يجب ألا نعـود الى السـير علـى تلـك الـدرب، أو حتـى أن نعبـث بالتفكير فيها. لأن فعل ذلك سيعني أن تنكر، يحدونا إحسـاسنا ببلوانا العميقة ومعرفتنا اليائسة بأنفسنا، كل ما فعلناه وباشرنا بفعله خـلال الأسـابيع القليلـة الماضية. إذا كانت ثورتنا مجرد محاولة للفرار بطريقة أسهل، للتهرب من جزء من قدرنا، فهذه الثورة لاقيمة لها.

يجـب ألا يحـدث مثـل هـذا! لا، إن هـذه الحركـة القويـة، المفاجئـة، واللاإرادية والرائعة لم تولد من حسابات داهية، بـل مـن القلـب، مـن ملايـين القلـوب. والآن فلنـدع مـاينبع مـن القلـب يجـري بقلـب صـادق! لنقـاوم إغـواء البطـولات الهسـترية، المتكلفـة، فلنخلـع عنـا أثـواب مـرارة الضحايـا المُعاقبين ظلماً، وقبل كل شيء دعونـا لانصرّ علـى إنكـار حـق الذيـن نصّبـوا أنفسهم قضاتنا لمحاكمتنا. وسواء أكان أعداؤنـا يسـتحقون هـذا الحـق الرهيـب أم لا فهـذه مسـألة أخـرى. إن القـدر يـأتي مـن الله، فـإذا لم نتعلـم أن نـراه مقدساً وحكيماً، إذا لم نتعلم أن نحبه وننجزه، فسوف نكون قد هُزمنـا حقـاً. عندئذ لن نعـود المهزومـين النبـلاء، نتحمـل مـا لايمكـن تجنبـه، بـل فاشـلين يسربلهم العار.

---

[1] إله الحرب والدمار

إن الصدق شيء طيب، ولكن لاقيمة له بدون حب. الحب هو السيطرة على النفس، القدرة على الفهم، هو القدرة على الابتسام وسط الحزن. إن حبنا لأنفسنا ولقدرنا وقبولنا الحار لما يُخبِّئه لنا «الغامض»، حتى ونحن لاندرك كنهه ونفهمه ـ هو هدفنا. ربما لاحقاً سينضم إلينا شعبا روسيا والنمسا على دربنا - في الوقت الحاضر فإننا بحاجة فقط إلى الإرادة والقرار للاستمرار بعد أن انطلقنا.

ومن إرادتنا لإنجاز قدرنا، لنكون مستعدين للجديد وراغبين فيه، من ثقتنا ببلاغة بلوانا، وانسانيتنا المعذبة، سوف تنبع مئة طاقة جديدة. فحالما يأخذ المرء كامل قدره على عاتقه تتفتح عيناه على حقائق الأمور. إن «حسن نية» الوعد القديم سوف يعين فقراءنا على تحمُّل فقرهم، وسيساعد أصحاب المصانع ليتحولوا عن رأسماليتهم الأنانية إلى الإرادة الإيثارية للجهد الانساني. ومثل هذه النية الحسنة سوف تتيح لسفرائنا في الخارج في المستقبل أن يستبدلوا النشاط المنافق بدفاع جديد موثوق عن مصالح شعبنا كله. سوف نتحدث بألسنة شعرائنا وفنانينا وتتبدَّى في مسعانا كله؛ ببطء وهدوء ولكن بعمق، سوف تعوِّضنا عما فقدناه في تعاملاتنا مع العالم: الثقة والحب.

* * *

العناد

١٩١٩

هناك فضيلة واحدة أُحبها، ولا أحب غيرها، أنا أدعوها عناداً - لاأستطيع أن أجبر نفسي على إعلاء شأن كل الفضائل الكثيرة التي نقرأ عنهـا في الكتب ونسمعه من معلّمينا. صحيح أن كل الفضائل التي ابتكرها الانسان لنفسه يمكن أن تُصّنف تحت عنوان واحد: الرضوخ. غير أن السؤال المهم هو: نرضخ لمن؟ إذ أن العناد أيضاً رضوخ. ولكن كل الفضائل الأخرى، الفضائل التي تحظى باحترام وتقريظ هائلين، تتألف من رضوخ لقوانين من صنع الانسان. إن العناد هو الفضيلة الوحيدة التي لاتدخل في حسابها القوانين. والانسان العنيد يرضخ لقانون مختلف، القانون الوحيد الذي أكنُّ له مطلق التقديس - القانون الكامن داخل نفسه، «إرادته» هو.

من المؤسف جداً أن ينقص العناد بهذا الشكل الفادح! هل يحسن الناس الظن به؟ كلا أبداً، إنهم يعتبرونه رذيلة أو في أحسن الأحوال ضلالاً يُرثى له. إنهم يسمونه باسمه الكامل الفصيح حيث يثير العداء والكراهية (فكّر في الأمر، ستجد أن الفضائل الحقيقية دائماً تثير العداء والكراهية. أنظر الى سقراط، ويسوع، وجيوردانو برونو[1] وكل الرجال العنيدين الآخرين). وعندما يميل أي انسان قليلاً الى تقييم العناد بوصفه فضيلة أو على الأقل سجيّة تستجلب الاحترام، فإنه يخلع عليه إسماً مقبولاً أكثر. وكلمة «خصيصة، أو شخصية» لاتبدو فظة، ولا أقول أثيمة، ككلمة «عناد». وكلمة «أصالة» مناسبة ولو بقدر

---

[1] جيوردانو برونو (١٥٤٨ – ١٦٠٠): فيلسوف إيطالي، أعدم حرقاً بسبب آرائه الفلسفية.

ضئيل، وإن كان فقط بصلتها بأشخاص غريبي الأطوار نسامحهم، كالفنانين. ففي الفن، حيث العناد لا يشكل أي تهديد ظاهر لرأس المال، والمجتمع ويقدّر تقديراً عالياً وهو تحت عنوان الأصالة، وفي الحقيقة إن قدراً معيّناً من العناد يُعتبر مقبولاً بشكل إيجابي عند الفنانين ويجازى بأسعار مرتفعة. ولكن في مجالات أخرى تطلق لغتنا اليوم كلمة «خصيصة» أو "شخصية" على ظاهرة غريبة جداً هي الفطنة. إنها شيء يمكن عرضه وزخرفته ولكنه يحرص كل الحرص على أن ينحني احتراماً لقوانين المجتمع في كل مناسبة على شيء من الأهمية. إن كل إنسان يحمل بعض الأفكار والآراء خاصة به ولا يعيش في انسجام معها يقال إنه ذو شخصي. إنه يصرح بأساليب ماكرة بأنه يفكر بطريقة مختلفة، أن لديه أفكاراً خاصة به، بهذا الشكل المعتدل الذي لاينفصم عن التفاهة، تُعتبَر الشخصية فضيلة حتى والانسان مازال على قيد الحياة. لكن إذا كان للمرء أفكاره الخاصة ويعيش فعلاً في انسجام معها، فإنه يفقد شهادة «شخصيته» المفضلة ويقال عنه إنه مجرد «انسان عنيد». ولكن لنفرض أننا أخذنا الكلمة بمعناها الحرفي. فماذا تعني كلمة عنيد؟ إنها تعني «إنسان ذوإرادة مستقلة».

«إن لكل شيء على وجه الأرض، كل شيء بلا أي استثناء، أرادته الخاصة. إن كل حجرة، وورقة من عشب، وزهرة، وشجيرة، وحيوان ينمو، ويعيش، ويتنقل ويشعر انسجاماً مع ارادته الخاصة»، ولهذا كان العالم طيباً وخصباً وجميلاً. وإذا كانت هناك أزهار وثمار وأشجار سنديان وبتولا، وأحصنة ودجاج وقصدير وحديد وذهب وفحم، فذلك لأن كل شيء عظيماً كان أم متواضعاً يحمل في داخله «إرادته» الخاصة، ناموسه الخاص، ويتبع ذلك الناموس بثقة وثبات.

هناك فقط مخلوقان ملعونان مسكينان على الأرض استُبعِدا من اتّباع هذا النداء الخالد ومن أن يُوجَدا، لينموا، يعيشا ويموتا كصاحبيّ عناد فطري متأصل. وحدهما الانسان والحيوان الذي روَّضه يُفرَض عليهم أن يرضخا، ليس لناموس الحياة والنماء، وإنما لقوانين أخرى من وضع البشر ويخرقها البشر ويغيرونها بين حين وآخر. وأغرب ما في الأمر أن هؤلاء القِلّة الذين استخفّوا

بتلك القوانين العشوائية ليتبعوا ناموسهم الفطري الخاص أصبحوا محطّ تبجيل بوصفهم أبطالاً ومحرَّرين - على الرغم من أنهم كانوا خلال وجودهم على قيدَ الحياة مُدانِين. والجنس البشري نفسه الذي يحبّذ الرضوخ لقوانينه العشوائية باعتباره الفضيلة السامية للأحياء الذي يُخصِّص هيكله الخالد للذين تحدُّوا تلك القوانين وفضّلوا الموت على أن يخونوا «عنادهم».

إن "المأساة" تلك الكلمة السامية الغامضة والمقدسة التي تنحدر من شباب الانسان الاسطوري ويسيء صحفيونا استخدامها بشكل شنيع، تعبر عن قدر البطل الذي يلقى حتفه لأنه اتبع نجمه الخاص في وجه القوانين التقليدية. ومن خلال الأبطال المأساويين ومن خلالهم وحدهم اكتسب الإنسان مراراً بصيرة داخل كيانه الأعمق، نحو عمق "عناده". وكم من مرة بيَّن بطل مأساوي عنيد لملايين من العاديين من الناس من الجبناء، أن عصيان شرائع الانسان ليس تنصلاً فاضحاً من المسؤولية بل إخلاصٌ لناموس مقدس أرقى بكثير. بعبارة أخرى: إن غريزة القطيع الانساني تتطلب تكيُّفاً وخضوعاً ــ لكن الانسان لايخصُّ بأعلى درجات التكريم والخنوعَ، والجبانَ والكسولَ، وإنما وعلى وجه الدقة العنيدين، الأبطال.

تماماً كما يسيء المراسلون الصحفيون استخدام اللغة عندما يصفون حادثة تافهة بـ «المأساوية» (والتي بالنسبة إلى أولئك المهرجين هي مرادف للـ"تدعو الى الأسى") كذلك، من قبيل إساءة استخدام اللغة أن نقول - كما هو رائج هذه الأيام، خاصة بين الذين يلزمون بيوتهم - إن جنودنا المساكين، الذين ذبحوا على الجبهة، قد ماتوا «ميتةً بطولية». إن هذه نزعة عاطفية مفرطة. طبعاً الجنود الذين ماتوا في الحرب يستحقون أعمق تعاطف. وكثير منهم قاموا بأعمال عظيمة وكابدوا معاناة هائلة، وفي النهاية دفعوا حياتهم ثمناً. لكن ذلك لايجعل منهم «أبطالاً». إن الجندي العادي الذي يجأر به أي ضابط كما يجأر بكلب، لايتحول هكذا فجأة إلى بطل فقط لأن رصاصة أصابته فقتلته. إن مجرد افتراض وجود ملايين من «الأبطال» هو بحد ذاته شيء سخيف.

أن المواطن المطيع والحسن السلوك الذي يؤدي واجبه ليس «بطلاً» وحده «الفرد» الذي جعل من «عناده» ونبله، وناموسه الداخلي المتأصل قدراً له يمكن

أن يكون بطلاً. وقد قال نوفاليس، وهو أحد أعمق المفكرين الألمان وأقلهم شهرة «إن القدر وشكل العقل هما عبارتان لشيء واحد». ولكن وحده البطل يجد الشجاعة لتحقيق قدره.

لو أن غالبية الناس تملك هذه الشجاعة والعناد لأضحت الأرض مكاناً مختلفاً. كلا، يقول مدرسونا المأجورون (وهم أنفسهم مدربون جيداً على تقريظ أبطال وعنيدي أزمان سابقة) سوف ينقلب كل شيء رأساً على عقب. لكن الحياة في حقيقة الأمر سوف تغدو أكثر ثراءً وأفضل لو أن كل إنسان على حدة تبع ما يمليه عليه ناموسه الخاص وإرادته. صحيح أنه في هذا العالم قد تفلت بعض الاهانات والضربات القوية، التي تُبقي قضاتنا الأجلاء اليوم مشغولين، من العقاب. فقد يطلق سراح قاتل بين حين وآخر - ولكن ألا يحدث هذا اليوم على رغم قوانيننا كلها وعقوباتنا؟ ومن جهة أخرى، إن الكثير مما نشهده اليوم من أمور رهيبة وحزينة بصورة لاتوصف ومجنونة في عالمنا العالي التنظيم ستكون مجهولة ومستحيلة، كالحروب التي تنشب بين الدول.

الآن أسمع السلطات تقول: «إنك تدعو الى الثورة».

وهذا أيضاً خطأ. إن مثل هذه الغلطة لاتكون ممكنة إلا بين الدهماء. إنني أدعو إلى العناد، وليس الى الثورة كيف يمكن أن أريد الثورة؟ الثورة حرب مثل أي حرب أخرى. إنها «إطالة حياة السياسة بوسيلة أخرى» لكن من يملك الشجاعة ليكون هو ذاته، من يسمع صوت قدره الخاص، لاتهمه السياسة سواء أكانت فوضوية أو ديموقراطية، أو ثورية أو محافظة! إنه مهتم بأمر آخر. إن عناده كالعناد الموهوب، الرائع العميق، الذي يسكن ورقة العشب، لاهدف آخر له غير أن يزدهر هي «أنانية» إذا شئت. غير أنها تختلف كثيراً عن الأنانية الدنيئة للشبقين للمال والسلطة!

إن من أقول عنه أنه وُهِبَ نعمة «العناد» هو الذي لايسعى وراء مال أو سلطة، إنه يزدريهما، ولكن ليس لأنه مثال للفضيلة أو غيريّ مستسلم؟ حاشا! الحقيقة هي ببساطة أن المال والسلطان، وكل الممتلكات التي في سبيلها يعذب الناس أحدهم الآخر وينتهي بهم الأمر الى تبادل إطلاق النار لا تعني شيئاً إلى من عاد إلى نفسه، إلى إنسان عنيد. إنه لايقدِّر إلا شيئاً واحداً، القوة الغامضة

الكامنة فيه التي تدعوه الى الحياة وتساعده على أن يزدهر، هذه القوة لاتصان ولاتزداد ولاتتعمق بالمال والسلطة، ذلك لأن المال والسلطة هما من ابتكار انعدام الثقة، ومن لايثقون في القوة الواهبة للحياة الكامنة فيهم، أو ليس لديهم منها شيء، يعوضون عنها ببدائل كالمال وعندما يتحلي الانسان بثقة في النفس عندما يكون كل ما يريده من العالم أن يعيش قدره بحرية، ونقاء يتوصل إلى أن يعتبر كل هذه الأشياء الباهظة التكاليف والمغالى كثيراً في تقدير قيمتها مجرد كماليات، ربما من الممتع حيازتها أو الاستفادة منها، لكنها ليست أساسية بأي حال.

كم أحب فضيلة العناد! إنك حالما تتعلم كيف تكنزها وتكتشف قدراً منها داخلك، تصبح الفضائل الأكثر فوزاً بالإطراء كلها موضع شك بشكل غريب.

النزعة الوطنية إحداها، ليس لدي شيء ضدها. فهي بالنسبة الى الفرد تعتبر بديلاً لعقدة نفسية كبيرة، غير أنها تصبح في زمن الحرب فقط فضيلة تحظى بتقدير حق - تلك الوسيلة الساذجة والفجة حتى السخف لـ"إطالة أمد السياسة". فالجندي الذي يقتل الأعداء يُعتبر دائماً وطنياً أكثر من الفلاح الذي يحرث ارضه ويبذل في ذلك أقصى جهده. وذلك لأن الفلاح يجني فائدة عمله. وفي نظام مبادئنا الأخلاقية الغريب نرى أن الفضيلة المفيدة أو المربحة لصاحبها دائماً مثيرة للريب.

لماذا؟ لأننا تعودنا على أن نسعى الى الربح على حساب الآخرين. لأننا نحن المرتابون، دائماً مضطرون الى أن نشتهي مايخص غيرنا.

إن الهمجي يؤمن بأن القوة الحيوية للعدو الذي يقتله تنتقل اليه. وكل حرب، ومنافسة، وشك يسود بين الرجال يبدو أنه ينبع من معتقد بدائي يشبه كثيراً هذا، وسوف نكون أسعد حالاً إذا ما نظرنا الى الفلاح المسكين بوصفه على الأقل معادلاً للجندي! وإذا تمكنا من التغلب على اعتقادنا المتطير بأن الحياة أو متعة الحياة التي ينالها إنسان أو شعب من الناس يجب أن تُنْتَزَعْ بالضرورة من انسان أو شعب آخر!.

لكن الآن أسمع صديقي المعلم يقول: «هــذا كـلام جميـل، ولكـن يجـب أن أطلب منك الان أن تنظر الى المسألة بموضوعية، مـن الجـانب الاقتصـادي، إن إنتاج العالم هو..»

فأجيبه على هذا: «لا، شكراً إن الجانب الاقتصـادي ليس موضوعيـاً بـأي حـال؛ إنـه زجـاج نـرى عـبره أشـياء كثـيرة. قبـل الحـرب، مثـلاً، أثـيرت الاعتبارات اقتصادية للبرهان على أن حرباً عالمية مستحيلٌ نشـوبها أو أنـه إذا ماحصل ونشبت فلن تدوم طويلاً. أما اليوم فأستطيع أن أبرهن أيضاً على أسس اقتصادية، العكس. كلا، دعك مـن هـذه الأوهـام مـرة واحـدة ولنتحـدث بلغـة الوقائع».

إن أياً من «وجهات النظر» هذه مهما أطلقنا عليهـا مـن أسمـاء ومهمـا كـان حجم البروفسـور الـذي يلقنهـا، لا توصلنـا الى أي هـدف، إنهـا جميعـاً تـزود بأرضية غـير ثابتـه ونحـن لانضيـف أي آليـات أو أي نـوع آخـر مـن الآليـات وبالنسبة إلى رجل «واحد» ليس هنـاك إلا وجهـة نظـر طبيعيـة «واحـدة» فقـط محك طبيعي واحد، وهو العنــاد. إن قـدر الرجـل العنيـد لايمكـن أن يكـون في الرأسمالية أو الاشتراكية، لا في انكلترا ولا في أمريكا، إن قــدره الحــي الوحيـد هو في الناموس الصامت، الذي لايقاوم، ويحكم قلبه، والعادات المريحة تجعـل من الصعوبة بمكان إطاعته أما بالنسبة الى الرجل العنيد فهو قدر وألوهية.

* * *

عودة زرداشت

كلمة أولى للشبيبة الألمانية

عام ١٩١٩

[في وقت من الأوقات كان هناك روح ألمانية، وشجاعة ألمانية، ورجولة ألمانية لم تعبّر عن نفسها بهدير القطيع أو بحماسة الجماهير الفقيرة. وآخر وسيلة عظيمة لنقل تلك الروح كان نيتشة. الذي أصبح، وسط أزدهار الأعمال التجارية والامتثال الأعمى للتقاليد والأعراف الذي ميز بدايات الامبراطورية الألمانية، معادياً للنزعة الوطنية وللتعصب الألماني. وفي هذا الكتاب الصغير[1] أود أن أذكّر الشبيبة الألمانية المثقفة بذاك الرجل، بشجاعته وعزلته، وأنا بفعلي هذا أبعد انتباهكم عن صياح القطيع (الذي ليس نبرته المُنتحبة الحالية أمتع للسمع بأي قدر من النبرة الهمجية، المتنمرة التي تلبّستها في تلك «الأيام المجيدة») وأوّجهه الى بضع حقائق وتجارب بسيطة للروح. وفيما يخص الأمة والتجمع الشعبي، فليعمل كل انسان كما تُملي عليه حاجاته وضميره — لكنه في سياق ذلك سوف يخسر نفسه وروحه، وكل ما سيفعله لن تكون له أي قيمة قلة قليلة من الرجال في بلدنا المستنْزَف والمدحور ألمانيا بدأت تنتبه إلى أن البكاء والشكوى لاطائل من ورائهما، وتستعد للعمل كما يليق بالرجال. من أجل المستقبل. قلائل فقط اشتبهوا قبل نشوب الحرب بوقت طويل بفداحة انحطاط الفكر الألماني. فإذا كنا نرغب في أن يكون لنا عقول ورجال قادرون على تأمين مستقبلنا، فعلينا ألا نبدأ من النهاية، من المناهج السياسية وأشكال

---

[1] يقصد هذه المقالة الطويلة. — المترجم.

الحكم، ولكن من البداية من بناء الشخصية. هذا هو موضوع كتابي الصغير. لقد ظهر للمرة الأولى مع إغفال إسم المؤلف في سويسرا (حيث طبعت منه طبعات عدة)، لأني لم أرد أن أفقد ثقة الشبان باسم مألوف لديهم. أردت لهم أن يتأملوا فيه بلا تحامل، وهذا مافعلوا. وعليه، لم يعد لي من مبرر إبقاء إسمي مغفلاً]

«مقدمة هرمن هسه للطبعة الأولى الموقّعة باسمه»

حين شاع بين الشبان في العاصمة أن زرادشت قد ظهر من جديد وشوهد هنا وهناك يجوب الشوارع والساحات، خرج بضعة شبان بحثاً عنه. وكان هؤلاء من الشباب الذين عادوا إلى الوطن من الحرب واعتصرهم الألم إذ ألفوا أنفسهم وسط ماطراً على مسقط رأسهم من تغيُّر وجيشان، فقد لاحظوا أن أموراً كثيرة تحدث، غير أن مغزى تلك الأمور كان غامضاً وكانت بالنسبة الى معظمهم متنافرة ولامبرر لها. ففي الأعوام السابقة كان أولئك الشبان جميعاً ينظرون الى زرادشت كنبي لهم ومرشد، كانو قد قرأوا ما كتب عنه بحماس الشباب، تحدثوا عنه وفكروا فيه أثناء تجوالاتهم على المروج وعلى الجبال، وليلاً قرأوه في غرفهم على ضوء المصابيح. ولأن الصوت الأول الذي يدير وبقوة اتجاه أفكار الانسان إلى ذاته وقَدَره يُقدِّس، فإنهم قدّسوا ما قاله زرادشت.

عثر الشبان على زرادشت في شارع عريض يصيح بالناس. كان يقف مستنداً إلى جدار ينصت الى زعيم متهيّج يخطب في حشد من الناس من فوق إحدى الحافلات. أنصت زرادشت وابتسم وهو يستعرض وجوه الناس. كان يستعرض تلك الوجوه كما يتأمل ناسك عجوز أمواج البحر أو سحب الصباح. رأى فيها الخوف؛ رأى نفاد الصبر والقلق المرتبك، والكئيب والبسيط؛ رأى الشجاعة والحقد من عيون الشابتين والياشين، ولم يتعب من طول النظر، وكان في الوقت نفسه ينصت الى المتكلم، وتعرَّف اليه الشبان من ابتسامته. لم يكن عجوزاً ولا شاباً لم يبدُ عليه أنه معلّم ولا أنه جندي بل بدا كالإنسان ذاته عندما بزغ أول مرة من قلب ظلمة البداية، كالأول من نوعه.

ومع ذلك، بعد فترة من الشك في صحة كونه هو، تعرَّفوا إليه من ابتسامته، كانت ابتسامته وضَّاءة لكنها ليست رقيقة؛ كانت صادقة، ولكن

ليست منطلقة. كانت ابتسامة محارب، لكنها مع ذلك أقرب إلى ابتسامة رجل عجوز شاهد الكثير ولم يعد يأبه لذرف الدموع.

بعد أن انتهى الخطاب وبدأ الناس، وسط جلبة عارمة، يتفرقون، اقترب الشبان من زرادشت وحيّوه باحترام.

تلعثموا قائلين: «أيها المعلم هاقد جئت أخيراً إلى زمننا المثخن بالجراح، ها قد عدت. أهلاً بك يا زرادشت! أنت الذي سيرشدنا، أنت الذي سيقودنا، أنت الذي سينقذنا من أجسم الأخطار قاطبة».

دعاهم، مبتسماً إلى مرافقته، وعندما انطلقوا قال لهم «إنني في مزاج رائق جداً، يا أصدقائي. لقد عدت، ربما ليوم واحد، ربما لساعة، لأشاهدكم وأنتم تمثلون. لطالما كنت أستمتع بمشاهدة الناس وهم يمثلون، حينئذ يكونون في أصدق حالاتهم».

أصغى الشبان إليه وتبادلوا النظرات، وظنوا أن كلام زرادشت مغرق في السخرية والخفة، واللامبالاة. إذ كيف يتحدث عن التمثيل في حين أن شعبه في حال من البؤس؟ كيف يمكنه أن يبتسم ويبدو منشرحاً مبتهجاً وبلده مهزوم ويواجه الدمار؟ كيف يمكن لهذا كله، للحشد المجتمع والخطيب، وخطورة الساعة الراهنة وما تتسم به من مهابة ووقار - كيف يمكن لهذا كله أن يكون بالنسبة إليه مجرد عرض مسرحي، مجرد شيء يستدعي الفرجة والابتسام بسخرية؟ ألا يجدر به، في مثل هذا الظرف، أن يذرف بعض الدموع، أن يتفجّع ويشق ملابسه؟ وفوق هذا كله، ألم يحن الوقت المناسب للعمل؟ لتحقيق انجازات عظيمة؟ ليكون قدوة؟ لينقذ بلده وشعبه من مصير محتوم؟

قال زرادشت الذي تكهن بأفكارهم المضمرة «إنني أفهم، يا أصدقائي أنكم حانقون عليّ. وهذا ما كنت أتوقعه، ومع ذلك فأنا مندهش. إن مثل هذه التوقعات دائماً تسير جنباً إلى جنب مع نقيضها، ففريق منا يتوقع أمراً ويأمل فريق آخر في نقيضه، وهذا يا أصدقائي ما أشعر به ـ ولكن دعكم من هذا الآن، أنتم تودون أن تتحدثوا مع زرادشت أليس كذلك؟».

هتفوا متلهفين «نعم، نعم، بلا شك»

ابتسم زرادشت وقال: «حسن إذن، يا أصدقائي الأعزاء، تحدثوا إلى زرادشت، واسمعوا ما يقوله زرادشت. إن الرجل الماثل أمامكم ليس خطيباً مفوهاً، أو جندياً، أو ملكاً، أو قائداً عسكرياً؛ إنه زرادشت، الناسك العجوز والمهرج، مبتدع الضحكة الأخيرة، وأشياء أخرى أخيرة حزينة عديدة مني، يا أصدقائي، تتعلمون كيف تحكمون الأمم وترمّمون الهزائم. أنا لاأستطيع أن أعلمكم كيف ترعون قطعان الماشي أو تشبعون بجياع. فهذه ليست من مهاراتي؛ هذه ليست من اهتمامات زرادشت».

ران الصمت على الشبان وعبرت سحابة من الخيبة وجوههم. وتابعوا السير، مكتئبين ومستائين، الى جوار نبيهم وظلوا فترة طويلة لايجدون كلاماً يجيبون به. وأخيراً تكلم أصغرهم سناً، وكانت عيناه وهو يتكلم تومضان. وكان زرادشت يرنو اليه بسعادة.

باشر الشاب بالقول «قل لنا إذن، قل لنا ماذا لديك تقوله. لأنه اذا كنت قد أتيت فقط لتسخر منا وتسخر من مصاب شعبك فإن لدينا أعمالاً أفضل نقوم بها بدل التمشي معك. والاصغاء الى نكاتك المتازة. أنظر إلينا يازرادشت. إننا جميعاً على الرغم من صغر سننا قاتلنا في الحرب، وواجهنا الموت ولسنا في مزاج يصلح لمارسة الألعاب وتزجية الوقت في التسلية. إننا نؤثرك أيها المعلم ونحبك، غير أن حبنا لأنفسنا ولشعبنا أعظم من حبنا لك، نريدك أن تعلم هذا».

أشرقت تقاسيم وجه زرادشت عندما سمع كلام الشاب، ونظر بلطف، كلا، بل بحنان، في عينيه الغاضبتين.

ثم قال وهو يرسم أفضل ابتسامة لديه «كم أنت محق، يا صديقي، فيرفضك قبول العجوز زرادشت بدون معاينة، في التحقيق معه، وفي أن تضرب على وتره الحساس. كم أنت محق، يا ولدي العزيز في ألا تثق به! زيادة على ذلك يجب أن أعترف أنك أحسنت القول، قلت الكلام الذي يحب زرادشت أن يسمعه». ألم تقل نحن نحب أنفسنا أكثر مما نحب زرادشت؟» إن مثل هذه الصراحة تدخل مباشرة إلى القلب! إنك بهذه الكلمات أسرتني، أنا السمكة العجوز الزلاّقة، وقريباً ستجعلني أتدلى من سنارتك!».

في تلك اللحظة سمعوا هتافاً، وصراخاً، وضجيجاً يتناهى على البعد، بدا غريباً ولا معقولاً وسط هدوء المساء. وعندما رأى زرادشت عيون وأفكار رفاقه الشبان تتجه بسرعة نحو تلك الناحية كصغار أرانب برية، بدّلَ من نبرة كلامه. وفجأة أصبح رنين صوته يبدو وكأنه يأتي من مكان بعيد، ناء. بدا تماماً كما كان قد بدا عندما تعرَّف إليه الشبان للمرة الأولى، وكأنه صوت صادر عن النجوم أو الآلهة وليس عن بشر، أو أكثر من ذلك، كان أشبه بالصوت الذي يسمعه كل إنسان سراً في قلبه أحياناً عندما يسكنه الله.

توقف الأصدقاء، وعادت أفكارهم وحواسهم إلى زرادشت، فقد تعرَّفوا عندئذ الى الصوت الذي كان قد تفجَّر ذات مرة إبان بدء شبابهم مثل صوت إله مجهول.

قال بجدية، موجهاً كلامه بصورة رئيسية إلى الأصغر سناً «اسمعوني، يا أولادي». إذا أردتم أن تسمعوا قرع ناقوس، فينبغي ألا تضربوا على التنك. وإذا رغبتم في العزف على الناي، فيجب ألا تضعوا شفاهكم على فوهة زق، أتفهمونني، ياأصدقائي؟ عودوا بفكركم، يا أصدقائي الأعزاء، عودوا بفكركم وتذكروا ماذا تعلمتم من معلمكم زرادشت في ساعات الحماسة تلك؟ ماذا كان؟ أكان حكمة من أجل مكتب المحاسبة، أم الشارع، أم ساحة الحرب؟ هل نفحتكم بنصيحة مخصَّصة للملوك، هل حدَّثتكم وكأني ملك، أم مواطن عادي، أم سياسي، أم تاجر؟ كلا، إذا كنتم تذكرون، لقد تكلمت بوصفي زرادشت، تكلمت بلغتي أنا، لقد توقفتُ أمامكم مباشرة كمرآة، ترون فيها انعكاس صورتكم. هل حدث مرة أن «تعلمتم شيئاً» مني؟ هل كنت قط مدرب لغة أو مدرساً، لأي مادة دراسية أخرى؟ كلا، إن زرادشت ليس مدرساً ولايمكنكم أن تطرحوا عليه أسئلة وتتعلموا منه، وتدونوا صيغاً كبيرة وصغيرة لتستخدموها عندما تستدعي الحاجة اليها. إن زرادشت إنسان، إنه أنتم وأنا. زرادشت هو الانسان الذي تبحثون عنه في أنفسكم، الصريح، الطاهر - فكيف يرغب في أن يغويكم؟ لقد شاهد زرادشت كثيراً وعانى كثيراً كسر، الكثير من الجوز وعضَّه الكثير من الأفاعي. لكنه تعلم شيئاً واحداً: «أن يفخر بحكمة صغيرة، تعلم أن يكون زرادشت. وهذا ما تريدون أن تتعلموه منه، لكنكم غالباً ما تفتقرون الى

الشجاعة لتتعلموا. يجب أن تتعلموا أن تكونوا أنفسكم تماماً كما تعلمت أنــا أن أكون زرادشت. يجب أن تنسوا عادة أن تكونوا شخصاً آخــر أو لا أحــد أبداً، أن تقلدوا أصوات الآخرين وتخطئوا فتظنون وجوه الآخرين وجوهكم أنتم ـ لــذا يا أصدقائي، عندما يحدثكم زرادشت لاتفتشوا عن أي حكمة، أو مهارات، أو صيغ جاهزة، أو أي تلاعب في كلماته، ابحثوا عن الانسان نفســه مــن الحجــر يمكنكم أن تتعلموا القساوة، ومن العصفور تتعلمــون التغريــد. ومــني يمكنكم أن تتعلموا ما الإنسان وما المصير».

عند انتهاء هذا الحديث كانوا قــد وصلــوا إلى أطــراف المدينــة، وظلــوا فـترة طويلة يتمشون معاً في المساء، تحت الأشجار المخشخشة. طرحــوا عليــه أسـئلة كثيرة، وكثيراً ما ضحكوا معه وكثــيراً مــا يئســوا منــه، وأحدهــم دوَّن مــا قالــه زرادشت لهم في تلك الأمسية، أو جزءاً منه، واحتفظ به من أجل أصدقائه.

هذا ما كتبه كما يتذكر زرادشت وكلماته:

في المصير

هكذا حدثنا زرادشت:

شيء واحد يوهب للإنسان يجعل منه إلهاً، ويذكِّــره بأنــه إلــه: أن يعــرف مصيره.

إن ما يجعل مني زرادشت أني توصلــت إلى معرفــة مصــير زرادشــت، إنــي عشت حياته. قلائل هم مــن يعرفــون مصــيرهم. قلائــل مــن يعيشــون حيــاتهم. تعلموا أن تعيشوا حياتكم! تعلموا أن تعرفوا مصيركم!

لقد طال نحيبكم على مصير شعبكم. لكن المصير الذي ننحب عليه لم يصبح لنا؛ إنه مصير غريب، عدائي، إله غريب وصنــم شــرير، مصــير انقضَّ علينــا كسهم مسموم من قلب الظلام.

تعلموا أن المصير ليس وثناً من الأوثان، عندئذ ستعلمون أخيراً أنــه لاوجــود للأوثان ولا للآلهة! وكما ينمو الطفل في رحم المرأة، كذلك ينمو المصير في جسد كل انسان، أو يمكنكم أن تقولوا: في عقله وروحه، فالأمر واحد.

وكما أن المرأة تتّحد مع طفلها وتحبه أكثر من أي شيء في العالم كله، كذلك عليكم أن تتعلموا أن تحبُّوا مصيركم أكثر من أي شيء في العالم كله. يجب أن يكون إلهكم، وبالنسبة اليكم يجب أن تكون أنفسكم هي آلهتكم.

عندما يأتي المصير إلى الانسان من الخارج، فإنه يصرعه تماماً كما يصرع سهم غزالاً. وعندما يأتي المصير الى الانسان من الداخل، من عمق أعماق كيانه، فإنه يقوّيه، يحوله إلى إله. لقد جعل من زرادشت زرادشت ـ ويجب أن يجعل منكم أنفسكم!

إن من يتعرف الى مصيره لايحاول أبداً أن يغيِّره. ومحاولة تغيير المصير هو سعيٌ أحمق يدفع الناس إلى التشاجر والتقاتل. وامبراطوركم وقادتكم حاولوا أن يغيِّروا المصير، وكذا فعلتم أنتم. والأن وقد فشلتم في تغيير المصير، أصبح له طعم مرٌّ وهاأنتم تعتبرونه سُمّاً زعافاً. ولو لم تحاولوا أن تُغيِّروه، لو أنكم ضممتموه إلى قلوبكم كطفل لكم، لو أنكم جعلتم منه ذواتكم الخاصة، فكم كان مذاقه سيغدو حلواً! إن كل شعور بالحزن، والسُّم، والموت هو مصير غريب، دخيل، لكن كل فعل حقيقي، كل شيء خيِّر وفَرِحْ ومثمر على وجه الأرض، هو مصير حي، مصير أضحى ذاتاً.

قبل نشوب حربكم الطويلة، يا أصدقائي كنتم أغنياء، أنتم وآباؤكم كنتم أغنياء وبدينين وشرهين، وعندما أصابكم ألم التخمة لاشك في أنكم تعرفتم الى مصيركم من خلال ألمكم وتوقفتم وأصغيتم إلى صوته الطيب. ولكن لما كنتم مجرد أطفال، فإن ألم بطونكم أثار غضبكم وتوصلتم الى الاعتقاد أن الجوع والفاقة هما مصدر ألمكم. وهذا انطلقتم: لتسيطروا، لتستولوا على مزيد من المساحة على الكرة الأرضية، لتكدسوا مزيداً من الطعام لملء بطونكم. والآن بعد أن عُدْتُم إلى وطنكم خالين الوفاض مما سعيتم لأجله عدتم تئنون من جديد، واكتنفتكم كافة صنوف الأوجاع والآلام؛ وها أنتم من جديد تبحثون عن العدو الشرير، الشرير المسؤول عن آلامكم وأنتم مستتعدون لإطلاق النار عليه حتى وإن كان شقيقكم.

أصدقائي الأعزاء، ألا يجدر بكم أن تفكروا؟ ألا يجدر بكم، هذه المرة فقط، أن تتعاملوا مع ألمكم بمزيد من الاحترام والفضول، والرجولة، وبخوف وتحبب

صبياني أقل؟ أليس من الممكن أن يكون ألمكم المحض هو صوت المصير، أليس من الممكن ألا يصبح ذاك الصوت عذباً حالما تفهموه؟

ثمة أمر آخر يا أصدقائي، إنني أسمع مناجاتكم وصراخكم المستمر جراء ألمكم الممضّ ومصيركم المرير الذي نزل بشعبكم وبأرض آباءكم سامحوني، يا أصدقائي إذا كنت مرتاباً قليلاً في ذلك الألم، إذا كنت متردداً قليلاً في تصديق الأمر برمته ! فهل أنتم جميعاً - أنت وأنت وأنت ـ تتألمون فقط من أجل شعبكم وأرض آباءكم؟ أين هي أرض الآباء هذه؟ أين رأسها؟ أين قلبها؟ أين يبدأ العلاج؟ قولوا لي! بالأمس كنتم تخافون على القيصر، على الامبراطورية التي كنتم فخورين بها، ومجدتموها وقدستموها، أين هذا كله اليوم؟ إن ألمكم ليس مبعثه ـ القيصر ـ ولو أن الأمر كذلك أما كان ظل ممضاً حتى الآن بعد أن رحل القيصر؟ ومبعثه ليس الجيش أو الأسطول الحربي أو أي أرض أو ممتلكات مُنتَزَعَة، أصبح هذا جلياً لديكم الآن ولكن، إن كنتم حقا تتألمون، لماذا إذن لاتكفون عن التحدث عن الأمة وأرض الآباء، عن كل تلك الانجازات العظيمة الجديرة بالتقدير التي من السهل بمكان التحدُث عنها ولكن من السهل بمكان أن تتبخر وتتلاشى؟ من هو الشعب؟ أهو خطيب مُهيِّج أم هو أولئك الذين يصغون اليه؛ أهو الذين يوافقونه أم أولئك الذين يلوِّحون مهدِّدين بهراواتهم ويهتفون بسقوطه؟ أتسمعون إطلاق الرصاص الذي يحدث هناك؟ أين هو الشعب، شعبكم؟ أهو الرامي أم الهدف؟ أهو المهاجِمْ أم المهاجَمْ؟

اعلموا، أن من الصعب على الناس أن يفهم أحدهم الآخر، والأصعب أن يفهموا أنفسهم عندما نصرُّ على استخدام كلمات ضخمة. فإذا كنتم جميعاً - أنت وأنت - تتألمون إذا كنتم مرضى في أجسادكم وأرواحكم، إذا كنتم خائفين وتتوجّسون من وقوع خطر - فلم لا تحاولون، حتى ولو من قبيل التسلية، حتى ولو من قبيل الفضول، الفضول الصحي الجيد، أن تطرحوا السؤال بشكل مختلف؟ لم لاتسألون إن لم يكن مصدر ألمكم هو ربما أنتم أنفسكم؟ لقد كنتم جميعاً في الماضي ولفترة وجيزة مقتنعين بأن الروس هم أعداؤكم وأصل كل شر. وبعد ذلك بقليل أصبحوا الانكليز ومن ثم الفرنسيين، ثم آخرين، وفي كل مرة كنتم متأكدين، في كل مرة كان الأمر مهزلة مُغِمَّة تنتهي بمأساة. أما الآن وقد

وجدتم أن الألم منبعه أنفسنا، وأننا لايمكن أن نشفى منه بوضع اللوم على العدو. ها أنتم من جديد تهملون البحث عن منبع ألمكم حيث هو: داخل نفوسكم. أليس من الممكن أن مايؤلمكم ليس الشعب ولا أرض الأجداد ولا السيطرة على العالم، ولا حتى الديموقراطية، وإنما معدتكم وكبدكم، قرحة أو سرطان يتآكلكم- وأن وحده الخوف الأحمق من الحقيقة والطبيب يجعلكم تتوهمون أنكم في أتمّ صحة لكنكم وياللأسف مصابون بمرض عضال في شعبكم؟ أليس هذا ممكناً؟ ألا يثير هذا فضولكم؟ ألن يكون مصدر تسلية لكل منكم أن تتفحّصوا ألمكم وتحاولوا أن تحددوا مصدره؟

قد تكتشفون أيضاً أن ثلث ألمكم أو نصفه وأكثر ينبع من أنفسكم، وأنه ربما من الأفضل أن تأخذوا حماماً بارداً أو أن تقلّلوا من شرب النبيذ أو أن تتّبعوا نوعاً آخر من العلاج، بدل أن تدقّقوا في أرض الآباء وتطببوها. أعتقد أن هذا ممكن تماماً - ثم ألن يكون ذلك رائعاً؟ أليس ممكناً القيام بأي عمل بهذا الشأن؟ ألن يكون هناك أمل من أجل المستقبل؟ أمل في تحويل الألم الى فائدة والسُّم إلى مصير؟

يصدمكم وتجدون أن من الخِسّة والأنانية أن تنسوا أرض الآباء وتكتشفوا أنفسكم. ولكن ياأصدقائي لعلكم لستم على حق كما تفترضون! ألن تقولوا أن أرض الآباء التي لايعرضُ كل مواطن مريض أوجاعه الخاصة عليها، التي لايحاول مئات المرضى أن يطببوها، قد تكون أفضل صحة وأقدر على الكفاح؟.

آه، يا أصدقائي الشبان، لقد تعلمتم الكثير في حياتكم الغضّة! كنتم جنوداً واجهتم الموت مئات المرات. أنتم أبطال. أنتم أعمدة أرض الآباء. لكني أرثي لكم: لاتكتفوا بهذا! استزيدوا من العلم! كافحوا أكثر! وتذكروا بين حين وآخر كم أن الاستقامة شيء رائع!.

الفعل والمعاناة

تتساءلون «ماذا نفعل؟» تسألونني مراراً وتكراراً، وتسألون أنفسكم أيضاً إن «الفعل» - العمل - بالنسبة إليكم شديد الأهمية، بل له كل الأهمية. هذا جيد، يا أصدقائي، أو بالأحرى سيكون جيداً إذا فهمتهم فهماً تاماً ماهو الفعل!

لكن السؤال «ماذا نفعل؟» بحد ذاته - ما هـو العمـل الـذي يجـب أن نقـوم به؟ - هذا السؤال الجدير بطفل قلق، يبيِّن لي قِلَّة ما تعرفون عن العمل.

وإن ماتسمونه أنتم معشر الشبان بالعمل، أنا، الزاهد العجوز ساكن الجبال، أطلق عليه اسماً آخر. أستطيع أن أستحضر أي عدد من الأسماء المضحكة أو المثيرة للإعجاب أخلعه على مفهومكم هذا «للعمل». لست مضطراً إلى أن أطيل لفّه بين أصابعي لأحوِّله بأناقة وبشكل مسل إلى نقيضة. لأنه هو نقيضه. إن «فعلكم» هو نقيض ما أسميه أنا «فعل».

لا فعلاً حقيقياً، يا أصدقائي - فقط أنصتوا الى الكلمة، أنصتوا جيداً، اغسلوا آذانكم بها! - لا فعلاً حقيقياً أنجزه. من سأل أولا: ماذا أفعل؟ إن الفعل نورٌ يشعُّ من شمس صالحة. إذا كانت الشمس غير صالحة، إذا لم تكن راسخة ومُخْتَبَرة مرات عـِّدة، أو أسوأ من ذلك: إذا كانت من النوع الذي يتساءل بقلق ماذا أفعل، فلن تشع أي نور. إن الفعل الحقيقي ليس كـ«عمل شيء ما»، الفعل الحقيقي لايمكن تدبيره واحتياله. حسن، سأقول لكم ما الفعل الحقيقي. ولكن، يا أصدقائي دعوني أولاً أقول لكم كيف أفهم هذا الفعل، هذا «العمل» الذي تتحدثون عنه. وعندئذ سوف يفهم بعضنا بعضاً بصورة أفضل.

إن هذا «الفعل» الذي ترغبون في تحقيقه - ويُتوقَّع له أن ينشأ من البحث والشك والهيام على غير هدى - هذا الفعل ياأصدقائي الأعزاء هو نقيض الفعل الحقيقي وعدوه القاتل. لأن فعلكم، وسامحوني لهذه الكلمة البغيضة، هو جبن! أرى غضبكم يستعر، ارى في عيونكم النظرة التي أحبها كثيراً - ولكن مهلاً اسمعوني حتى النهاية!

أنتم أيها الشبان جنود، وقبل أن تصبحوا جنوداً كنتم، أو آباؤكم كانوا، تجاراً أو صناعاً أو ما شابه. إنهم وأنتم، الذين تعلمتم في مدرسة تدعو الى الأسى، آمنتم بتضادات معينة كان يعتقد بوجودها منذ بدء الزمان وأوجدتها الآلهة هذه الأضداد كانت آلهتكم. من أحدها، التضاد بين الانسان والإله. استنتجتم أنه لا يمكن للإنسان أن يكون إلهاً، والعكس بالعكس. ولا يجد زرادشت طريقة أوضح، وأبسط ليبيِّن لكم السمة المريبة والخسيسة لتلك

الأضداد المجَّدة بسبب قِدمها، والمقدسة الى أقصى الحدود، من أن يفتح عيونكم على التضاد الذي آمنتم به إيماناً لايهتز: أي بين الفعل والمعاناة.

الفعل والمعاناة اللذان يشكلان عماد حياتنا، هما كلٌ واحد. إن الطفل يعاني مولده، يعاني ولادته وفطامه، ويظل يعاني الى أن ينتهي به الأمر الى معاناة الموت. ولكن كل مافي الانسان من خير، الذي يتلقى بفضله المديح والحب، ما هو إلا معاناة طيبة، من النوع الملائم، النوع الحي من المعاناة، المعاناة حتى الزبى. والقدرة على المعاناة جيداً تستغرق أكثر من نصف مدة الحياة - بل الحياة كلها، في الحقيقة. فالميلاد معاناة، والنمو معاناة، والبذور تعاني من التربة، والجذور تعاني من المطر، والبرعم يعاني من إزهاره.

بالطريقة نفسها ياأصدقائي يعاني الانسان مصيره، المصير هو الأرض، هو المطر والنمو. إن المصير يؤلم.

إن ما تسمونه بالفعل إنما هو هروب من الألم، نفور من الميلاد، وفرار من المعاناة، وأنتم وآباؤكم عندما تنشطون ليلاً ونهاراً في الدكاكين والمصانع، عندما تسمعون الكثير الكثير من المطارق تطرق، وعندما تنفثون كميات ضخمة من السخام في الهواء، تسمُّون هذا فعلاً، لاتسيئوا فهمي، أنا ليس لدي أي اعتراض على مطارقكم وسخامكم، وآباءكم. ولكن لايسعني إلا أن أبتسم عندما تتكلمون عن نشاطكم وتسمونه «فعلاً». فهو ليس فعلاً، بل مجرد هروب من المعاناة. كان يؤلمكم أن تكونوا وحيدين وهكذا أسس البشر المجتمعات. كان يؤلمكم أن تسمعوا كافة أنواع الأصوات داخلكم تطالبكم بأن تعيشوا حياتكم الخاصة، أن تسعوا الى تحقيق مصيركم، أن تموتوا موتكم الخاص - وكان ذلك مؤلماً، فهربتم، ورحتم تثيرون الضجيج بمطارقكم وآلاتكم، الى أن تراجعت الأصوات وسكتت. هذا ما فعله آباؤكم وهذا مافعله معلموكم، وهذا مافعلتموه أنتم أنفسكم. لقد كنتم مطالبين بالمعاناة - سخطتم، ورفضتم أن تعانوا، أردتم فقط أن تتصرفوا ! فماذا فعلتم أولاً، بواسطة انشغالاتكم الغريبة قدّمتم أضحية لإله الضجيج الذي يصمُّ الآذان، وكنتم من فرط انغماسكم في نشاطكم بحيث لم يعد لديكم وقت للمعاناة، للسماع، للتنفس، لشرب حليب الحياة ونور السماء. كلا، كان لابد من أن تنشطوا نشاطاً مستمراً عملاً مستمراً. وعندما اتضح أن

الجلبة والحركة عقيمان، وعندما فسد المصير داخلكم واستحال سُمّاً بدل أن ينضج وينزّ حلاوة. ضاعفتم نشاطكم، وخلقتم لأنفسكم أعداءً، أولاً في الخيال، ثم على أرض الواقع، ذهبتم الى الحرب، وأصبحتم جنود وأبطال. قمتم بغزوات، تحملتم مصاعب تصيب بالجنون، وأنجزتم مآثر ضخمة. والآن؟ أأنتم راضون؟ هل امتلأت قلوبكم بالسعادة والصفاء؟ هل وجدتم مذاق المصير حلواً؟ كلا، بل هو أمرُّ من العلقم، ولهذا تراكم تصرخون طلباً لمزيد من الحركة، تندفعون في الشوارع تضجُّون وتصرخون، تنتخبون على المجالس، وتعيدون شحن بنادقكم. وكل ذلك لأنكم في حالة هروب دائم من المعاناة! حالة هروب من أنفسكم، من أرواحكم!.

أكاد أسمع جوابكم. إنكم تسألون إذا كان ما عانيتموه لم يكن معاناة، ألم تعانوا عندما مات إخوتكم بين أذرعكم، وعندما تجمدت أجسادكم والتصقت بالإرض أو ارتعشت تحت مبضع الجراح؟ نعم، كل ذلك كان معاناة معاناة استجلبتموها على أنفسكم بعنادكم، معاناة بَرِمَة، صراعاً لتغيير المصير. إنه عمل بطولي - طالما أن الهارب مَنّ مصيره من يريد أن يغيِّره، يمكنه أن يتصف بالبطولة.

إن من الصعب تعلُّم المعاناة. والنساء ينجحن أكثر في هذا المجال وبصورة أنبل من الرجال. تعلَّموا منهن! تعلموا الاصغاء إلى صوت الحياة عدما يتكلم! تعلموا أن تنظروا عندما تعبث شمس المصير بظلالكم! تعلموا أن تحترموا الحياة! تعلموا أن تحترموا أنفسكم!

من المعاناة تنبع القوة، ومن المعاناة تنبع الصحة. «الأصحاء» هم دائماً الذين ينهارون فجأة! الذين تطرحهم نفخة من هواء أرضاً. هؤلاء هم الذين لم يتعلموا المعاناة! إن المعاناة تجعل الانسان صلباً، المعاناة تقوِّيه. الذين يفرون من وجه المعاناة أطفال أنا أحب الأطفال، ولكن كيف يمكن أن أحب أولئك الذين يودون أن يكونوا أطفالاً طوال حياتهم؟ وهذا حالكم جميعاً، أنتم، الذين، وسط خوفكم الطفولي الكئيب من الألم والظلمة، فررتم من وجه المعاناة إلى النشاط.

انظروا ماذا حققتم من كل جلبتكم ونشاطكم وانشغالكم بالأعمال السخامية! ماذا بقي لكم؟ نفد مالكم ومعه نفد بريق انشغالكم الجبان. ماذا ولد كل نشاطكم

من فعـل حـق؟ أيـن هـو الرجـل العظيـم، البطـل السـاطع رجـل الفعـل؟ أيـن قيصركم؟ من سيحلُّ محله؟ وأين مهارتكم ؟ أين الأعمال التي ستبرِّر عصركـم؟ أين الأفكار المرحة، العظيمة؟ آه ما أحقر معاناتكم وأتفهها لتنتج أي شيء خيِّر ومشع!

ذلك أن الفعل الحقيقي يا أصدقـائي، الفعـل الصـالح والمشـع، لاينبـع مـن النشاط، من الحركة النشـطة، ولاينبـع مـن الطَرْق الكـادّ؛ إنـه ينمـو في عزلـة الجبال. فوق الذرى، حيث يسكن الصمت والخطر. ينمـو مـن المعانـاة الـتي لم تتعلموا بعد أن تعانوها.

في العزلة

وتسألون يا أصدقائي الشبان، عن مدرسة المعاناة، حيث يُطرَقْ المصير، ألا تعرفون؟ كلا، أنتم يامن لا تكفّون عن الحديث عن الشعب والتعامل مع الجماهير الغفيرة، من تتمنون أن تعانوا فقط معهم ولأجلهم، أنتم لاتعرفون. إنني أتحدث عن العزلة.

إن العزلة هي درب عليها يحاول المصير أن يقود الإنسان إلى ذاته، العزلة هي دربُ مبعث أشد ما يخشاه البشر. درب محفوفة بالرعب، تلطي عليها الأفاعي والشراغف. ألا يقال عن الذين ساروا وحدهم، الذين استكشفوا صحارى العزلة أنهم ضلوا السبيل، وأنهم أشرار أو مرضى؟ ألا يتحدث الناس عن المآثر البطولية وكأنها أعمال مجرمين - وذلك لأنهم يعتقدون أن من الأفضل أن يثنوا أنفسم عن السير على درب وإنجاز مثل تلك المآثر؟

ثم زرادشت ـ أما قيل عنه أنه مات مجنوناً وأن الجنون يكمن في كل ما قال؟ وعندما سمعتم مثل هذه الأقاويل، ألم تشعروا أن الدم يندفع ويضرِّج وجناتكم؟ وكأنما من الأنبل والأجدر بكم أن تكونوا أحد أولئك المجانين وكأنكم تشعرون بالخجل من افتقاركم إلى الشجاعة؟

دعوني يا أصدقائي الشباب، أغنّي لكم أغنية العزلة، بدون العزلة لاوجود للمعاناة، بدون العزلة لاوجوب للبطول. لكن العزلة كما أراها ليست عزلة الشعراء المرحين أو عزلة المسرح، حيث تبقبق مياه النبع بعذوبة عند مدخل كهف الناسك.

إن المسافة بين الطفولة والرجولة تُقطَع بخطوة واحدة. خطوة واحدة ووحيدة. وباتخاذكم تلك الخطوة تنفصلون عن الأب والأم، تصبحون أنفسكم،

إنها خطوة داخل العزلة، لا أحد يتخذها بشكل كامل. حتى أشد النُسَّاك قداسة، والدب العجوز الأشد نكداً فوق أشد الجبال عزلة وكآبة يأخذ، معه، أو فلنقل يجرُّ وراءه، خيطاً يربطه بأبيه وبأمه، إلى دفء القرابة والصداقة اللذيذ. يا أصدقائي، عندما تتحدثون بحماسة شديدة عن الشعب وأرض الآباء، أرى الخيط يتدلى منكم، وأبتسم. وعندما يتحدث رجالكم العظام عن "مهمتهم" ومسؤوليتهم يتدلى ذاك الخيط من أفواههم. إن رجالكم، العظام وقادتكم وخطباءكم لايتحدثون أبداً عن مهام موجَّهة ضدهم، لايتحدثون أبداً عن المسؤولية اتجاه المصير! إنهم مربوطون بخيط يعيدهم إلى الأم وإلى كل الدفء الأليف الذي يستحضره الشعراء عندما ينشدون عند الطفولة وعن أفراحهم النقيّة. لاأحد يقطع الخيط بشكل تام، إلا في حالة الموت وفقد إذا مانجح في أن يموت موته الخاص.

إن معظم الناس، القطيع، لم يتذوقوا قط طعم العزلة. إنهم يغادرون الأب والأم، ولكن فقط كي يزحفوا الى زوجة ويستسلموا بهدوء الى دفء جديد وروابط جديدة. إنهم لاينفردون بأنفسهم أبداً، ولايتواصلون أبداً مع أنفسهم. وعندما يمرُّ بهم رجل متوحد، يخافونه ويكوهونه كالطاعون، يرجمونه بالحجارة ولايهدأ لهم بال حتى يبتعدوا عنه. أن الهواء من حوله يفوح برائحة النجوم، بأبعاد نجميّة، أنه يفتقر الى العبق الدافيء الرقيق للمنزل والمفرخة.

إن زرادشت يفوح بشيء من هذه الرائحة النجمية، تلك البرودة البغيضة. زرادشت قطع شوطاً بعيداً على درب العزلة. التحق بمدرسة المعاناة. لقد رأى كيف يُطرَق المصير ويُشكَّل فيها.

آه، ياأصدقائي، لاأدري إن كان ينبغي أن أزيد في الكلام عن العزلة. سوف يسعدني أن أحاول السير في ذاك الدرب. سوف يسعدني أن أنشد لكم نشيد حكايا انتشاء الفضاء الكوني المثلجة. لكني أعرف أنهم قلائل الذين يستطيعون أن يسافروا على ذلك الدرب بدون أن ينالهم الأذى. من الصعب ياأصدقائي، أن نعيش بلا ألم، صعب أن نعيش بلا وطن ولا شعب، بلا أرض آباء أو شهرة، بلا مسرات الحياة ضمن مجتمع.. صعب أن نعيش في البرد، وأغلب الذين انطلقوا على هذا الدرب سقطوا. على الانسان ألا يبالي بامكانية السقوط،

هذا إذا أراد أن يتذوّق العزلة وأن يواجه مصيره إن من الأسهل والأمتع أن يسير مع مجموعة من الناس، مع حشد منهم - حتى في جو البؤس - من الأسهل والأكثر راحة أن يكرس نفسه لـ «المهام» اليومية، المهام التي توزعها الجموع الغفيرة. انظروا ما أسعد الشعب في الشوارع المزدحمة. تطلق عيارات نارية، ويتعرضون للخطر، ومع ذلك يفضّل كل واحد منهم ألف مرة أن يموت بين الجماهير المحتشدة على أن يسير وحده في الليل الخارجي البارد.

ولكن كيف لي، ياأصدقائي الشبان، أن أجرّبكم أو أن أقودكم؟ فالعزلة كالمصير، ليست خياراً. إن العزلة تأتينا و إذا كان في داخلنا حجر سحري يجذب اليه المصير. لقد خرج عدد كبير، بل كبير جداً من الناس إلى الصحراء وعاشها حياة القطيع في ملاذ جميل، بجانب نبع رقراق. في حين وقف آخرون وسط تكدس الحشود، لكن هواء النجوم كان يهب من حول رؤوسهم.

ولكن طوبى لمن عثر على عزلته، ليس العزلة المصورة في اللوحات، أو القصائد الشعرية، بل عزلته الخاصة، الفريدة، المقدَّرة. طوبى لمن يعرف كيف يعاني! طوبى لمن يتحمّل الحجر السحري في قلبه. فإليه أن يأتي المصير، ومنه يخرج الفعل الأصيل.

* * *

سبارتاكوس[1]

سألتم عن رأيي في الذين يسمحون أن يُكنَّـونَ باسم سبارتاكوس. من بين سكان أرض آبائكم كلهم الذين يحاولون جاهدين أن يبشّروا بمستقبل أفضل، أشد مَنْ يثير اعجابي أولئك العبيد المتمردين. ماأشد عزمهم، وصراحتهم واستقامتهم! «أقول صادقاً»، لو أن طبقتكم البورجوازية تتصف الى جانب مواهبها الأخرى، بقدر ضئيل من قوتهم الداخلية، لنجا بلدكم.

لكنه لن يُدمَّر على أيدي السبارتاكوسيين، أليس غريباً أليس من تصاريف القدر أن يحملوا هذا الاسم؟ لقد تركوا، هم الجهلة، والخشنون الذين يحتقرون ذوي التعليم اللاتيني والطبقات المثقفة، تركوا أحد قادتهم يسمّيهم باسم يفوح بعبق التاريخ والثقافة الواسعة تصل نتانته حتى عنان السماء ومع ذلكَ أليس القدرُ يكمن في الاسم الذي انتقوه من تلك الأزمان السحيقة؟

ذلك لأن هناك شيئاً واحداً جيداً في هذا الاسم الجديد، هذا الاسم السحيق في القدم: إنه بالنسبة الى من يفهمون كنهه، يذكّر بنقطة تحوُّل، ببداية النهاية، وكما انتهى ذاك العالم. العتيق، كذلك يجب أن ينتهي عالمنا الحالي: هذا ما يقوله لنا الاسم، وهو حق. يجب أن يموت مع كل الأشياء المحبوبة، الجميلة، التي شدتنا إليه. ولكن هل سبارتاكوس هو الذي دمَّر العالم القديم؟ أم كان يسوع الناصري، أمِ البرابرة، أم حشود المرتزقة الشُقر؟ كلا لقد كان سبارتاكوس بطلاً تاريخياً، هزَّ بعنف أغلاله واستخدم خنجره بشجاعة. لكنه لم يحوّل العبيد إلى رجال، ولم يساهم إلاّ بدورٍ ثانوي في سقوط الطبقة الحاكمة في زمنه.

---

[1] سبارتاكوس: المقصود به هنا الحزب الاشتراكي المتطرف الذي ظهر في ألمانيا في عام ١٩١٨.

ولكن لاتستخفوا بأصحاب القبضات الحمراء أولئك والاسم المدرسـي! إنهـم مستعدون، إنهم متآلفون مع المصير. ومستعدون لمواجهة حتفهم. احترموا الروح التي تسكن في أولئك الرجال الثابتين! إن اليأس ليس بطولـة ــ أنتـم اكتشـفتم ذلك بأنفسكم في الحرب. لكن اليأس أفضل من الخـوف الخسيس من الطبقـة البورجوازية، التي تلجأ إلى البطولة فقط عندما تتعرض زكائب أموالها للخطر!

إن ما يسمونه «بالشيوعية» نعرفها جيداً، إنها وصفة قديمه، من فرط قدمها أضحكت مضحكة، أُخذت من مطبخ الخيمياء العتيقـة. لاعليكـم ممـا يقولـون! ولكن انتبهوا إلى ما يفعلون! أن أولئك الرجال قادرون على الفعل الحـق لأنهـم اقتربوا، حتى وإن من طريق فرعية شائنة، من نقطةٍ يزدهرُ عندهـا المصير. إن لديكم إمكانات أنبل وأعظم مما لديهم، لكنكـم مـازلتم في بدايـة الطريـق. وهـم وصلوا إلى نهايته وهم، يا أصدقائي، متفوقون عليكم بإحساسهم الهام بـأن كـل المستعدين لمواجهة حتفهم متفوقون على المتأخرين عن الركب والمترددّين.

أرض الآباء وأعداؤها

ياأصدقائي، لقد أفرطتم في التفجُّع على سقوط أرض آباءكم. فإذا كـان لابـد لأرض الآباء أن تسقط، فمن الشرف والرجولة أن تدعوها في صمت، وبلا تذمر! ولكن أين ترون ذاك السقوط؟ أم هل أن «أرض آباءكم» مازالت لاتعني لكم أكـثر من زكائب أموالكم وسفنكم أو قيصركم؟ أو أبهتكم الفخيمة؟

إذا كنتم تعنون بأرض الآباء ما أحبَّه أفضلكم بوصفه أفضـل مـا في شـعبكم، ما تَغَنَّتْ به أممكم ذات مرة وأبهجـت العـالم، فقـد فشـلتُ في أن أفهـم كيـف يمكنكم أن تتكلموا عن سقوط وموت. لقد خسرتم الكثـير، في المـال والأرض، في السفن وفي الهيمنة العالمية. وإذا كان هذا أفدح من أن تتحملون، فموتوا بأيديكم عند قدمي تمثال القيصر. وسوف أرتل على أرواحكم ترنيمة جنائزية. ولكـن لا تكتفوا بالجلوس هكذا تتذمرون وتتضرعون للتاريخ كي يرأف بكم. أنتـم، يـامَنْ قبل فترة قصيرة من الزمن كنتم تتغنون بـالروح الألمانيـة الـتي سـتنقذ العـالم، لاتقفوا على جانب الطريق الآن كتلاميذ المدارس المُعَاقَبين تبكون طلباً للرحمـة! إذا كنتم لاتحتملون الفقر، فموتوا! إذا كنتـم لاتسـتطيعون أن تحكمـوا أنفسـكم بـدون قيصر وقـادة منتصريـن، فدعـوا الاجـانب يحكمونكـم! ولكـن، لهفـي عليكم، إياكم أن تفقدوا كل حسّ بالخجل!

وتحتجُّون قائلين، ولكن أليس أعداؤنا قساة؟ أليسوا غـادرين بـلا رحمـة في انتصـارهم، الـذي هـو انتصـار قـوة هائلـة في تفوقهـا؟ ألا يتكلمـون عـن الحـق ويمارسون القوة؟ ألا يتكلمون عن العدالة عندما يقصدون السلب والنهب؟

أنتم علي حق. إنني لاأدافع عن أعدائكم. إنني لاأحبهم. هـم أيضـاً مثلكـم دنيئـون عنـد الانتصـار، يضمـرون الكثـير مـن الخـدع والحيـل -، ولكـن، ياأصدقائي، هل كان الحال غير ذلك في أي وقت؟ وهل مهمتنا هـي أن نسـتمر في أن نرفع عقيرتنا بالنواح على مالا حيلة لنا به؟

إن مهمتنا ، كما تبدو لي، هي أن نموت كالرجال أو أن نعيش كما يليق بالرجال. ليس أن نعوي كالأطفال، بل أن نتعرف إلى مصيرنا، أن نعانق معاناتنا، أن نحول مرارتها إلى حلاوة. إن هدفنا لايمكن أن يكون أن نعود عظماء وأغنياء وأقوياء، أن نحصل على السفن والجيوش من جديد وبأسرع مايمكننا. هدفنا لايمكن أن يكون وهماً صبيانياً - ألم نر ما نالنا من السفن والجيوش، من القوة والمال؟ أنسينا بهذه السرعة؟

يا شبيبة ألمانيا، لايمكن تحديد هدفنا باسماء وأرقام. إن هدفنا، كهدف كل كائن بشري، هو أن نتّحد مع مصيرنا. إذا استطعنا أن نفعل ذلك، فلا يهم عندئذ إن كنا عظماء أم متواضعين، أغنياء أم فقراء، مهابون أم مُحْتَقَرون دعوا مجالس الجنود وعمال القلم يلقون الخطب حول هذه الأمور! إذا لم تعودوا الى أنفسكم من خلال الحرب والمعاناة، فإذا كنتم مازلتم مصممين على تغيير مصيركم والهروب من المعاناة، إذا رفضتم أن تبلغوا سن الرشد، إذن، موتوا!

لكنكم تفهمونني، أرى ذلك في عيونكم. إنكم تشمّون رائحة المواساة في كلمات الرجل العجوز ساكن الجبل، العجوز الخبيث، المريرة. إنكم تتذكرون الكلمات التي خاطبكم بها عن المعاناة، وعن المصير، وعن العزلة. ألا تشعرون نفحةً من العزلة تهب عليكم من المعاناة التي حلت بكم؟ ألم تصبح حاسة سمعكم حادة لالتقاط صوت المصير الساكن؟ ألا تشعرون أن ألمكم يمكن أن يُثمِر؟ إن معاناتكم يمكن أن تصبح امتيازاً، نداءً لأرقى الأشياء؟

تماماً كما أطلب منكم لاتجعلوا من أنفسكم أهدافاً في وقتٍ تمتد اللانهاية أمامكم! لاتسخَروا أنفسكم الآن، بعد أن هشّم القدر أهدافكم البائدة الرائعة كلها، لخدمة أهداف أخرى لقد خاطبكم الله؛ أتوسل اليكم لاتخجلوا! انظروا الى أنفسكم كنخبة، كمصطفي، مختارين! ولكن ليس مختارين لهذا العمل أو ذاك، إنكم مختارون لتصبحوا أنفسكم بالمعاناة لتستعيدوا بالألم أنفاسكم ونبض قلوبكم التي لم تَضِعْ. أنتم مختارون لتتنفسوا هواء النجوم ومن بين الأطفال لتكونوا رجالاً.

كفاكم نواحاً. ياأصدقائي الشبان! كفاكم ذرفاً لدموع الطفولة لأنكم فارقتم أمكم وحضنها الدافيء. تعلموا أن تأكلوا الخبز المُرّ، خبز المصير!

عندئذ سوف تتراءى لكم من جديد «أرض الآباء» كما تراءت لأخيار أسلافكم وأحبوها. عندئذ سوف تعودون من عزلتكم الى المجتمع الذي لم يعد مستقراً وأليفاً، الى مجتمع الرجال، الى عالم بلا تخوم، مملكة الله كما سمّاها آباؤكم. هناك ستجدون مكاناً لكل فضيلة حتى، وإن كانت حدودكم الوطنية ضيقة. هناك ستجدون حيزاً لكل صنوف الشجاعة، حتى بدون جنرالات!

ولأنكم لستم أكثر من أطفال، لايستطيع زرادشت أن يكبح ضحكه لاضطراره أن يواسيكم هكذا.

تحسين العالم

أصدقائي الشبان، هناك تعبير يفزعني عندما أسمعكم تنطقون به هذا إذا لم يثر ضحكي! ذاك التعبير هو «تحسين العالم» لقد تعودتم على ترديد هذه الأغنية مع رفاقكم وجماعاتكم، وكان قيصركم وكل أنبياؤكم شديدي الولع بتلك الأغنية، وكانت لازمتها تقول إن الروح الألمانية سوف توحِّد العالم.

يا أصدقائي، يجب أن نتعلم كيفَ نكف عن الحكم حول ما إذا كان العالم طيب أم شرير، وكيف نكفَ عن الادّعاء الغريب بأن أمر تحسينه في أيدينا.

لطالما شَجبَ العالمُ بوصفه شريراً، لأن الشاحب كان نومه مضطرباً أو أسرف في الأكَل. ولطالما مُدِحَ العالمُ بأنه جنة، وذلك لأن المادح كان قد قبَّل فتاةً لتوه.

إن العالم لم يُخلق لكي يُحسَّن. ولاأنتم خُلقتم ليطرأ عليكم تحسُّن. أنتم خلقتم لتكونوا أنفسكم. خلقتم لتغنوا للعالم بصوت، بنغم، بظل. كونوا على سجيتكم، وسيغدو العالم غنياً وجميلاً! كونوا ما ليس أنتم، كذّابين وجبناء، وسيغدوا فقيراً وسيبدو في حاجة الى تحسين.

في هذا الوقت بالذات، في هذه الظروف الغريبة، تُغنَّي من جديد وبعزم أغنية تحسين العالم، يُصدَحُ بها من فوق السطوح. ألا تسمعون كم هي قبيحة ومخمورة؟ كم هي بليدة وكئيبة وغبية وحمقاء؟ وهذه الأغنية أشبه بإطار يمكن أن يُثبَّت على أي صورة. فقد نَاسَبَتْ القيصر ورجال شرطته، ناسبت أساتذتكم الألمان الشهيرين. أصدقاء زرادشت القدامى! هذه الأغنية الخرقاء تناسب

النظام الديموقراطي والنظام الاشتراكي، وعصبة الأمم والسلام العالمي، وتناسب إلغاء النزعة القومية وأيضاً القومية، الجديدة. واعداؤكم أيضاً ينشدونها، إنكم أشبه بجوقتين تحاولان أن تتصارعا بالغناء حتى الموت. ألم تلاحظوا أنه كلما تعالى غناء هذه الأغنية يمدُّ الرجال أيديهم الى جيوبهم، فهي أغنية المصلحة الشخصية والأنانية ـ واأسفاه، إنها ليست الأنانية النبيلة التي ترتقي بالذات وتملأها بالعزم، وإنما الأنانية المتمركزة حول المال، وزكائب المال والتفاهات والضلالات. وعندما يخجل الانسان من أنانيته فإنه يتحدث عن تحسين العالم، ويختبىء خلف مثل هذه الكلمات.

لاأدري، ياأصدقائي، إن كان العالم قد حُسِّن مرة. لعله كان دائماً سيئاً كما هو، لاأدري، فأنا لست فيلسوفاً، وفضولي يكاد يكون معدوماً في هذا الاتجاه. لكني أعرف مايلي: إن كان العالم قد حُسِّن مرة، إن كان قد جُعِلَ مرة أكثر ثراءً، حيوية، وسعادة، وخطراً، ومصدراً للتسلية، فإن ذلك لم يحدث على أيدي المصلحين، والمحسنين، وإنما بواسطة الأنانيين الحقيقيين، الذين أحب كثيراً أن أعدّكم منهم. أولئك الرجال الأنانيين حقاً، وجدياً الذين لاهدف لهم ولا غايات. الراضين بالعيش وبأن يكونوا أنفسهم. يعانون كثيراً، لكنهم يعانون حباً وكرامة. إنهم يرغبون في أن يمرضوا شريطة أن يحصلواا على امتياز الموت ميتتهم الخاصة، الموت الذي هم أنفسهم مروا به، الخاص بهم وحدهم!

لعل العالم تحسَّن أحياناً على أيدي مثل أولئك - تماماً كما تُحسِّن غيمة صغيرة، وظل بُنّي صغير، وسرب سريع للعصافير، يوماً خريفياً ليس هناك من سبب يدفعنا الى الاعتقاد بأن العالم يحتاج من التحسين أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه من حفنة من الرجال - ليس الرِعاع، ولا القطيع، وإنما حفنة قليلة من الرجال، حفنة من الكائنات النادرة تبتهج قلوبنا كما يبهجنا سرب من العصافير أو شجرة نامية على شاطىء البحر - لمجرد أنهم موجودون، لأنهم كما هم، فإذا كنتم طموحين، ياأصدقائي الشباب، إذا ماسعيتم جاهدين لنيل الشرف، فجاهدوا في سبيل ذلك الشرف، غير أن ذاك الجهاد خطر، يؤدي الى العزلة، ويمكن بسهولة أن يكلفكم حياتكم.

عن الألمان

هل تساءلتم مرة كيف حدث وكان الألمان غير محبوبين إلى أبعد حد، وأنهم مكروهون كرهاً أعمى، ويبثون خوفاً عظيماً في القلوب ويُتَجنَّبون بعنف؟ ألا يبدو غريباً لكم أنه خلال هذه الحرب الأخيرة، التي اشتركتم فيها بعدد كبير من الجنود تحدوكم آمال مثالية، انتقلت الأمم واحدة بعد أخرى ببطء وثقة إلى معسكر أعدائكم وتخلت عنكم وخَطَّأَتْكُم؟

نعم، لاشك في أنكم لاحظتم ذلك، لاحظتموه مع سخط شديد، وكنتم فخورين بأنكم منبوذون معزولون، ومُساءٌ فهمكم - ولكن اسمعوني، أنتم لم يُسأ فهمكم! أنتم أنفسكم لم تفهموا، لقد كنتم مخطئين.

لطالما افتخرتم، أيها الشباب، الألمان بفضائل لم تتفوا بها، ونسبتم إلى أعدائكم كل الرذائل التي تعلموها منكم. كنتم دائماً تتشدقون بالكلام عن الفضائل «الألمانية»، اعتقدتم أن الولاء وما شابهه من فضائل كانت جيدة، وكأنها من وضع قيصركم أو شعبكم. ولكنكم لم تكونوا موالين؛ كنتم غير صادقين مع أنفسكم، وهذا وحده أكسبكم كراهية العالم. وتقولون: كلا كان المال مالنا، كان رمز نجاحنا! ولعل أعداءكم أيضاً ظنوا كذلك، لعلهم اتفقوا معكم في منطق أصحاب الدكاكين. غير أن الأسباب الحقيقية هي دائماً أعمق قليلاً مما يعتقد الناس، وخاصة أكثر من الأحكام المتسرعة التي يُطلقها رجال الأعمال الواسعو الخيال. لعل أعداءكم يستكثرون عليكم أموالكم، لعلها تثير حسدهم! ولكن هناك أيضاً أنواعاً من النجاح لاتثير أي شعور بالحسد يرحّبُ بها العالم ويبتهج لها. فلماذا لاتحققون أبداً مثل ذلك النجاح. لماذا دائماً لاتتبعون إلا النوع الآخر؟

ذلك لأنكم لم تكونوا صادقين مع أنفسكم، لأنكم لعبتم دوراً ليس لكم. وبعون من قيصركم وصاحبكم ريتشارد فاغنر، حولتم «الفضائل الألمانية» إلى

أوبرا لم يأخذها أحد في العالم كله على مأخذ الجد غير أنتم. وخلف كل الهراء الأوبرالي أفلتم عنان غرائزكم القاتمة، الوضيعة والمصابة بجنون العظمة. كان اسم الله دائماً يتردد على شفاهكم وأيديكم موضوع على أكياس نقودكم، تحدثتم عن النظام والفضيلة والتنظيم، وكنتم تعنون بذلك جمع المال. وفضحتم أنفسكم بأن نسبتم دائماً الخدع نفسها إلى العدو. وكنتم تقولون، اسمعوا، اسمعوا كيف يتكلمون عن الفضيلة والعدالة، وانظروا ماذا يفعلون على أرض الواقع، ثم تتغامزون عندما يلقي انكليزي أو اميركي خطبة رائعة، لأنكم كنتم تعلمون ماذا يستتر خلف تلك الخطب. ولكن كيف كان يمكن أن تتسنى لكم تلك المعرفة إن لم يكن بقلوبكم؟

حسن جداً. قالوا إني أؤذي مشاعركم! إنكم لستم متعودين على الشعور بالتأذي، أنتم متعودون على تبادل الربتْ على الظهر. تحبُّباً. كان لديكم عدو تكيلون له الشتائم، تفرغون شحنات عدائكم عليه، كنتم دائماً على حق، وكان العدو دائماً على خطأ. أما أنا فأقول لكم: يجب أن تكونوا قادرين على أن تبتلوا بالألم وتعانوه، إذا أردتم أن تناصروا الحياة وتشقّوا طريقكم في العالم. إن العالم مكان بارد، إنه ليس منزلاً ومفرخة تستطيعون فيه أن تجلسوا في طفولة أبدية ودفء مُصان، العالم قاس ولايُعرف له قرار، ولايحب إلا الأقوياء والقادرين يحب أولئك الذين يبقون مخلصون لذواتهم، أما الباقون فلا يحققون إلا نجاحاً قصير الأمد - نجاحاً من النوع الذي حققتموه، منذ الانهيار الروحي، في مجال سلعكم ومنظماتكم! ماذا حل بذلك النجاح؟ ولكن لعل زمنكم قد جاء الان. لعل الحاجة أضحت مُلحّة جداً الى شحذ إرادتكم — ليس لإثارة المزيد من الضجيج والحركة، ليس للقيام بهروب آخر من معنى الحياة السري، وإنما إلى رجولة جديدة، إلى إيمان بأنفسكم، إلى صدق مع أنفسكم، وولاء لها.

ذلك، ياأصدقائي، لأنه على الرغم من كل تعنيفي الغاضب لكم، لابد أنكم قد أدركتم أني: أحبكم وأني أكنُّ ثقة خاصة بكم، وأني أرى المستقبل فيكم وصدقوا [illegible] لدي حاسة شم حادة ومجربة مرات عدة. نعم، انا مؤمن بكم - إن فيكم شيئاً في الشعب الألماني

أؤمن به ولطالما كنزت له حباً عميقاً إنه شيء لازال غير مرئي ـ إمكانات، مستقبل، وربما إغواء، وميض خلف مئة سحابة. أنا مؤمن به بالذات لأنكم مازلتم أطفالاً، لأنكم تقومون بأعمال صبيانية كثيرة، لأنكم تحملون طفولتكم الطويلة الطويلة جدا، معكم أينما ذهبتم. آه، ليت هذه الطفولة تنضج لتغدو رجولة! ليت هذه السذاجة تصبح ذات يوم ثقة بالنفس، وهذه الرقة طيبة، وغرابة الأطوار والحساسية شخصية متميزة وعناداً رجولياً!

أنتم أشد الشعوب ورعاً في العالم. ولكن أي آلهة خلقها ورعكم! أي قياصرة وضباطاً مدربين! والآن، وبدلاً عنهم، هؤلاء الجالبين للأخبار الطيبة إلى العالم!

ليتكم تتعلمون كيف تفتشون عن الله داخل انفسكم! ليتكم تقفون ذات يوم أمام هذا الشيء السري، هذا المستقبل الكامن في داخلكم، وقفة رهبة، كما فعلتم سابقاً أمام الأمراء والرايات! ليت ورعكم يكف ذات يوم عن الركوع ويقف بشموخ على ساقين صلبين، رجوليتين وقويتين!

* * *

أنتم وشعبكم

مازلتم شكاكين، ياأصدقائي، فكثيراً ماترمونني بنظرة ارتياب، وأعلم ماذا يغضبكم مني ويزعجكم: إنكم تخشون أن يغويكم زرادشت، ساحر الأسماع، ويبعدكم عن شعبكم، الذي تحبون، الشعب الذي قدّستموه، أليس كذلك ؟ أليس ظني في محله؟

إن معلميكم وكتبكم يعلمونكم عقيدتين: الأولى هي أن الشعب أو الأمة هي كل شيء، والثانية هي عكس الأولى.

لكن زرادشت لم يكن يوماً معلماً، وهو يرى أن معتقداتكم في أحسن الأحوال تثير الضحك. ياأصدقائي الأعزاء، إن الخيار بين أن تكونوا أمّة أو أفراداً غير متاح لكم. لارجلَ بلغ ذرى العزلة والرجولة بالقراءةِ عنها في كتابٍ واتخاذ قرارٍ بالتوجُّه اليها.

ولكن، ياأصدقائي الشبان. إذا سألتكم: ماالذي يتوق اليه شعبكم بقوة؟ ماهي حاجته؟ - فهل ستجيبون. إن شعبنا يحتاج إلى الأفعال، شعبنا يحتاج إلى رجال لايكتفون بالكلام بل يعرفون كيف يعملون!

فليكن، ياأصدقائي، ولكن تذكروا إكراماً لكم أو لشعبكم، ماالذي يثير الأفعال ما الذي يثير العناد الرجولي، البهيج البارد وروح الصباح التي تنبثق منها الأفعال كما ينبعث البرق من السحاب. أنسيتم بهذه السرعة؟ ألا تتذكرون؟

يا أصدقائي إن ما يحتاجه شعبكم وكل شعب هو رجال تعلّموا أن يكونوا أنفسهم وتعرّفوا إلى مصيرهم. هم وحدهم يصبحون مصير شعبهم، هم وحدهم يرفضون الاكتفاء بالخطب واطلاق الأحكام وبيوروقراطية تفتقر إلى الشجاعة أو الحس بالمسؤولية. هم وحدهم يتحلّون بالشجاعة وبالحيوية وبحس الفكاهة المرح، والممتع والجيد، الذي تنبعث منه الأفعال الحقيقية.

أنتم أيها الألمان وأكثر من أي شعب آخر متعودون على الرضوخ. إن شعبكم رضخ بسهولة شديدة. بكامل رغبته وسعادته، وكره أن يتخذ أصغر خطوة لاتشبع رغبته في تنفيذ أمر ما، أو الاذعان لإجراء ما. إن العلاقات التي تأمركم بما يجب أن تفعلوه وقبل كل ذلك مايجب ألا تفعلوه، تنتشر في كل أرجاء بلدكم كانتشار الغابات فيه، كم سيكون هذا الشعب مطيعاً إذا ما سمع مرة ثانية، بعد فترة صمت طويلة، فترة طويلة من الانتظار الممل، أصوات الرجال! ليته يسمع مرة أخرى بدل القرارات والأنظمة نبرة صوت القوة الداخلية والإيمان الراسخ؟ ليته يرى من جديد ولو مرة واحدة أفعالاً، ليس بطلب شديد التعطّف أو منفذه بتواضع جم، وإنما تشع براقة متكاملة من رأس مبدعها مثل إلاهة إغريقية؟

تذكروا هذا دائماً، ياأصدقائي، ولاتنسوا ما يتوق اليه الشعب ويتلهف! لا تنسوا أن الفعل والرجولة لايوجدان في الكتب أو الخطب العامة! إنهما يوجدان فوق قمم الجبال، والطريق المؤدية اليهما يمر بالمعاناة والعزلة، بمعاناة مقبولة بكل سرور، وعزلة طوعية.

وخلافاً للخطباء كلهم، أناديكم: لاداعي للعجلة! إنهم يهتفون بكم من كل حدب وصوب: «اركضوا! عجّلوا! قرروا الآن! العالم يتلظى ناراً! أرض الآباء في خطر» ولكن صدقوني: إن أرض الآباء لن تعاني إذا ما تأنّيتمُ إذا ماتركتم إرادتكم، مصيركم، فعلكم ينضج! إن العجلة، مثل الطاعة الفورية، هي واحدة من الفضائل الألمانية التي ليست بفضائل.

يا أولادي، لاتبالغوا في الشموخ برؤوسكم! لاتدفعوا زرادشت العجوز إلى الضحك!

هل من قبيل الفاجعة أن تكونوا قد ولدتم من زمنٍ عاصفٍ هادر وجديد؟ أليس هذا من قبيل حسن الحظ»

الرحيل

والان، ياأصدقائي، أستأذنكم بالرحيل. وأنتم تعلمون أنه عندما يستأذن زرادشت بمغادرة مستمعيه، فإنه لايطلب منهم أن يبقوا على وفائهم له، وأن يكونوا مريدين مخلصين.

يجب ألا تتعبدوا زرادشت. يجب ألا تحـاولوا أن تكونـوا زرادشـت. إن في كل منكم كياناً مستتراً مازال غارقاً في أعماق نوم الطفولـة. أخرجـوه الى الحيـاة !إن مستقبلكم لايكمن في هذا الشيء أو ذاك، إنه ليس المـال أو السـلطة، ليـس الحكمة أو النجاح في التجارة ـ وإن مستقبلكم، طريقكم الخطـرة، الصعبـة هـي مايلي: أن تنضجوا وأن تعثروا على الله فيكم. آه ياشبيبة ألمانيا. لاشيء يفـوق هذا صعوبة بالنسبة إليكم. لطالما فتشتم عن الله، لكنكم أبداً لم تفتشـوا عنـه في داخلكم. إنه ليس في أي مكان آخر. لاوجـود لأي إلـه آخـر غـير الله الـذي في دواخلكم.

إذا ما قُدِّر لي أن أعود ثانية، ياأصدقائي، فسوف أتحدث عن أمور أخرى، عن أمور أمتع وأبهج. عندئذ آمل في أن نجلس معاً ونمشي معاً كرجـال، جنبـاً إلى جنب ولكن كلاً منا قوي ومحقق ذاته، لايتكل على أي شيء آخر في العـالم غير نفسه والقدر الذي يفضل الأقوياء والجسورين.

والآن اذهبوا، عودوا الى شوارعكم بكل مافيها من خطباء، انسوا ماقاله للتو الغريب القادم من الجبال اليكم. إن زرادشت لم يكـن مـرة مرشـداً. كـان دائمـاً مهرجاً وجوالاً مزاجياً.

لاتدعوا أي متكلِّم أو معلِّم، كائناً من كـان، يأسـركم بأفكـاره. إن عنـد كـل واحد منكم فكرة واحدة فقط، فكرة خاصة به، ولايحتـاج إلا أن ينصـت اليهـا وحدها.

«ختاماً أقول مايلي: اصغوا الى تلك الفكرة، أصغوا الى الصوت المنبعـث مـن داخلكم، وعندما يصمت ذلك الصوت، اعلموا أن ثمـة خطبـاً، أن ثمـة عطبـاً، أنكم تسيرون على الدرب الخطأ».

ولكن إذا تكلمتْ فكرتُكُم - عندئـذ انطلقـوا، اتبعـوا كـل غواياتهـا. وحتـى أقصى وأبرد عزلة، وحتى أحلك ظلمات المصير!

رسالة إلى شاب ألماني

عام ١٩١٩

كتبتَ لي تقول إنك يائس ولاتدري، بماذا تؤمن، وفيم تأمل. لاتدري إن كان الله موجوداً أم لا، إن كان للحياة أي معنى، إن كان، وسط الوضع المزري للعالم، من الأفضل الصراع من أجل المتاع الروحي أم الاكتفاء بملء البطن.

أعتقد أن وضعك الفكري والروحي في حالة صحيحة، إن عدم معرفتك إن كان الله موجوداً، وما إذا كان هناك خير وشر، أفضل بكثير ومن أن تعرف معرفة أكيدة. وقبل خمس سنوات. إن كنت تذكر، أتصور أنك كنت مقتنعاً تماماً بأن الله موجود. وفوق ذلك كله لم تكن لديك أي شكوك حول معنى الخير والشر. وطبعاً فعلتَ ماحسبتَ أنه خير واشتركت في الحرب. ومنذ خمس سنوات وحتى الآن، وهي أفضل سنوات شبابك، وأنت تفعل ذلك «الخير»: أطلقت النار من بندقية، وتماديت إلى آخر مدى، تنقّلتَ بين الثكنات وحُفَرْ الوحل، دفنت الرفاق وضمّدتَ جراحهم. وشيئاً فشيئاً أخذت تشك في الخير، ترتاب في أن الخير والعمل المجيد الذي انخرطت فيهما كانا في الحقيقة شراً، أو على الأقل حماقة وعبثاً.

وهكذا كان. طبعاً الخير الذي كنت متأكداً تماماً منه في وقت من الأوقات لم يكن خيراً حقاً، الخير الصلب الخالد، وطبعاً الإله الذي كنت تعرفه في تلك الأيام لم يكن الله الحق. ومحتمل أنه كان إلهاً قومياً يخص المجالس الكنسية وشعراء الحرب، الإله المرعب دعائمه وأسسه مدافع وألوانه المفضلة الأسود والأبيض والأحمر. لقد كان إلهاً بدون أدنى شك، جبارا، عظيما، أعظم من أي يهوه، رُفِعَتْ اليه مئات الآلاف من الأضاحي الحربية الدموية، وعلى شَرَفِهِ بقرت مئات آلاف من البطون، ومُزِّقت مئات آلاف الرئات قطعا صغيرة؛

كـان أشـد تعطشـاً للدمـاء ووحشـية مـن أي معبـود. وفي الوطـن كـان الكهـان، لاهوتيونـا، خـلال تقديـم الأضحيـة الدمويـة يرتلـون تسـابيح الحمـد المجزيـة لأجله. لقد ضاع آخر أثر للدين كنا نحتفظ به، في أرواحنا الفقيرة، وفي كنائسنا الأشد فقراً والخالية من الروح. هل توقف أحد ليفكر ليتعجّـب مـن أنـه خـلال سنوات الحـرب الأربـع تلـك، دفـن لاهوتيونـا ديـانتهم، ديـانتهم المسـيحية؟ وأخذوا، هم المكرّسون لخدمة المحبة يُبشّرون بالحقد، وأخطأوا، هم المكرّسـون لخدمة البشر، فاستبدلوهم بالسلطات التي تدفـع لهـم. وأثبتـوا (ليـس الكـل طبعاً، بل الناطقون الرسميون) بنفـاق وبكثـير مـن الكـلام، أن الحـرب والديـن المسيحي منسجمان كل الانسجام، أنه يمكن للانسان أن يكون أصلح المسيحيين ومع ذلك يمارس القتل بشكل كامل، لكن هذا غير صحيح ولو لم تكن كنائسـنا الوطنية كنائس وطنية في خدمة العرش، والجيش، وإنمـا كنـائس الله، لكـانت منحتنا أثناء الحرب ماكان ينقصنا بصورة مريرة: ملاذاً للانسانية، خرقاً للروح اليتيمة، تذكيراً دائمـاً بـالاعتدال، والحكمـة، وبـالحب الأخـوي، باختصـار، ماكان يمكن أن تقدم لنا خدمات جُلّى.

أرجوك لاتسيء فهمي! إنني لاأضع اللوم على أحد. إنني أحاول أن أحكي لك ما كان، لا أن أوجه الاتهام. وهذا شـيء غـير اعتيـادي في بلدنـا.. إن كـل مانسمعه هو صرخات الاتهام والحقد. واليوم نحن الألمان نشبه أي شخص آخر تعلّم الفن المدمّر في وضع اللوم على الآخرين عندما نقع في ورطة. إنني أهـاجم، وأتهم هذا الموقف ولاشيء آخر. ونحن جميعاً متعادلون في الذنب وفي البراءة في حقيقة إن إيماننا كان من فرط الضعف وأن ألهتـنـا المعترف بـه رسميـاً شـديدي القسوة، بحيث عجزنا تماماً عن التمييز بين الحرب والسـلم، والخـير والشـر، ونحن جميعاً أنا وأنت، القيصر والكهنة، لعبنا دوراً في هذا لامبرّر لدينا لتبادل الاتهام.

إن كنا الآن نتساءل أيـن نبحـث عـن العـزاء، أيـن نفتـش عـن إلـه جديـد وأفضل، عن ايمان جديد وأفضل، فسوف تدرك حتماً، وأنت في غمرة وحشتك ويأسك الحاليين، أنك هذه المرة يجب ألا تتوقع التنوير مـن مصـادر خارجيـة. رسمية، أو الكتب المقدسة، أو المنابر الدينية أو العروش، ولا مني. يمكنك فقط

أن تفتش عنه في نفسك. وهناك ستجده، هناك يسكن الإله الأرقى، الأكثر إيثاراً من وطنيي إله عام ١٩١٤. إن الحكماء على مر الأزمان نادوا به لكنه لم يأت إلينا من بطون الكتب، إنه يعيش فينا، وكل ما نعرفه عنه لاقيمة له إلا إذا فتح عيوننا الداخلية. هذا الإله موجود فيك أيضاً. هو بشكل خاص، فيك أنت المغتم واليائس، وليس في الانسان الوضع المصاب بمرض العصر أو الذي أصبح لايؤمن بآلهة الماضي وأصنامه.

لكن ابحث أينما شئت، لايمكن لأي نبي أو معلِّم أن يخفِّف عنك حاجتك إلى البحث في داخلك. اليوم الشعب الألماني بأكمله، نحن كلنا، في وضع كوضعك. لقد انهار عالمنا، واتضعت كبرياؤنا، ونفدت أموالنا، ومات أصدقاؤنا وها نحن الآن جميعاً - أو تقريباً جميعنا - نمارس عاداتنا القديمة السقيمة في البحث عن النذل الذي يُلام على هذا كله. إننا نسمِّيه أميركا، ونسمِّيه كليمنصو[1] ونسميه القيصر فيلهلم أو يعلم الله ماذا أيضاً، ونحمل اتهاماتنا كلها ونأخذ بالدوران في حلقة مفرغة لاتوصلنا الى أي مكان. ومن السذاجة والحماقة أن نسأل إن كان هذا الطرف أو ذاك هو المذنب. إنني أقترح أن نسأل أنفسنا خلال ساعة واحدة قصيرة بدل ذلك: ونحن؟ أين نصيبنا من الذنب؟ متى تماديت في الصخب، والعجرفة والسذاجة، والتبجح؟ ماذا بي يمكن أن يكون قد ساعد على تشجيع الصحافة الغوغائية، ديانة يهوه الوطنية المنحطّة، وكل الأوهام التي تهاوت بفجاءة سريعة؟

إن الساعة التي نطرح فيها الأسئلة ليست ساعة ممتعة. إننا نشهد ضعفنا، وصِغَرنا، وفسادنا؛ إننا متصنِّعون، ولكن لسنا مسحوقين، ذلك لأننا نرى أيضاً أنه في هذا كله لاوجود للذنب، واللوم لايقع على القيصر ولا على كليمنصو، والدول الديموقراطية المنتصرة، والبرابرة المنهزمون ليسوا على حق. إن الذنب والبراءة هما تبسيطان ساذجان، وإدراكنا لهذه النقطة هو خطوتنا الأولى إلى داخل معبد الإله الجديد. وهو لن يبيِّن لنا كيف نمنع نشوب حروب في

---

[1] جورج أوجين بنجامان كليمنصو (١٨٤١ - ١٩٢٩): رجل دولة فرنسي، رئيس وزراء فرنسا مرتين، وأحد أطراف معاهدة فيرساي عام ١٩١٩ - المترجم

المستقبل أو كيف نغدو أثرياء. لكننا سنتعلم شيئاً واحداً: أن نكفّ عن أن نحيل مشاكل الحياة الحرجة، وأسئلتنا حول «الذنب» والضمير إلى يهوهٍ تجاوزه الزمن، أو إلى رقيب أول أو ناشر صحيفة، ونعمل على حلها بقلوبنا. علينا أن نصمّم على أن ننضج، أن نصبح رجالا. وعندما نتذكر فقداننا لأسطولنا، وآلياتنا، وأموالنا تبدو الأجيال القادمة كما يلي: تؤخذ ألعاب الطفل الجميلة منه، وبعد أن يبكي وينوح بعض الوقت، يتمالك الطفل نفسه. ويغدو رجلاً. هذا مايجب أن نفعله ولا سبيل آخر. وعلى كل منا أن يتخذ الخطوة الأولة بنفسه، داخل قلبه هو.

بما أنك تكرّس نفسك لنيتشه، أعد قراءة الصفحات الأخيرة من كتابه «تأمُّل في غير أوانه» حول مزايا ومساوىء دراسة التاريخ. إقرأ بتأن الفقرة التي تدور حول الجيل الشاب المقدَّر له أن يدمِّر ثقافة زائفة تتهاوى وأن يبدأ من جديد! ما أشقَّ قدَر هذا الجيل. وماأمَّره، وما أعظمه وأقدسه! أنتم جيل شاب رائع ياشباب اليوم في هذه الألمانيا المنهزمة! على أكتافكم يجثم هذا العبء وعلى قلوبكم ترزح هذه المهمة.

ولكن لاتبقوا حبيسي نيتشه، أو أي نبي أو مرشد. إن مهمتنا ليست أن نرشدكم أو أن نسهل الأمور عليكم أو أن ننير لكم السبيل. إن مهمتنا الوحيدة هي أن نذكركم أن هناك إله واحد أحد، يسكن قلوبكم، وهناك عليكم أن تفتشوا عنه وتتحدثوا معه.

لاتقتل

عام ١٩١٩

إن ترويض الإنسان، تطوّره من الغوريلا إلى كائن متمدّن، هو عملية بطيئة وطويلة، والخطوات المُنجزة التي تجسَّدت حتى الآن على شكل قوانين وعادات، هشة القوام، ومابدا مراراً وتكراراً انجازات نهائية أبطلَها نهشُ أسنان رجعي. وإذا رأينا هدفنا المؤقت في تنفيذ الأوامر الروحية التي يُصدرها قادة البشر الروحيون بدءاً بزرادشت ولاو - تزو ومن جاء بعدهما، فنحن مضطرون الى أن نقول أن بشر هذه الأيام اقرب أكثر بكثير إلى الغوريلا منهم إلى الانسان. إننا لم نصبح بعد بشراً، وإنما نحن في طريقنا إلى البشرية.

قبل بضعة آلاف من السنين ورَّثنا ناموس ديني لشعب راق حكمة أساسية: لاتقتل وفي ربيع عام ١٩١٩، في خطاب ألقاه في تجمُّع عالمي صغير للمثاليين في مدينة برن، طالبَ البارون فرانغل بأن لايُجبَر أي إنسان في المستقبل على قتل أي انسان آخر - "حتى ولا خدمةً لوطنه". وقد اعتبرت هذه خطوة ذات مغزى إلى الامام. إلى ذاك الحد وصلنا. إن بضعة آلاف من السنين بعد موسى شكّلت إحدى الوصايا العشر فوق جبل سيناء، وقد أُعيد إقرارها بحذر شديد وبقيود على يد مجموعة صغيرة من أصحاب النوايا الطيبة. لم يحدث أن جسَّدها أي شعب بدون أن يضع قيوداً في دستوره المطبَّق. ومازال الناس في كل مكان يتاقتلون بخوف أبسط وأرسخ القواعد قاطبة هذه. وكل دارس للاو - تزو، كل مريدٍ ليسوع، كل تابع لفرنسيس الأسيزي كان يتقدم بقرن على قانون وعقل عالم اليوم المتحضر.

يبدو أن هذا العالم لايعترف بقيمة هذه الأوامر الرفيعة ويتبيَّن بصفاء وبساطة أن الانسان عاجز عن الارتقاء. ويمكن إيراد مئة مثال آخر دعماً

للجدال نفسه. وفي الواقع، إن تجربتنا الكئيبة لاتنتقص من قيمة مثل تلك الأوامر والاستبصارات الخيِّرة. لقد ظلت الحكمة الأساسية «لاتقتل» تُحْتَرَمْ وتطبّق باخلاص على امتداد آلاف السنين. وبعد العهد القديم جاء العهد الجديد، أصبحَ المسيح ممكناً. وتحرير اليهود الجزئي ممكناً، وأنتجت البشرية غوتة. وموتسارت، ودوستويفسكي، وفي كل العصور كانت هناك أقلية من الرجال ذوي النيات الطيبة، الذين يؤمنون بالمستقبل ويرضخون لنواميس غير مدونة في أي دستور شرعي دنيوي. أثناء هذه الحرب المرعبة تصرَّف آلاف من الناس وفقاً لنواميس أرقى غير مدوَّنة. وعامل جنود الأعداء برحمة واحترام، في حين عانى آخرون السجن والتعذيب لأنهم رفضوا بإخلاص أداء واجب القتل والكراهية.

تقديراً لهؤلاء الرجال والمآثر حق التقدير، وللتغلب على ارتيابنا في ارتقاء الانسان من الحيوان إلى الكائن البشري، يجب أن نكون مؤمنين، يجب أن نتتعلم أن نرفع من شأن الأفكار كما نفعل مع الرصاص أو مع الحلي الذهبية، أن نحب الامكانات ونرعاها في أنفسنا، يجب أن نكتسب صلات حميمة مع المستقبل ومع المستقبل المكنوز في قلوبنا.

إن الانسان «العلمي» الذي يكون دائماً على حق في اجتماعات اللجنة، هو دائماً على خطأ خارج لجانه، والمثل العليا والايمان دائماً على حق في المستقبل. إنها المنبع الوحيد الذي يستمدُّ العالم منه القوة. وكل مَنْ يتخلَّص من الأفكار الخيِّرة باعتبارها كلاماً فارغاً وفكراً مشوشاً أو من الكفاح من أجل المستقبل بوصفه مجرد أدب، هو مازال غوريلا وأمامه طريق طويلة عليه أن يمشيها قبل أن يصبح انساناً.

إليك مثالاً جيداً سوف يستحسنه حتى رجالنا «العمليون»: في ذكرياته الكُلونيالية يحكي كارل بيترز كيف أنه أمر ذات مرة بعض الأفارقة الأصليين أن يزرعوا نخيل جوز الهند. فرفض السكان الأصليون أن يقوموا بأي عمل شديد الارهاق والحماقة كهذا. فشرح لهم بيترز أنه في غضون ثمانية أعوام أو عشرة سوف تصبح الأشجار التي تزرع اليوم كاملة النمو وستعوِّضهم عن تعبهم عشرة أضعاف. وقد كان السكان الأصليون يدركون ذلك جيداً، ولاينقصهم

الذكاء، غير أن ما اعتبروه محض جنون أن يُرهق الانسانُ أصابعه وعظامه في عمل لن يؤتي ثماره إلا بعد مرور عشرة أعوام. إن الرجال البيض لديهم أفكار سخيفة جداً!

إننا نحن رجال الروح، الشعراء، الراؤون، الحمقى والحالمون، نحن الذين نزرع الأشجار من أجل المستقبل. الكثير من أشجارنا لن يعيش، والعديد من بذورنا لن يخصب، والكثير من أحلامنا سوف يتضح أنه أخطاء وأضاليل، وآمال كاذبة. فأين الضرر في ذلك؟

ولكن لافائدة من محاولتنا أن نجعل من الشعراء رجالاً عمليين، ومن المؤمنين محاسبين، ومن الحالمين منظمين نقابيين. وأثناء الحرب حُوِّل الفنانون والكتّاب، والمفكرون الى جنودٍ وعمال في المزارع. والآن تُبذَل الجهود «لتسييسهم» وتحويلهم الى أدوات للتغيير المادي. وهذا أشبه بمحاولة ضرب مسمار بمقياس الضغط الجوي. ذلك لأن الأحوال في هذه الأيام صعبة، ويُعتقد أن كل الطاقات يجب أن توجَّه نحو تلبية حاجاتنا اليومية. وكل إرادة يجب أن تسخَّر للعمل الآني.

ولكن على الرغم من أن صرخات الحاجة تصل حتى السماء السابعة، إلا أن الضجة والجلبة لافائدة منهما، لن يُسرع العالم في تقدُّمه إذا حوَّلنا الشعراء الى خطباء محرِّضين والفلاسفة إلى وزراء في الحكومة. إنه سيتقدم أينما وُجِدَ رجالٌ يقومون بالعمل الذي خُلقوا للقيام به، ماتطالبهم فطرتهم بعمله. ومايقومون به بالتالي طواعيةً وعلى أكمل وجه. وحتى إذا كان الرجال العمليون يعتبرون مثل هذه الأشياء ترفاً، فإن الاهتمام بالمستقبل، والايمان بالانسان كما سيصبح ذات يوم، واللهو بتأن بالامكانات البعيدة ستظل دائماً ذات أهمية لاتقلُّ عن أهمية التنظيم السياسي، وبناء المنازل، وخبز الخبز.

وسوف لن نكف نحن المؤمنون بالمستقبل أبداً عن الاهتمام بالوصية القديمة: «لا تقتل». وحتى لو حرَّمتْ كافة الدساتير القانونية في العالم ذات يوم القتل (بما فيه القتل خلال الحرب والقتل على أيدي الجلادين)، لن يفقد هذا الأمر قوة حجَّته. إنه أساس كل تقدُّم، وكل التطور الانساني. كم نفْرطْ في القتل! ليس فقط خلال معاركنا البلهاء وحرب الشوارع البلهاء لثورتنا، واعداماتنا

البلهاء، كلا، وإنما نقتل مع كل خطوة نخطوها. نقتل عندما تجبرنا الظروف على سوق شبان موهوبين للانخراط في أعمال ليسوا مؤهَّلين لها. نقتل عندما نغمض عيوننا أمام الفقر، والبؤس والمجاعة، ونقتل لأننا، وهذا أسهل، نؤيد أو حتى ندّعي بأننا نحبِّذ وجود مؤسسات دينية، وثقافية، وسياسية، واجتماعية هزيلة، بدل أن نحاربها بحزم. وكما يُعتبر الاشتراكيُ المخلصُ أن الملكيةَ هي سرقة، كذلك يعتبر المخلصون لولائنا كلَّ احتقار للحياة الانسانية، كل قسوة ولا مبالاة معادل للقتل. وليس فقط الاشياء الحاضرة يمكن قتلها، وإنما أيضاً أشياء كامنة في المستقبل. إذ يمكن قتل جزء كبير من مستقبل شاب بقليل من الريبة المحرقة. إن الحياة تنتظر في كل مكان، وفي كل مكان يحبل المستقبل بالوعود، ونحن لانرى إلا القليل، وندق الأرض بخطواتنا القوية كثيراً، ومع كل خطوة نرتكب جريمة قتل.

ليس أمامنا نحن جميعاً إلا مهمة واحدة نؤديها احتراماً للجنس البشري، وهي أن نساعد الجنس البشري برمّته على إحراز قدر ضئيل من التقدّم، أن نحسِّن مؤسسة معينة، أن نتخلص من نمطٍ معيَّن من القتل. وكل هذه الاعمال جديرة بالثناء، لكنها ليست من مهامي أو مهامك. إن مهمتنا كبشر هي مايلي: علينا، خلال حياتنا الشخصية الفريدة، أن نخطو خطوة قصيرة على الدرب المؤدي من الحيوان إلى الانسان.

أفكار حول الصين

عام ١٩٢١

إن أنظار العالم مثبتة بأمل متلهف الى المؤتمر المعقود الآن في واشنطن بهدف منع نشوب حرب بين الولايات المتحدة واليابان والحدّ من التسلح البحري للقوى العظمى. وقد نجح عمله جزئياً، أُنجزَ شيءٌ ما. لن تنشب الحرب بين اليابان والولايات المتحدة في المستقبل المنظور، وسوف يُقْتَصَدْ في المال والجهد المبذولية على البوارج الحربية.

ثمة جانب آخر من المناقشات الدائرة في واشنطن لم يولها العالم كبير انتباه. لقد حققت القوى العظمى والقوية قدراً لابأس به من الاتفاق. ولكن لم ينتبه أحد إلى دولة ضعيفة كانت أيضاً حاضرة، إنني أتحدث عن الصين. الصين أعتق قوى العالم المتواجدة، المترامية الأطراف والعريقة، لم تختر طريق التطابق مع العالم الغربي الذي تسير عليه اليابان بدون توقف منذ عدة عقود من الزمن. لقد أضحت الصين ضعيفة جداً. وفي الواقع لم تعد قوة مستقلة وأصبحت القوى العظمى تنظر اليها بوصفها مجرد «منطقة نفوذ» يجب تقاسمها فيما بينها.

قبل سنين عديدة تحدَث متعصّبٌ صيني لأفكار بلده القديمه والجليله عن هذه التطورات لا من ناحية مضمونها السياسي وإنما من ناحية قربها من روح تاو ته تشينغ. قال تقريباً مايلي: دعوا اليابانيين أو بقية الدول يتغلبون علينا، وليأخذوا ممتلكات بلدنا ويحكموننا، فليفعلوا! سوف نظهر أننا الضعفاء وأنه في الامكان قُهرنا والتهامُنا. فليكن، إذا كان هذا قدرُ الصين! ولكن بعد أن يلتهمنا الآخرون سوف ننظر ونرى إن كان في وسعهم أن يهضمونا. وقد تصبح حكومتنا وجيشنا وإدارتنا وموارد‌نا المالية [illegible] ولكن

سوف يتّضح أن المنتصرين عاجزون عن تغيير الصين، وأنهم على العكس سوف تقهرهم روح الصين وتغيّرهم. ذلك لأن الصين ضعيفة في فن الحرب وفي التنظيم السياسي ولكنها غنية بالحياة، غنية بالروح، غنية بالحضارة العريقة.

لقد تذكرتُ ذلك الصيني الظريف عندما قرأتُ آخر التقارير الواردة من واشنطن وقلت في نفسي. حتى في الوقت الحاضر بينما الصين تكمل انحدارها كقوةٍ عالمية، وإنْ لم تقهَر بعد، فإنها قد غزتْ الجزءَ الأكبرَ من الغرب! وخلال العشرين سنة المنصرمة كانت الحضارة الصينية العتيقة، والتي كانت في السابق معروفة فقط بين حفنة صغيرة من الدارسين، قد بدأت تغزونا عبر ترجمات كتبها العريقة، وعبر تأثير فكرها العريق. وخلال السنوات العشر الأخيرة أصبح لاو تزو[1] معروفاً عبر الترجمات الى كل اللغات الحيّة وحقق تأثيراً هائلاً في كل أرجاء أوروبا. في السابق، وحتى قبل عشرين عاماً عندما كنا نتكلم عن «حضارة الشرق» كنا نفكر حصراً بالهند، بالفيداس[2]، وبوذا، والباغافاد - غيتا[3] أما الآن، فعندما نتكلم عن حضارة شرق آسيا، فإننا نشير أيضاً أو ربما أكثر من غيرها الى الصين، أو الفن الصيني، أو لاو تزو، أو تشوانغ - تزو، أو لي بو[4] وقد اتضح أن فكر الصين القديمة، بالنسبة الينا نحن الأوروبيون خاصة المذهب الطاوي المبكر، أبعد مايكون عن مجرد الفضول المجلوب، ويزوّد فكرنا بالتأييد الهام، وبالمشورة والعون القيّمين. وهذا لايعني أننا نستطيع أن نكتسب من كتب الحكمة العريقة هذه نظرة جديدة ومخلّصة الى الحياة، لايعني أن علينا أن ننبذ ثقافاتنا الغربية ونصبح صينيين! ولكن في الصين القديمة وخاصة في عصر لاو تزو نجد ما يذكرنا بنمط من التفكير أهملناه، إدراك للطاقات ورعايتها كان إهمالنا لها قد طال أمده، بسبب انشغالنا بأمور أخرى.

---

(1) لاو – تزو: فيلسوف صيني. مؤسس الفلسفة الطاوية.

(2) الفيداس: الكتاب الذي يضم الكتابات المقدسة الهندوسية.

(3) الباغافاد – غيتا: الكتاب المقدس للهندوس.

(4) لي بو: شاعر صيني. شاعر الخمر والطبيعة والمرأة. رائع التصوير.

إنـني أتوجـه الى الزاويـة الصينيـة مـن مكتبـتي - يالهـا مـن زاويـة هادئـة مفرحة! أي حكمة في تلك الكتب العتيقة وكـم باسـتطاعتها أن تكـون معـاصرة بشكل مذهل! كم من مرة خلال سنوات الحرب الرهيبة منحتني أفكاراً واسـت معنوياتي وأحّيتها!

ألتقطُ دفتري الذي دوَّنتُ فيه مقتطفاتٍ وأقرأ رسالةً من يانغ تشو.

يقول هذا الفيلسوف الصيني، الذي لعله معاصر للاو - تزو وسابقٌ لبوذا، إن موقف الانسان من الحياة يجب أن يكون كموقف السيد من خادمـه، ثـم يتبـع ذلك حكمة تدور حول التبعيّات الأربع:

«إن أغلب الناس يعتمدون على أربعة أشياء يرغبون فيها رغبة عارمة طـول الحياة، الشهرة، اللقب والمنصب؛ والمال والممتلكات».

«إن رغبتهم المتواصلة في هذه الأشـياء الأربعـة هـي الـتي تجعلهـم يخـافون الشياطين ويخاف أحدهم الآخر، وتجعلهم يخافون الله ويخافون العقاب. وكـل دولة تُبنى على هذا الخوف والاتكال المضاعَفْ أربع مرات».

«الذين يكونون عُرضـة لهـذه الاتكـالات الأربعـة يعيشـون كالمجـانين. قـد يُذبَحون أو قد يُسمح لهم بالحياة؛ وفي كلا الحالتين يأتي مصير هؤلاء القوم من داخلهم».

«غير أن الانسان الذي يحب مصيره، ويعرف انه متحِّد معه - لايأبـه أبـداً لطول الحياة، أو الشهرة، أو المنصب أو الثروة!»

«إن مثل هؤلاء يحملون السلام في داخلهم. لاشيء في العالم كله يستطيع أن يهدِّدهم، لاشـيء يمكـن أن يعـاديهم. إنهـم يحملـون مصيرهم داخـل ذواتهـم الخاصة!»

* * *

الأزمة العالمية والكتب

جواب على استفتاء

عام ١٩٣٧

طبعاً هناك عدد كبير من الكتب الجميلة والجيدة التي أحب أن أراها تُقـرَأ على نطاق واسع. لكن الكتب التي يمكن أن نتوقـع أن تتوجـه الى عـالم أفضـل والى مستقبل أكثر سعادة فمعدومة. وأخشى أن أزمنتنـا الحـاضرة، وإنْ لم تكـن تمثل نهاية حضارتنا، تشـبه كثيراً هـذا الوضـع، فالكثـير مـن الكتـب سـوف يختفي الى الأبد، بالاضافة إلى أشياء أخـرى جميلـة وعديـدة جـداً نحبهـا. إن الأفكار التي كنا بالأمس نجلها، مازالت حفنـة قليلـة مـن الروحـانيين تقدّرهـا وتحاول أن تحيا على نبراسها، سوف يُحَـطّ تمامـاً من قدرها غـداً وتنسـى - وحده الجوهر الخالد سيظل يعمل عمـل الخمـيرة لأي حيـاة جديـدة. ومـادام هناك بشر، فلن يضيع ذاك الجوهر، إنه الشيء الوحيد «الأبدي» الـذي يملكـه الانسان.

إن هذا الشيء الأسمى الذي تملكـه البشرية قـد تـرك أثـره في العديـد مـن الأشـكال واللغـات: إن الكتـاب المقدس والكتـب المقدسـة للصـين القديمـة، والفيدانتا الهندي وكتباً أخرى مختلفة ومتنوعة هـي تجسـيدات لمـدى قلـة مـا اكتسبه الانسان من معرفة حقة حتى أيامنا هذه. إن هذه التجسـيدات لاتخلـو من إبهام، هذه الكتب ليست خالدة، لكنها تحتوي الإرث الروحـي لتاريخنـا. الأدب الآخـر كلـه شـعٌ منهـا ومـا كـان ليوجـد بدونهـا: فمثـلاً كـامل الأدب المسيحي مروراً بدانتي وحتى أيامنا هذه منبثق من العهد الجديد، فإذا ما ضـاع هذا الأدب برمّته ولم يبق غير العهد الجديد، لانبثقـت آدابٌ مشـابهة منـه في

أي وقت. وحدها «الكتب المقدسة» القليلة للجنس البشري تمتلك هذه القوة المولِّدة، هي وحدها ستبقى على مر العصور والأزمات. والشيء المواسي الوحيد في هذا المجال هو أن انتشارها ليس بالأمر الهام. فلا حاجة الى أن يمتلك الملايين من هذا الكتاب المقدس أو ذاك، أو بالأحرى يمتلكهم: عدد قليل يكفي.

* * *

صفحة من مفكرة

عام ١٩٤٠

يقول جوليان غرين في يومياته إنه لا يتمتع بأي موهبة في مجال الإلحاد، ويبدو له أنه لم يشك مرة واحدة طوال حياته في وجود الله. من بين كل الاعترافات التي أدلى بها في تلك اليوميات الثرية ثراءً خارقاً، هذا، في اعتقادي، هو الأهم.

بعض قراء جوليان غرين أثارت سخطهم مجاهرته بايمانه المطلق بالله ورأوا أن ما جاء في رواياته يناقض ذلك. هؤلاء القراء يجدون الروايات جميلة بطريقة غامضة، أو على الأقل مثيرةً للاهتمام، لكنهم، في الاجمال يعتبرونها «سلبية» أي مخرِّبة، وانهزامية وشكوكيّة ومرضيّة، لأن المؤلف كثيراً ما يبدو أنه يمزق الواقع تمزيقاً، ويشكُّ تقريباً في كل شيء. ليس فقط في العقائد بل في حقيقة الخوارق بشكل عام.

إنني لا أرى أي تناقض. على العكس. إن غرين يؤمن بالله، بالنسبة إليه الله هو جوهر، والواقع كذلك. والعالم الذي يعيش فيه المؤمن، العالم اليومِي المادي من حوله، هو ما يفصله عن الله. إنه يُحولُ بينه وبين الله كما تَحوُلُ غرفة أو منزل بيننا وبين الهواء والسماء. ولهذا لاشيء يثير اهتمامه في هذا العالم أو يفتنه، كما تفتنه الشقوق أو العيوب التي يعثر عليها في الواقع. إنه يندفع الى هذه الشقوق، لأن العين من خلالها تبلغ مرأى الله. وعندما نرى غرين يحفر داخل شقوق العالم وعيوبه فإن ما يفتنه ليس الشقوق، والعيوب، والاهتداء، وإنما ما يقع خلفها: الله.

مقطع من رسالة

أبعث إليك بالمسودة الأخيرة لقصيدة جديدة. فيما عدا العمل اليومي الروتيني الصرف، كل ما فعلته خلال الأسابيع القليلة الأخيرة هو صياغة هذه القصيدة. وقد مرّت بثماني مراحل أو تسع وسيطة، والآن سأجعلها تصمد. أمر غريب: في وقتٍ يتهيأ نصفُ العالم في الخنادق والغرف المحصنة تحت الأرض، في أحواض بناء السفن والمصانع، لتحويل العالم إلى غبار وشظايا، قضيت أنا تلك الأيام كلها أحاول أن أحسّن قصيدتي الصغيرة.

دعني أحكي لك حكايتها: في أول الأمر كان للقصيدة أربعة مقاطع، الآن لم تعد تتألف إلا من ثلاثة أرجو أن يجعلها هذا أبسط وأفضل وألا يكون كل شيء قد ضاع. البيت الأول من المقطع الأول عذّبني من البداية، كان جلياً أنه بديلٌ مؤقت. نسختُ القصيدة مرات عدة لأوزّعها على الأصدقاء وفي كل مرة لم أكن راضياً، في كل مرة كان البيت يبدو أشد سخفاً وقاتلاً للقصيدة وأقرب الى الحشو. وأخيراً كان هناك بين الأصدقاء الذين قرأوا القصيدة، واحد يتمتع بأذنين شديدتي الحساسية ولم تعجبه، وقد عبّر لي عن ذلك كتابةً. ووافقته، ثم أخذتُ أتفحّص القصيدة جدياً بيتاً بيتاً كلمة كلمة بحثاً عمّا هو زائد وما هو ضروري.

قد يسأل سائل: ما نفع مثل هذا الجهد المبذول؟ إن تسعة أعشار قُرائي، كلا، أكثر من تسعة أعشار بكثير، حتى لم يلاحظوا الفرق بين نسخة وأخرى، على الرغم من أن أحدهم كان بين حين وآخر مُحقّاً بشكل مذهل في ردةِ فعله. ولم أنس على الرغم من مرور ثلاثين سنة على ذلك. كيف طلب أحد القراء مني نسخة من قصيدة قصيرة. كان قد قرأها في صحيفة لم يتذكّر أيُّها، لكنه مع ذلك كان يحفظ القصيدة المؤلّفة من ثمانية أبيات غيباً - كلها ماعدا بيتاً واحداً، أفلت من ذاكرته. نظرتُ في المخطوط، فوجدتُ أن البيت المنسي هو أضعفها. وبينَتْ لي علامةُ استفهامٍ كنتُ قد رسمتُها على الهامش أني كنت قد أبديت شكي في أمره وقت كتابته.

لكن مهما يكن، إن غالبية قرائي لن تُحبِّذ المشقّة التي أتكبّدها في المراجعة، أو حتى تلاحظها، وبغض النظر عما إذا كانت القصيدة جيدة أو

رديئة، فإن المجلة التي نشرَتْها سوف تدفع لي حفنة الفرانكات القليلة المعتادة، وهو مبلغ بالكاد يعادل أجر يوم لعامل ماهر، لذا سوف يرى العالم في محاولتي تحسين قصيدتي هذه لعبة سخيفة، ومثيرة للسخرية بل وحتى مجنونة، ويسأل سائل لماذا يهدر الشاعر كل هذا الوقت والجهد على بضعة أبيات من الشعر؟

يمكن أن يكون الجواب كما يلي: طبعاً يمكن لجهد الشاعر أن يضيع هباءً إذ كيف يمكن أن يكون قد كتب واحدة من تلك القصائد النادرة التي تبقى بعد غياب مؤلفها وعصره؟ ومع ذلك، فهذا الرجل الذي لايطالب بأن يُؤخذ بجدية كبيرة، قد قام بما هو أفضل وأمتع، وأقل أذى مما يفعله أغلب الناس اليوم. صحيح أن هذا الشخص الأحمق قد تلاعب ببعض الكلمات وكتب قصيدة، إلا أنه لم يُطلق ناراً من مسدس ولاألقى قنبلةً ولا أطلق غازاً ساماً ولاصنع ذخيرة ولاأغرق سفناً.

وهناك جواب آخر محتمل: إن الشاعر، بانتقائه الكلمات وتدوينها في عالم يمكن أن يُدمَّر غداً، إنما يفعل تماماً ماتفعله شقائق النعمان وزهرة الربيع وبقية الأزهار التي تطلع في مروجنا. لعل المرج ستمزِّقه نارُ القذائف غداً أو يخنقه الغاز السام، أو سيشقُّ الجنودُ فيه خنادقَ ويشدُّون عليه أسلاكاً شائكة. لكن الأزهار لاتسمح لمثل هذه الاحتمالات - والتي هي أكثر احتمالاً بالنسبة الى الكثير من مروجنا - أن تُعيق نموها. إنها ستنبت بمشقّة أوراقاً وتشكِّل كؤوسها كما ينبغي بأربع بتلات ملساء أو مفرّضة أو خمس، بدقّتها المعهودة. هذا الجواب محتمل، ولكن لا أحد غير الشاعر نفسه يطرح مثل هذا السؤال.

* * *

خاتمة يوميات - ريجي[1]

آب عام ١٩٤٥

بين حين وآخر يجلب البريد مفاجئة ثمينة. بالأمس وصلت واحدة: حزمة رسائل من ألمانيا! كان أحدهم قد قَدِمَ من شتوتغارت إلى سويسرا وأحضر معه رسائل لي من بعض الأصدقاء السوابيين. وقد بعث بها إليّ وتبرَّعَ بحمل الجوابِ في طريق عودته، ولم تكن رسائل اعتباطية آتية من غرباء وإنما تعبِّر عن رغباتٍ متلهفة للاتصال من أصدقاء. لاشيء جديد فيها حول المسائل التي تثير عندي أشد القلق في ألمانيا، لكنني وجدت فيها وللمرة الأولى مجموعة من المثقفين الألمان البارزين حدّثوني عن تجاربهم، وأفكارهم منذ حدوث الانهيار. وقد فهمتُ منها ضمناً أنه لا أحد منهم كان مناصراً أو مستفيداً من حركة الاشتراكية الوطنية[2] لقد كانوا متنبهين للخطر منذ البداية وشهدوا تعاظم قوة هتلر برعبٍ عميق. ومنهم كثيراً أثبتوا أنفسهم بالمعاناة وقدّموا تضحيات كبيرة، وفقدوا مناصبهم وأسباب رزقهم وكابدوا عذاب السجن. وظلوا طوال سنين عديدة يراقبون، ببصيرة جليّة وعجز، صعود، نجم الشر وتضخم أعمال الشر الى حد الفظاعة. ومنذ مستهل الحرب وهم يأملون بقلوب تدمى في اندحار شعبهم وكثيراً ما تمنوا الموت. إن قصة هذا القطاع من الشعب الألماني لم تُدوَّن بعد، وقلائلُ خارج ألمانيا يعلمون حتى بوجوده. وقد كان بعض من راسلوني في السابق ليبراليين، أو من ديموقراطيي ألمانيا الجنوبيين، وآخرون كانوا من الكاثوليك، وعدد كبير كانوا من الاشتراكيين.

---

[1] ريجي: أحد جبال سلسلة الألب ويقع في سويسرا.

[2] أو الحزب النازي بزعامة هتلر.

هؤلاء المثقفون الذين، في اعتقادي، جعلت المعاناة منهم أنضج وأحكم شعوب أوروبا اليوم، حاولوا، البعض منهم عن وعي وعمد، والبعض الآخر بلا وعي وغريزياً، أن ينفصلوا عن كل ما يربطهم بالاشتراكية الوطنية.. ووسط بؤسهم الذي يعصى على الوصف يتّصف الفرنسيونَ أو الايطاليون المتقاتلون، الهولنديون أو اليونانيون الجياع والمعانون، والبولونيون الذين حوكموا محاكمة عنيفة، وحتى اليهود الذين شاهدوا رفاقهم يعذبون ويُقتلون بمئات الآلاف - هذه الشعوب كلها كانت تتّصفُ بميزةٍ واحدة. التضامن، وحدة المصير، رفقة السلاح، الولاء لأمتها. وكان هذا محرّماً على المناوئين لهتلر وضحاياه داخل ألمانيا، باستثناء أولئك المنتسبين إلى الحزب قبل عام ١٩٣٣، وتقريباً كل من قُتل أو ابتلعته جهنم السجون ومعسكرات الاعتقال. لم تبق إلا الغالبية غير المنتسبة من العاقلين وذوي النيات الطيبة، فهؤلاء كانوا يتعرضون لمضايقات متزايدة على أيدي الجواسيس والمخبرين وعاشوا في جو مسموم بالأكاذيب ومحاطين بأناس مُبتَلين بسُعر خبيث، وبالنسبة اليهم مبهم، وأعتقد أن أغلب الذين نجوا من كابوس السنواتِ الاثني عشرة تحطموا ولم يعودوا قادرين على المشاركة العملية في إعادة بناء ألمانيا. لكنني أيضاً أؤمن بأن في استطاعتهم أن يساهموا مساهمة ضخمة في إيقاظ شعوبهم روحياً وأخلاقياً، والتي لم تكن حتى الآن قد فتحت عقولها على ما حدث أو على نصيبها من المسؤولية. وفي تناقض صارخ لضجر الناس عامة الفاتر، اكتسب ضمير أولئك الذين لم يفقدوا قط وعيهم حساسيةَ جرحٍ مفتوحٍ حادة، مثل هؤلاء الرجال على استعداد لمناقشة مسألة الشعور الوطنيٍ بالذنب.

إن كل مراسلات أولئك الألمان الصالحين حقاً يضمُّها قاسمٌ مشترك واحد، ردة فعل حادة حيال نبرة العظات الأخلاقية التي تلقيها الآن، وبعد فوات الأوان، الشعوب الديموقراطية على مسامع الألمان. وقد وُزِّع بعضٌ من هذه المقالات والكتيبات، بطبعات مختصرة بشكل فعال، ومن بينها مقال س. ج يونغ «الشعور الجمعي بالذنب» في ألمانيا من قِبَل السلطات المحتلة. والقطاع الوحيد من الشعب الألماني الذي يرغب في قراءة مثل هذه التصريحات اليوم أبدى تأثُّراً مرعباً بها. ولاشك في أن العظات هي

غالباً على حق تماماً. لسوء الحظ أنها لاتصل الى الشعب الألماني وإنما فقط إلى القطاع الأفضل والأرفع مقاماً منه، صاحب الضمير اليقظ يقظة تامة منذ زمن بعيد.

لا أستطيع أن أدافع عن هذه المقالات التي أسميها عظات لصالح أصدقائي السوابيين. ولن أحاول أن أفعل. وعموماً ليس لدي ما أقوله لهؤلاء الأصدقاء. ماذا يمكن لرجل يعيش في منزل لم يُدَمَّر ويتناول وجباته اليومية، ونال نصيبه من الاضطراب والقلق خلال السنوات العشر الأخيرة لكنه لم يتلق حتى أي تهديد بممارسة العنف هذه، أن يقول لشعب ذاق صنوف المعاناة كافة؟ ومع ذلك تبقى هناك نقطة أشعر أن في إمكاني أن أنصح بها أصدقائي خارج البلاد. لعلهم يتفوقون على في كل شيء، آخر، ولكن ثمة أمراً واحداً تتجاوز فيه تجربتي تجربتهم بمراحل. لقد انفصلتُ تمام الانفصال عن النزعة القومية، كل نزعة قومية منذ زمن بعيد، ليس في ظل حكم هتلر وليس تحت تأثير غارات الحلفاء الجوية، بل من عام ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ومنذ ذلك الحين تحققتُ من معارضتي للنزعة القومية وعزّزتُها مرات متكررة. نتيجة لذلك سوف أتمكن من أن أكتب مايلي لأصدقائي في منطقة سوابيا: «إن الشيء الوحيد في رسائلكم الذي لاأفهمه تماماً هو سخطكم على مقالات بعينها تحاول أن تنير شعبكم فيما يخص ما اقترفه من ذنب. إنه يحدوني إلى أن أصرخ فيكم: لاتصادروا الخير القليل الذي قدمه إليكم الانهيار!» في عام ١٩١٨ حصلتم على نظام جمهوري بديلاً عن الحكم الملكي الاستبدادي واليوم، وسط البؤس السائد، تتاح لكم فرصة أخرى، فرصة للمشاركة في فصل جديد من مسيرة الإنسان نحو الإنسانية. وفي هذا لديكم ميزة تتفوقون بها على المنتصرين والمحايدين: قدرتكم على إدراك جنون النزعة القومية؛ ولطالما كرهتموها في أعماق قلوبكم، وأنتم في موقع يخوِّلكم أن تتحرروا منها. وقد فعلتم ذلك لتوكم إلى حد بعيد، ولكن ليس جذرياً. إذ عندما ستكملون هذه المسيرة داخل أنفسكم، سيكون لديكم أشياء مختلفة كل الاختلاف تقولونها عن الشعب الألماني والشعور الجمعي بالذنب، سوف يكون في مقدوركم أن تقرأوا أو تنصتوا إلى أي تصريح يهين أمة بأكملها أو يستفزُّها بدون أن ينتابكم أي شعور بأنكم

أنتم أيضاً قد أُهِنْتُم واستُفزِزْتُم. وأنتم، أنتم أيها القلة، سوف تكونـون متفوقين بقيمتكم الانسانية على شعبكم وعلى أي شعب آخر، سوف تقتربون أكثر من «الطاو»[1].

[1] الطاو: في الفلسفة الطاوية. أساس كل سلوك قويم. السبيل الأمثل في الحياة المؤدي الى الحقيقة المطلقة.

خطاب بعد منتصف الليل

١٩٤٦

أصدقائي الأعزاء:

ها قد هلّ علينا عام جديد بوعوده المجهولة وأخطاره، وعلى الرغم من أن هذه الساعة من منتصف الليل لاتعني أكثر من أي ساعة أخرى في حياتنا، فإننا نحتفي بها بوصفها مناسبة احتفالية، وعلى قدر كبير من المهابة، ونحن بهذا نُحسن فعلاً، لأنه في حياتنا القلقة، الفقيرة، تُعتَبَر كل مناسبة للانسحاب، مهما كان وجيزاً، من الحياة اليومية للتفكر، التأمل في الماضي وفي المستقبل، لننصب نوقنا خيمة التوازن، لنتفحص العالم وأنفسنا، نعمة. إن مجرد التأمل، بحزن أم بفرح شجاع، في انقضاء الزمن، في زوال حياتنا وأشغالنا، هو نوع من التطهُّر وأيضاً الاختبار. وكأننا بذلك نرفع شوكة رنانة في وجه فوضى أيامنا، ونغمتها الواضحة والعنيدة تبين لنا كم انحرفنا داخلياً عن سراطنا المستقيم، عن موقعنا المناسب في تناغم العالم. ومن المفيد أن نضرب هذه الشوكة الرنانة بين حين وآخر. وهي مفيدة حتى عندما تجعلنا نخجل من أنفسنا وتجرح كبرياءنا.

هذا العام الجديد المحتفى به، الذي مازال نقي الصفحة، يبدو لي أنه ينطوي على مغزى خاص جداً وهام، فبعد سنين من الذبح والتدمير، هذه أول عشية عام جديد تمر علينا بلا حرب، أول عشية عام جديد لايكون فيها عالمنا مملوءاً بالتعذيب والموت، ولا نسمع فيه ضجيج آليات الدمار الضخمة يهدر فوقنا في الظلام. وهي متوجهة لتقوم بمهامها الشريرة. صحيح أننا لانكاد نجرؤ على لفظ كلمة «سلام»؛ صحيح أننا مازلنا لانثق في الصمت غير المعتاد السائد،

غير أن انعدام ثقتنا وقلقنا حول هشاشة هذا السلام وأي سلام سوف يساعدنا على تكريم هذه الساعة الجميلة والمخيفة، وذلك بإلقاء نظرة تأمل على العالم وعلى أنفسنا.

إن السنوات القليلة الأخيرة لم تكن بالنسبة إلينا سنوات إنسانية عادية، مرة أخرى تعوّدنا على أن نعيش ليس حياة انسانية بل «تاريخاً» ومرة أخرى، كما يحدث بعد كل ما يسمى بالمراحل «العظيمة»، تركنا التاريخ مع شعور بالرعب والاشمئزاز. كم كان مجيداً وواعداً رنين كلمة "تاريخ" في آذاننا ونحن تلاميذ في المدرسة، كم تقنا ونحن أطفال الى أن نشهد ونشارك في صنع هذا التاريخ الفاتن الذي لم نكن نعرفه إلا من خلال صفحات الكتب ومن الصور. لقد علمتنا التجربة المريرة أن التاريخ الحقيقي ليس ذاك الموجود في الكتب المدرسية وفي ألبومات الصور، وليس سلسلة من المآثر العظيمة، بل محيط من الآلام الفادحة.

كم تعبنا من كل الأحداث الجليلة وسيل الأخبار اليومية المتسارعة، ومن أضخم المعارك البحرية، والأرضية، والجوية، قاطبة، ومن التسابق المخيف كله لتحطيم الأرقام القياسية العالمية في نشر الرعب!

لكن التاريخ يشبه إلى حد بعيد الحياة الانسانية عموماً، وكما تعلمنا أن نعتبر الحقب التاريخية التي يكون فيها التاريخ مغموراً أفضل الحقب. كذلك تعلم كلٌ منا في حياته الخاصة تدريجياً أن يفضل المراحل الهادئة التي يسودها الانسجام على فترات الاضطراب العارم، ونحن نقدِّر المراحل ليس على أساس أي فلسفة، وإنما ببساطة تامة على أساس صالحنا الخاص.. وهذا الموقف جبان ومبتذل. لكن ثمة نقطة تحسب لصالحه: على الأقل هو صادق.

هل نقول إذن إن حياتنا تكون أسعد عندما تخلو من الأحداث، وأن العالم يكون في أفضل حال عندما يخلو من التاريخ ويكتفي بمجرد وجوده؟ إن هذه الفكرة تنفِّرنا، تبدو مفرطة التفاهة والابتذال، كلا، لانقبلها. ومن غرف الذاكرة التي طال هجرها تُبعَث في العقول أبيات معينة من الشعر ومن الأقوال الحكيمة، كملاحظة غوتة أنه لاشيء أصعب على التحمُّل من تعاقب الأيام الطيبة. لكن غوتة كان على حق. إن الانسان يتوق إلى السعادة لكنه لايتحمل

قدراً كبيراً منها. إذن السر يكمن في حياة الفرد: إن السعادة تضجره وتجعله كسولاً، وبعد فترة معينة لا تعود سعادة. السعادة زهرة جميلة، لكنها تذبل سريعاً. لعل هذا يَصحُّ أيضاً على التاريخ. لعل الأحقاب القليلة الوجيزة التي تدهشنا لأنها رائعة وتثير الحسد يجب أن يُدفَع ثمنها فيض من البؤس. والدماء والدموع.

ماذا علينا إذن أن نتمنى إذا ماكان خيارنا الوحيد ينحصر بين جحيم الحياة البطولية وابتذال حياة بلا تاريخ؟

ماذا نتمنى؟ هذا سؤال نستطيع أن نتفكّر مطولاً فيه بدون أن نحظى بجواب. ومن ثم يظهر لنا أن السؤال مصاغ بشكل خاطىء أو بالأحرى، هو سؤال سخيف، عقيم. يبدو أو جلبة الحرب التي طال أمدها قد اختزلتنا حتى أضحينا كتلة من الحماقة البدائية، لقد نسينا منذ زمن بعيد ما اكتشفه معلمو الانسانية العظام وعلّموه. لقد ظلوا طوال آلاف السنين يعلّمون جميعاً الشيء نفسه، وأي عالم لاهوت وإنساني يستطيع أن يخبرنا بكلمات بسيطة ماهو، بغضّ النظر عما إذا كان يميل أكثر الى سقراط أو لاو - تزو، إلى بوذا المبتسم المطمئن أو المخلص ذي تاج الشوك. كلهم، بل كل ذي بصيرة نافذة، كل انسان يقظ ومتنور، كل عالم حقيقي ومعلّم للبشرية قد علّم هذا الشيء الوحيد؛ أقصد به، أن على الانسان ألا يرغب في العظمة أو السعادة، في البطولة أو السلام العذب. وأن عليه ألا يتمنى إلا العقل الصافي واليقظ. والقلب الجسور والصبر العارف والمخلص الذي سيمكّنه من أن يتحمل السعادة والمعاناة معاً، والجلبة وأيضاً الصمت.

فلنتمنى هذه الهبات الطيبة، فهي جميعاً من مصدر واحد: الله. إنها ليست غير القبس القدسي عند كل منا، إننا لاندرك القبس في كل يوم، وغالباً مايمر علينا وقت طويل لاندركه خلاله، ننساه، ولكن يمكن للحظة واحدة أن تعيده إلينا، لحظة رعب ويأس، أو لحظة سكينة مباركة: نظرة عارفة إلى سر الزهرة، الى عيني طفل بريئتين، أو صوت بضع نغمات موسيقية. في مثل تلك اللحظات، لحظات البلاء الأقصى أو الانفتاح الهادىء، يعرف كل منا حتى وإن كان عاجزاً عن التعبير بالكلام، سر المعرفة كلها، والسعادة برمتها، وسر

الاتحاد. إن الله الواحد يعيش فينا جميعاً، وكل حفنة من التراب هـي بيتنـا، وكل إنسان قريب لنا وأخ، هذه هي المعرفة التي نعود إليها عندما تفتـح بلـوى كارثية أو نشوه عذبة آذاننا وتجعل قلوبنـا قـادرة علـى الحـب. وهـذه المعرفـة بالاتحاد المقدس تبين أن كل تجزُّؤ إلى أعراق، وأمـم، وأغنيـاء وفقـراء، وأدبـاء وأحزاب، هو ضلال وفخ.

ليت هذه السكينة الداخلية تحل فينا وفي كل البشر: في كـل مـن يـأوى في هذه الساعة الى النوم في منزل آمن ومن يعيش في بؤس بلا مأوى أو سـرير. إننـا نتمناها للمنتصرين خشية أن يصيبهم انتصارهم بالكبرياء والعمـى، وللمهزومـين خشية أن يصبُّوا جام غضبهم على الألم الذي نزل بهم وعلى رؤوس الآخريـن، علّهم يتعلمون تحمُّله وسماع صوت الله فيه.

وحدها حفنة من القديسين بين الناس قادرة على العيش طويلاً في ظل هـذه السكينة وهذه البصيرة البسيطة، الخيِّرة، أما الباقون فلا يقدرون. كلنـا يعـرف هذا ولطالما خجلنا منه. ولكن إذا أدركنا أن السبيل الوحيد المـؤدى الى انسـانية أنبل وأرقى يمر من تجربة الاتحاد هذه المتكررة أبدا، ومن التبصُّر المتجدد أبـداً بأننا نحن البشر إخوة ومن منبت مقدس، حالما نصاب بجرح حقيقـي ويوقظنـا ومض البرق هذا، لن نعود أبداً عاجزين عـن الاسـتغراق ثانيـة في نـوم هـانيء، وفوق ذلك كله لن نغرق في هواجس كابوسية تكون السبب في نشوب الحـروب، والاضطهاد العنصري، وصراع الأخوة بين البشر.

منذ سنين ونحن نشهد رعباً لايكاد يحتمل، وهناك آخرون اقـل حظـاً منـا تكبّدوا المعانـاة، والبعـض هنـا مـازالوا يقاسـون الآلام، وكـل عذابـات الجسـد والروح. ووسط سـفك الدمـاء وذرف الدمـوع طـرح الكثـيرون جانبـاً الآراء والتصنيفات التي ينظِّم بها الانسـان العـادي عالمـه في أوقـات السـلام. كثـيرون استعادوا الوعي، وكثيرون ابتلوا بالضمير، وكثيرون لعنوا: لو أنـي أمـرُّ بهـذا، فسوف أصبح إنساناً مختلفاً وأفضـل. وهـؤلاء، اليـوم كمـا في كـل وقـت، هـم **Homines Bonae Voluntatis** (ذوو النوايا الطيبة)، انكشف أمامهم طرفٌ من لغز العالم، وحدهم دون أي أمة، أو طبقة، أو عصبة أو تنظيم، المسـتأْمَنون على المستقبل،، وحدهم يملكون سر قوة الإيمان.

ذات ليلة كنت أرقاً، لأن الفظاعات التي ارتُكِبَتْ في ظل حكم هتلر ذكَّرتني بوطني للمرة الأولى، كتبتُ قصيدةَ حاولتُ فيها، متحدياً الرعب، أن أعترف بإيماني. والأبيات الأخيرة من قصيدتي هي كما يلي:

لذا بالنسبة إلينا نحن الأخوة الخطاة

الحب ممكن حتى ونحن على خلاف.

لا الرأي ولا الحقد

وإنما الحب الحليم

والحلم المُحِبْ

يقرِّباننا من الهدف.

* * *

رسالة الى أديل[1]

عام ١٩٤٦

عزيزتي أديس:

هاأنذا أجلس من جديد لأكتب لك رسالة، لأجلك ولأجلي، لأجلك لأنك مريضة، ولأجلي لأني وأنا وسط وحشة حياتي- وحشة لايمكنك أن تتصورينها . هنا فوق هضبتنا، أشعر على الدوام بحاجة الى أن أأتمِنَ شخصاً أنا متأكد من أنه لن يسيء فهمي أو ثقتي. وطبعاً أنا لاأعيش وحدي. معي فينون، رفيقتي المخلصة، لكن أحياناً يبدو النهار طويلاً، وككل ربات البيوت لديها الكثير من العمل، ومع ذلك فإنني في كل مساء أبقيها مشغولة بلعب الشطرنج معي أو بالقراءة لي.

وهكذا قررت في صباح هذا اليوم أن أكتب لك، لأحييك وأذكّرك بالأيام الخوالي. لكن الأمر ليس سهلاً. إذ لم تصلني أي أخبار عنك منذ بعض الوقت، كل ما أعرفه أن صحتك لم تكن على مايرام، وأنك بحاجة الى عناية وراحة لاتتوفران لك في المنزل، بل حتى أني لاأعرف يا أختي الصغيرة، إن كنتِ حيّة ترزقين، وحتى لو عرفت، فإني أستطيع أن أتخيلك أنت، وليس حياتك، أو شقتك، أو غرفتك، أو كيف تمضين نهارك، أنت مازال لديك مكان تعيشين فيه، وهذا في نظر الكثير من الألمان يعتبر بحد ذاته حظاً حسناً يفوق الأحلام، لكن الشقة مزدحمة ويحتاجها الزوار، هنا لانستطيع أن نتصور الحياة التي تعيشين هناك، بماذا تفكرين وعمّا تتحدثين. لانستطيع أن نتصور أفراحك وأحزانك - ولاريب في أن لديك من الاثنين - إنها موجودة في بلد

---

[1] أديل: أخت هرمن هسه.

مظلم، غريب، وبعيد بُعداً لامتناهياً، يكاد يكون على سطح كوكب آخر، حيث للفرح والحزن، للنهار والليل، للحياة والموت قواعد وصيغ ومعان غير التي هنا، إن خلفية حياتك هي تلك الألمانيا الأسطورية التي كنا حتى عهد قريب تخشاها لوحشيتها وعدائيتها والتي نخشاها اليوم كما نخشى جاراً يحتضر أو ميت على عتبة دارنا، يحمل معه مرضاً غامضاً قاتلاً ويبدو وهو ميت مريعاً كما كان وهو حي. إنني لاأعرف شيئاً عن الأغراض التي تعيشين معها، والأثواب التي ترتدين، عن مفرش طاولتك وأكوابك وصحونك، لاأعرف إلى أي مدى يقترب الرعب من نوافذك: البيوت المدمّرة، والشوارع، والحدائق المنسوفة، لاأعرف الغور الذي لعبَتْه هذه الأشياء الرهيبة المحزنة، في حياتك اليومية، أو إلى أي درجة تبرأ الجراح وتغطيها طبقة جديدة.

ولايسعني إلا أن أعتقد أنكم أيها الناس لم يعد في مقدوركم أن تفهموا عن حياتنا أكثر مما نفهم عن حياتكم. لعلكم تظنون أنها أشبه بحياتكم قبل نشوب الحرب، أو حتى قبل مجيء هتلر. والقصة هي أننا نجونا، لم نعان، لم نفقد أي شيء أو نقدم أي تضحيات. إنكم تتفقون مع أعدائكم على أننا نحن المحايدون الصغار ننعم بحظ حسن لانستحقه: إذا لم ينلنا مكروه، وكنا مازلنا نحظى بسقف يحمي رؤوسنا وبنصيبنا اليومي من الحساء. وعندما تفكرون في قريتي وفي منزلي، فإنكم بلا أدنى شك تتصورونهما جزيرة سلام، فردوساً مصغراً. إننا نحن أيضاً نشعر بالفاقة، والإحباط، وبأن أطابيب الحياة خدعتنا. وفي إجابته على مقالة ظهرت في الصحافة السويسرية، يتمادى أحد أصدقائنا الألمان إلى حد وصفنا "بآكلي البسكويت" وقد أبلغني معلّم مشهور يعمل على إعادة تأهيل شعبكم أن رجلاً مثلي، أمضى فترتي حكم هتلر، والحرب في منطقة تيسين[1]، المشمسة، الوادعة، لايحق له أن يتحدث في شؤون ألمانيا اليوم. ولااعتراض لي على هذا، فأنا لم أطالب قط ولن أطالب أبداً بأن يكون لي رأي في الشؤون الألمانية ، لكن هذا يبيّن أن العالم يفكر فينا. والقول إننا استكنا في تيسين المشمسة، وأكلنا البسكويت، هو نظرة مفرطة في التبسيط لتجربتنا

---

[1] تيسين: أو تيتشينو، كانتون في سويسرا يتكلم قاطنوه الايطالية بالدرجة الأولى.

المعقدة خلال تلك السنوات. وكون أبناؤنا خاضوا الحرب سنوات طوال قبل أن ترى الولايات المتحدة الأمريكية مناسباً أن تستنبط العواقب العسكري من سخطها على هتلر بوقت طويل؛ كون إنجاز عمري كله قد تعرَّض للتدمير على يد هتلر والغارات الجوية؛ وكون أقارب زوجتي وأصدقاؤها قد أُحرقوا بالغاز في معسكرات هيملر[1] إن هذا كله، في عيون أناس قسَّتهم الحرب والبؤس بكافة وجوهه، لايستحق الذكر. وباختصار، كيفما نظرت الى الأمر رأيت هوة بيننا وبين أولئك خارج حدودنا. لقد أصبحنا غرباء، لايفهم أحدنا الآخر ولا حتى نحاول أن نفهم.

الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها أن أعبر هذه الهوة السحيقة وأحدثك بلا تحفظ أو قناع هي أن أدير ظهري للحاضر وأستحضر هواجسنا وذكرياتنا المشتركة، وحالما أفعل ذلك يسقط كل شيء في مكانه. عندئذ تكونين أنت أديس وأنا هرمن، أنا لست سويسرياً وأنت لست ألمانية، تزول الحدود ولايبقى هناك هتلر يحول بيننا، وإنْ كنتِ لاتستطيعين أن تتخيلي حياتي الحاضرة ولا أنا أستطيع أن أتخيل حياتك، وكل ماعلينا أن نفعله في دنيا آلاف كرياتنا أن نذكر اسم قريبٍ لنا، أو جارة أو خياطة أو خادمة منزل أوشارع، أو جدول أو أيكة لتتراءى لنا صورٌ جلية وتشعُّ سكينةً وجمالاً قوة وودية لم يعد لها وجودية في الصور المختلطة، البالية لحياتنا منذ ذلك الحين.

سواء أَوَصَلَتْكِ رسالتي أم لم تصلْك فأنا قد اجتزت الهوة وتغلَّبت على الاغتراب كله. والآن أستطيع أن أتحدث معك مدة ساعة ونتذكر معاً تلك الصور التي تبدو بعيدة نائية في عمق الماضي الذي لايُستعاد ولكن يمكن استحضاره مع تألقه كله، وعلى الرغم من أني لم أعثر عليك في المانيا الحالية، وفي منزلك وأثاثك الحاليين، فأني أعثر عليك على الفور وبصورة كاملة عندما أفكر في منزل «موللرفغ» في بازل وفي شجرة الكستناء القائمة في الحديقة أو في منزلنا العتيق في كالف حيث كنا نرتقي درجاً بعد آخر لنجد نفسينا تحت السقف ولكن على مستوى واحد مع الحديقة الموجودة على سفح التل، أو في

---

[1] هاينريش هيملر: أحد القادة النازيين، انتحر عام ١٩٤٥.

التنزه في موتلينغن، حيث كان لعائلتنا صلات حميمة تعود حتى عهد الدكتور بارث وبلمارت الرائع، وفي أوقات صباح أيام الآحاد في فصل الصيف عندما كنا نحن الاثنان ونحن في طريقنا إلى هناك نتمشى خلال حقول القمح المرشوشة بأزهار عباد الشمس والخشخاس، وفوق مساحات في الأراضي البور الملأى بالشوك الفضي وأزهار الجنطايا ذات السيقان الطويلة.. ولو كنتِ موجودة هنا لنتجاذب أطراف الحديث ولاستحضرت مئة صورة أخرى عن تلك الأماكن كلها. ولأيقظت أو أنعشت عدداً كبيراً منها عندي. ولكن أعدادها في الحقيقة لا تُحصى كالأزهار في المرج وعندما نستوعبها ونتفتح عليها، تعود أسطورة طفولتنا الذهبية ويتمثل أمامنا مرّة أخرى العالم الذي كان يحيط بنا وغذانا، عالم آباؤنا وأجدادنا، عالم كان في وقت واحد ألمانياً ومسيحياً، سوابياً وعالمياً، عالم كل روح فيه، سواء أكانت مسيحية أم لا، كانت متساوية في القيمة ولايُرفَض فيه، يهودي ولازنجي، هندوسي ولاصيني، بوصفه غريباً. فمن خلال عمل آبائنا وأجدادنا التبشيري احتل اخواننا الملونون مكانة خاصة في تفكيرنا. لقد عرفنا الكثير عنهم. وعن بلدانهم، وتعرّفنا إلى بعضهم وقد مكثوا معنا عندما جاؤوا إلى أوروبا. وعندما كان آباؤنا يستقبلون زواراً من الهند، سواء من الهنود أو الغربيين العائدين، كنا نستمع الى الأشعار السنسكريتية وكلمات وعبارات بلغات الهند الحالية. وكم كان الجو، في منزلنا، متحرراً من أي تلميح الى الهوية القومية ناهيك عن النزعة القومية، وكان لنا جد سوابي وجدّة فرنسية سويسرية، وكان والدنا ينحدر من عائلة ألمانية بلطيقية، وكان أكبرنا في الأبناء، الذي ولد في الهند، انكليزياً والثاني منا، الذي أكمل دراساته في سوابيا، أصبح مواطناً في فورتمبرغ، الباقون منا كمواطنين في بازل، حيث كان والدنا قد اكتسب الجنسية. وهذه ليست وحدها الظروف التي جعلتنا عاجزين دائماً عن التمسك بأي نزعة قومية جدية، أما هم فكان لديهم الكثير منها. ومن حسن حظنا نحن الاثنان أنه مع وجود كل ذلك التهديد القومي في العالم من حولنا فإن مجرد تذكر طفولتنا ومنبتنا يكسبنا مناعة ضد هذا الجنون. إنك في نظري لم تكوني مرة «ألمانية» ولا أنا كنت في نظرك «آكلاً للبسكويت».

في الصيف الفائت، وبعون من نينون، أعددت كتاباً آخر من قصائدي المختارة وهو الثالث في غضون خمس وعشرين سنة، وقد نشر بطبعة رخيصة وجميلة في متناول الجميع. على الصفحة التي تلي صفحة العنوان كتب «مهدى إلى أختي أديل». أنتِ لم تريه، ولكن لعل هذه الرسالة ستجد طريقها اليك. وعندئذ على الأقل ستعرفين أني بعملي هذا، الذي هو أيضاً استعراض لأحداث حياتي، كنت أفكر فيك أنت وكنت أشعر بوجودك الى جانبي. وأعدت أيضاً نشر قصتي« أيها الشباب، أيها الشباب الجميل» بطبعة رخيصة، وهي المفضلة لدي، ولديك أيضاً، كما أعتقد، من بين القصص الأولى التي كتبتها خلال الأيام السابقة للحربين والأزمات لأنها تعطي صورة صادقة لطفولتنا، ومنزلنا الذي نشأنا فيه، ولمسقط رأسنا كما كان عندئذ، ومع ذلك عندما كتبت تلك القصة، لم أكن أعرف العالم الذي ترعرعنا فيه، العالم الذي شكّلنا، كما كما أعرفه جيداً الآن. لقد كان عالماً ذا صبغة ألمانية بروتبستانية واضحة، ولكن مع منظورات وروابط تمتد على الأرض كلها، وقد كان عالماً واحداً، متناغماً، وصحيحاً، عالماً بلا تصدعات أو حُجُب مخيفة، عالماً انسانياً ومسيحياً، فيه تتطابق الغابة والغدير، الغزال والثعلب، الجيران والأقارب بدقة، وتتناسق كتطابق عيد الميلاد مع عيد الفصح، واللاتينية مع الإغريقية، وغوته مع ماتياس كلوديوس، وأيشندروف. لقد كان عالماً غنياً ومتنوعاً، لكنه حسن التنظيم له مركز ويخصنا كما أن الهواء وأشعة الشمس والمطر والرياح تخصنا. مَنْ كان يظن أن هذا العالم ذاته، وإلى أن وضّحتْ الحربُ وشياطينها ذلك، سوف يُصاب بجَرَبٍ مميت، بشبه واقع ولا واقع مجذوم، بلا، إنه سوف يسُحب منا تماماً، بعد أن يغدو مبهماً إلى درجة الاغتراب الكامل، ويتركنا مع الفوضى الرهيبة ووهم العالم كما هو اليوم؟

ولكن في إمكاننا أن نعود إليه، فنحن نحمل في داخلنا صورة عالم واحد، صحيح ومنظم وقادرون على التحدث عن هذه الصورة - وهذا، وليس كوننا لدينا أذرع وسيقان، وطعام نأكله وسقف يظلل رؤوسنا، هو كنزنا الأنفس، ما تبقّى لنا من حسن الحظ. إن لدينا شيئاً لم يعد لدى أولادنا وأحفادنا أي شيء منه، أو لم يتبق لديهم منه إلا بصيص خافت: إنه عالم قدسي، نبيل، جميل

التكوين نستطيع أن نجد فيه ملجأ، ويمكننا، نحن المغتربُ أحدُنا عن الآخر في الوقت الحاضر، أن نلتقي ونتعارف من جديد معرفة كاملة. الى هنا في ظل أسلافنا، تحت الأشجار التي تهمهم عن تلك الأيام الخوالي، جئتكِ، وجدتكِ فتية مرحة، ووجدتني أنتِ فتياً ومتكاملاً كما كنت عندئذ. في حديقة أمنا الصغيرة نفكر في زهرة الفلوكس وفي صليب القدس، نفكر في صندوق خشب الصندل الصغير ذي العبير وفي سُحُب دخان الغليون في غرفة مكتب الجد، ويومىء كل منا برأسه للآخر، ويتمثل أمامنا برج الكنيسة التي يلفّها السكون، وفي صباح يوم الأحد نرى موسيقيي البلدة في الشرفة القريبة من الأجراس يعزفون على المزامير ترتيلة، ترتيلة نعرفها من تأليف غرهارت[1] أو ترستيغن أو يوهان سيباستيان باخ. ونفكر في "الغرفة الطيبة" في المنزل، حيث تقام الشجرة والمذود في عيد الميلاد، وفي موقع عزف الفرقة الموسيقية نرى كراسات التراتيل وكتب الأغاني، لسيلخر[2] وشوبرت، ومقطوعات أوراتوريو مُعَدّة لآلة البيانو. ثم كان هناك «شوبرت الآخر» التمثل النصفي، موضوع على خزانة موجودة في المدخل، للدكتور غوتيلف هاينريش شوبرت، مؤلف كتاب «رمزية الأحلام» و«تاريخ النفس»، وكان صديقاً للعائلة. كنا نخبّىء البيض في ذاك المدخل الفسيح للمنزل بأرضية ذات الحجارة اللوحية الرملية الكبيرة ذات اللون الأحمر، أو غرف الجلوس بما تحتويه من آلاف الكتب. وكنا نرى على أجود أنواع البيض باقات زهر صغيرة، وشرّابات من العشب، وسرخس قزم، وينعكس الضوء على الأرضية ذات اللون النبي العسلي. في تلك الغرف، حتى بعد وفاته، ظلت روح جدي مخيمة، وكنا نفكر فيه كلما أتينا إلى المنزل لقضاء فترة الأعياد. أحياناً كنا نخافه، غير أن احترامنا وحبنا له كانا أكثر بكثير إنه حكيم وساحر بلاد الهند. وعندما تحدث أزمة كم كان أسلوبه مؤثراً وفعالاً عندما يبتسم ليجلو عني الخوف ويسخر منه! وفي سن الرابعة عشرة ارتكبت جرماً خطيراً، فقد هربت من مدرستي، مدرسة دير مولدون، وفي اليوم التالي لعودتي الى المنزل أرسلوني إلى بيت جدي، ولم يكن أمامي مهرب، كان يجب

---

[1] بول غرهارت (١٦٠٦؟ - ١٦٧٦): مؤلف تراتيل ألماني.

[2] فريدريش سلخر (١٧٨٩ - ١٨٦٠): قائد أوركسترا ومؤلف أغاني وتراتيل ألماني.

أن أبعث إليه بتقرير ومن ثم أنتظر صدور الحكم فالعقاب. ارتقيتُ درج السلّم الصغير المؤدي إلى غرفة مكتبه بقلب يخفق بقوة، قرعت الباب، ودخلت، وتقدمت من العجوز الملتحي، الجالس بمهابة على الأريكة، ومددت له يدي. فماذا قال هذا الرجل المخيف، العارف بكل شيء؟ رماني بنظرة ودّية ، ورأى وجهي الشاحب، الوجه المذعور، فابتسم بخبث تقريباً، وقال: «يقولون، ياهرمن، أنك قمت بجولة عبقرية». «جولة عبقرية» ـ هكذا كانت تسمّى عمليات الهروب التي قمت بها في أيام المدرسة. بالنسبة إليه، كانت القضية قد أقفلت.

إن كل ما جعل فترة طفولتنا جميلة وحياتنا اللاحقة مثمرة، ودافئة ورخيّة يأتي من ذلك المنزل، من جدّي ومن والديّ. إن حكمة جدّي الرحيمة، ومخيّلة أمي التي لا تنضب وقلبها الذي يفيض بالحب، وضمير والدي الحساس وحساسيته الحادة ساهمت في صياغتنا، وعلى الرغم من أننا لم نعتبر أنفسنا قط متساوين معهم، فنحن من نوعهم، تكوّنا على صورتهم، وحملنا جزءاً من نورهم إلى العالم الذي أضحى مظلماً وغريباً. ونحن لم نجعل من عبادتنا لسلفنا سراً، كلانا كرّس عدداً من الأعمال، عدداً من الصفحات المكتوبة لتخليد ذكراهم. إنهم لن يضيعوا، حتى وإن كانت كتبنا الآن غير متداولة في السوق، أو أحرقت، أو دمّرت. إن الزائف والتافه يزول، والرايخ ذو الألف عام ومفاخر جوفاء أخرى سرعان ما تتحول إلى رماد. أما كل ماهو صلب، وجوهري، وأساسي فيبقى. إن هذا ينجلي أمامنا عندما نقارن بين ذكرياتنا عن سنوات الحرب والدكتاتورية الكابوسية ـ التي هي مجرد أشباح وعنكبوت ـ وذكرياتنا عن سنوات الطفولة ـ المدوّرة، والصلبة، والغنية كالحياة نفسها.

وهكذا عندما أزحنا فقرنا والسنين المتقدمة مدة ساعة من الزمن، عدنا أغنياء، عدنا الأمير والأميرة كما كنا قبل زمن بعيد عندما كنت أجلب لك في أوقات العطل شعرائي المفضلين أو لوحات رسمها الرسامون المفضلون لدي، وكنا نحن الاثنان ضيفين عليهما. طبعاً، لا نستطيع أن نفعل هذا طوال الوقت، فقط في ساعات طيبة ونادرة، إن حياتنا اليومية هي حياة عجائز متقاعدين، ولا رغبة لدينا في أن نطيل أمدها. أتصور أنكم أيها القاطنون هناك

لا تخشون الموت ولا تستخفون بقدره، ولعلكم في هذه الناحية كما في نواح أخرى تتفوقون علينا.

إنني غالباً ما أتمنى لو أني تحدثت معك حول هذا الأمر أو ذاك الذي أراه اليوم بشكل يختلف عن طريقة رؤية غالبية الناس له. ويخطر ببالي أناس يسيرون بينكم كأضواء ساطعة ولا يراهم أحد! وبينما حشد من القردة المجانين يتبخترون مثل «رجال عظام»، يعيش أولئك أمام عيونكم، وكأنهم غير موجودين، يتجاهلهم الجميع وكأن لا شيء لديهم يقولونه. أحد هؤلاء هو صديقي العزيز هوغو بال، والآن، بعد وفاته بسنين عديدة، يُعاد اكتشاف كتبه المقلقة هنا وهناك. وهناك آخر هو كريستوف شريمبن الذي لم يكن يحظى باستحسان إلاّ مجموعة صغيرة من الأصدقاء، وتبقى أعماله ـ المجموعة في سبعين مجلداً ـ مجهولة ولا تجد من يكتشفها، لقد كان الناس منهمكين في أشياء أخرى، وتركوا أمر إنصافه إلى المستقبل، إنهم يفضلون أن يأكلوا ورقاً من يد شخصية رسمية بارزة على أن يأكلوا خبزاً نبيلاً من يد انسان صادق. نعم، إن العالم مازال غنياً، مازال قادراً على مثل هذا الإسراف، غير أني أؤمن بأنه وعمله لم يضيعا ويذهبا أدراج الرياح وبأنهما خالدان كأي إنجاز نبيل أو كموت شهيد وسط الأعمال المرعبة التي ارتكبت في فترة انتشار الجواسيس. إن كان هناك شيء يستطيع أن يشفي العالم مما فيه ويعيد الى البشرية نقاءها ووحّدتها من جديد، فهو أعمال وآلام أولئك الذين رفضوا أن ينحنوا أو يشتروا، الذين كانوا يفضلوا أكثر أن يفقدوا حياتهم على أن يفقدوا إنسانيتهم، ويضم هؤلاء منذرين ومعلمين أمثال شريمبف، الذي لن تُكتَشف عظمة انجاز حياته بشكل كامل إلاّ في يوم ما من المستقبل. كثيراً مايبدو وكأنه لم يتبقّ في العالم أي شيء ولا حقيقة أو أصيل، لاإنسانية، ولا طيبة حقيقية، لكنها موجودة فعلاً وعلينا ألا ننضم الى صفوف الذين نسوها.

ما كان أجمل شمس أيلول في تلك العطل البهيجة من عهد طفولتنا عندما كنا نأكل كعكة الخوخ تحت ظلال أشجار الكستناء وكان الأولاد، مثل سيبنكاس، نصير الفقراء، يسددون الرمي على الصقر الخشبي! ما كان أجمل الدروب المستترة داخل غابة أشجار التنوب الباسقة، بما فيها من سرخس،

وقفاز الثعلب ذي الأزهار الحمراء. أحياناً كان والدنا يتوقف، عند شجرة تنوب بيضاء، ويخدش عرقاً فيها بمطواته، ويجمع بضع قطرات صافية من الراتنج في قارورة. ويحتفظ بهذا الراتنج ليدهن به رضة إذا مادعت الحاجة. أو يكتفي بشمّه. إن ذلك الرجل النقي، الذي لم يكن يسمح لنفسه بالانغماس بأي إثم، كان خبيراً في الهواء وشذى الطبيعة، في الأوكسجين والآزون. ليتني أزور قبره من جديد في مقبرة كورنتال التي كانت جميلة جداً، ولكن في وضعنا هذا من الأفضل أن نتخلى عن هذه التمنيات.

لو كنت أستطيع أن أكتب رسائل مثل تلك التي كانت أمي تكتبها، لعرفتِ الكثير عن حياتنا الحاضرة ولكن ليس لدي ما أقوله ولعل أمنا نفسها، راوية القصص العظيمة، كان الصمت سيُسكِتها اليوم. كلا، كانت ستنجح، كانت ستضفي النظام على عماء هذه الحياة وتعرف كيف تحكي عنها.

بينما أنا أكتب لك، انصرم النهار، والثلج الأزرق الباهت ينظر إلّي من وراء زجاج النوافذ، لقد أدرتُ مفتاح النور والآن أشعر بتعب لاينتاب إلاّ العجائز.

يجب أن أتخلص من عادة الأمل. ومع ذلك. فأنا آمل في أن تصلك رسالتي قريباً وفي ألا تكون الأخيرة إليك.

* * *

رسالة إلى ألمانيا

عام ١٩٤٦

غريب أن تصل رسالة الى المرء من بلده. فطوال أشهر عديدة ظل وصول رسالة من ألمانيا يشكل حدثا نادراً ودائماً مبعث فرح لي. كانت تجلب إلي نبأ مفاده أن صديقاً كنت قلقاً عليه ولم أسمع أي خبر عنه منذ فترة بعيدة، مازال حياً، وكانت تزودني بلمحة، وإن كان بشكل تصادفي، ولايُعتدُ به، عن البلد الذي يتحدث أهله لغتي، واأئتمنه على نتاج عمري من الأعمال، وكان يمنحني حتى قبل بضع سنوات لقمة عيشي والتبرير الأخلاقي لإخراج أعمالي، إن أمثال هذه الرسالة دائماً تأتي كمفاجأة، وتقتصر على المسائل المهمة ولاتحتوي أي ثرثرة تافهة؛ وغالباً ماتكون مكتوبة على عجل، اثناء زيارة سيارة الصليب الأحمر أو مسافر. وبعضها كان يسلك دروباً ملتوية بشكل غريب، كأن تُكتَبْ رسالة في هامبورغ، أو هالة أو نورمبرغ، ثم تُستودَع بين يديَّ جندي ودود متوجه إلى أرض الوطن لتصلني بعد ذلك بشهور عن طريق فرنسا أو أميركا.

ثم أصبحت الرسائل ترد أكثر عدداً وأطول؛ وكان عدد كبير منها يأتي من معسكرات سجناء الحرب في كل أنحاء العالم، مُزَقٌ كئيبة من الورق خُربشَتْ في حظائر محاطة بأسلاك شائكة مقامة في مصر وسوريا أو في فرنسا أو إيطاليا أو انكلترا أو أميركا. كثير منها لم يكن يمدني بأيّ مَسرَّة وكنت أكره أن أجيب عليها. كان أغلب تلك الرسائل مملوءاً بالشكوى. والقدح المرير، والنقد اللاذع لكل شيء تحت الشمس، كانت تضم كافة أنواع طلب المعونة، وحتى تهديد العالم بوقوع حرب أخرى. وكانت هناك استثناءات رائعة لكن قليلة، أما بقية كُتّاب الرسائل فكانوا يتحدثون فقط عن المصاعب التي واجهوها وكانوا يشتكون

بمرارة من الظلم الذي تعرضوا له خلال مدة سجنهم الطويلة. كل ذلك دون أن يأتوا على ذكر الآلام التي سبّبوها كألمان طوال سنوات طويلة للعالم ولو بكلمة واحدة. وكنت حين أقرأ مثل هذه الرسائل كثيراً ما أتذكر جملة من مفكرة جندي ألماني دوَّنها أثناء اجتياح روسيا. ويقرُّ كاتبها، وكان شخصاً طيباً من نواح أخرى ولكن لم يكن نازياً صرفاً، بأن الجنود كلهم كانوا مضطربين جداً من التفكير في أنهم سيموتون أما اضطرارهم إلى القتل فكان مسألة «تكتيكية» صرف. وكل كتّاب تلك الرسائل أدانوا هتلر. ولم يُحمِّل أي منهم نفسه أي حصة من اللوم.

سجين في فرنسا ليس صغير السن وإنما متزوج وله أولاد، وصناعيّ مثقف وحاصل على شهادة جامعية، سألني ماذا كان على رجل محترم، حسن النية، في رأيي، أن يفعل خلال فترة حكم هتلر. وبرّر قائلاً، إن رجلاً في مركزه ماكان في مقدوره أن يمنع حدوث أي شيء مما حدث أو أن يقاوم هتلر بأي شكل من الأشكال؛ إن ذلك جنون، وكان سيكلّفه قطع أسباب رزقه، وفقدان حريته، وأخيراً حياته. ولم يسعني أن أجيبه إلا بالقول أن تدمير روسيا وبولونيا، وحصار ستالينغراد وجنون الاستمرار في ذلك حتى النهاية المريرة يجب أيضاً أن يتضمن أخطاراً معينة لكن الجنود الألمان ارتموا باندفاع لتنفيذ تلك المساعي. ثم لماذا فشل الشعب الألماني في أن يستشف نوايا هتلر قبل عام ١٩٣٣؟ أما كان جديراً بحادثة مبكرة جداً مثل «انتفاضة ميونيخ» أن تبين له من هو؟ ولماذا، بدل أن يدعم الجمهورية الألمانية. ويعزِّزها، وهي النتيجة السارة الوحيدة التي أسفرت عنها الحرب العالمية الأولى، أجمع بالكامل تقريباً على تخريبها، وذلك بتصويته لصالح هندنبرغ، ولاحقاً لصالح هتلر، الذي من المؤكد أنه بات من الخطير جداً على المرء، في ظل حكمه، أن يتصرف ككائن بشري محترم؟ وذكّرت أيضاً كتّاب الرسائل أولئك أحياناً بأن الجنون الألماني لم يبدأ مع هتلر. وأن ابتهاج الشعب المسعور بالانذار الحقير الذي وجهته النمسا إلى صربيا في صيف عام ١٩١٤ كان جديراً أن يفتح عيون البعض. حكيت لهم عن الصعوبات والآلام التي تكبّدها كل من شتيفان تزفايغ، وفراتز مازيريل، وأنيت كولب، وأنا نفسي خلال تلك السنوات. لكن

اياً منهم لم يؤيِّد حجتي، ولم يهتموا بالنقاش الجدِّي، ولا أجد بينهم مَـنْ أراد أن يتعلم أو أن يفكر.

ثم تلقيت رسالة من رجل دين جليل عجوز، في ألمانيـا، وكـان رجـلاً تقيـاً تصرَّف بشجاعة في ظل حكم هتلر، وعانى الأمرِّين. وكان قد قرأ لتـوه تـأملاتي حول الحرب العالمية الأولى، التي كتبتها قبل خمسة وعشرين عاماً. كتب يقول إنه بوصفه ألمانياً ومسيحياً يوافق على كل كلمة كتبتها. ولكن، والتزاماً بجانب الصدق الكامل، يجب أن يعـترف أيضـاً بأنـه لـو أن تلـك المقـالات قـد لفتـت انتباهه عندما كانت جديدة وفي حينها، لرماها سـاخطاً، لأنـه في ذلـك الوقـت وككل الألمان الصالحين، كان وطنياً وقومياً مخلصاً.

وأخذت وتيرة وصول الرسائل تتسارع بـاضطراد، فبعـد أن عـادت الخدمـة البريدية المنتظمة الى سابق عهدها في ألمانيا، أخذ يصلني يومـاً بعـد يـوم سيل صغير منها، وهو أكثر بكثير مما أحتاج ويفوق طاقتي على قراءته. ولكـن علـى الرغم من أن مئات الناس يكاتبونيي، فهناك فقط خمسة نماذج أو ستة أساسية من الرسائل، وفيما عدا الوثائق الموثوقة الشخصية، والفريدة القليلة حـول تلـك الأوقات العصيبة - وبين تلك القلة رسـالتك هـي الأفضـل - فـإن هـذه الرسـائل الكثيرة تعبِّر عن مواقف وحاجات معينة متكررة وجليـة. والعديـد مـن كاتبيهـا يتمنون، عن وعي منهم أو بلا وعي، أن يؤكدوا براءتهم أمامي جزئياً وجزئيـاً، أمام سلطات الرقابة، وجزئياً أمام أنفسهم، ولاشك في أن عدداً قليلاً منهم فقـط لديه أسباب وجيهة لبذل هذه الجهود.

أذكر منهم، مثلاً المعارف القدامـى كلهـم الذيـن كـانوا قـد كـاتبوني طـوال سنوات ولكنهم توقفوا عن ذلك عندما اكتشفوا أني أتعرض لرقابة مشـددة، وأن تراسلهم معي قد تكون له عواقـب وخيمـة جـداً. والآن هـاهم يبلّغونـني بـأنهم لازالوا أحياء يرزقون، وأنهم لطالما تذكّروني بحب وحسدوني على حسن حظي لأني أعيش في جنة سويسرا، وأنهم، كما ولابـد أنـي أدرك، ولم يتعـاطفوا قـط مع أولئك النازيين الملاعين، غير أن الكثيرين من هؤلاء المعارف القدامـى كـانوا أعضاء في الحزب طوال سنين عديدة. والآن يحكون لي كيـف أنهـم طـوال تلـك السنين كلها كانوا يضعون قدماً في معسكر الاعتقال، واضطررت إلى أن أجيبهـم

بالقول: إن المناهضين الوحيدين للنازية الذين يمكنني أن آخذهم على محمل الجد هم الذين دخلوا بقدميهم الإثنين الى معسكر الاعتقال، وليس من وضعوا قدماً في المعسكر والقدم الأخرى في الحزب، وذكّرتهم أيضاً بأننا خلال سنوات الحرب توقعنا من الشياطين السُمْر، جيراننا الودودون، أن يسقطوا على «جنتنا السويسرية» بين دقيقة وأخرى، وأن السجون والمقاصل كانت تنتظر، هنا في عقر جنّتنا، المدرجة أسماؤهم بيننا، على اللائحة السوداء، وفي الوقت نفسه، يجب أن أعترف أن الذين كانوا يعيدون ترتيب البيت الأوروبي لم يكفوا عن إغرائنا نحن لخراف السوداء. وقد أذهلني زميل سويسري معروف عندما وجّه إلّي دعوة، في تاريخ متأخر، الى زوريخ على "حسابه" وذلك لمناقشة إدراج إسمي في عصبة المتعاونين الأوروبيين مع العدو، التي كانت قد أسّستها وزارة روزنبرغ.

ثم إن هناك البسطاء، الأعضاء السابقين في حركة الشباب، الذين كتبوا لي قائلين إنهم انضموا إلى الحزب نحو عام ١٩٣٤ بعد صراع داخلي حاد، لسبب واحد هو لكي يضيفوا ثقلاً مفيداً على العناصر البربرية، المتوحشة، ومالى ذلك.

وهناك آخرون لديهم عُقَدٌ خاصة فهم يعيشون في بؤس تام، ولديهم رسائل طويلة يعبرون فيها عن امتعاضهم من توماس مان وعن سخطهم من ارتباطي بعلاقة صداقة مع مثل ذاك الرجل.

ثمة مجموعة أخرى تتألف من زملاء سابقين، وأصدقاء دعموا صراحة وجهاراً تقدُّم هتلر الظافر طوال تلك السنين. والآن ها هم يكتبون إلى رسائل ودّية مؤثرة، يحكون لي فيها كل شيء عن حياتهم اليومية، عمّا سبّب لهم القصف من دمار وعن همومهم المنزلية، وأولادهم وأحفادهم، وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن حائلاً لم يقف بيننا، وكأنهم لم يساعدوا على قتل أصدقاء زوجتي وأقربائها وكانوا من اليهود، وعلى رمي ظلال الشك حول أعمالي كلها وتدميرها، لاأحد منهم يقول إنه نادم، إنه اليوم يرى الأشياء تحت ضوء مختلف تماماً، وإنه قد ضُلِّل. ولاأحد منهم يقول إنه كان نازياً وينوي أن يبقى كذلك، وإنه لايأسف على أي شيء وإنه يفي بعهده لمدافعه. أرني نازياً واحداً

أوفي بعهده لمدافعه عندما بدأت الأمور تتدهور! كم يثير هؤلاء الناس الاشمئزاز!

بعض من كاتبوني يتوقعون مني أن أنتقل بولائي الى ألمانيا، أن أرجع وأساعد في إعادة تثقيف الشعب. وغيرهم أكثر عدداً طلبوا مني أن أرفع صوتي في العالم الخارجي. أن أعبّر عن احتجاجي بوصفي حيادياً، إنسانياً على الجرائم التي ترتكبها القوى المحتلة أو اللامبالاة التي تبدي. كيف يمكنهم أن يكونوا على هذا القدر من السذاجة، والجهل التام بالعالم وتقلبات الزمن. وحمقى بشكل مؤثر ومحرج حتى الافراط!

لعل هذا السخف الصبياني أو الخبيث كله لايثير فيك حتى الدهشة، لعلك رأيتَ منه أكثر مما فعلتُ أنا. إنك تقول إنك كتبت لي رسالة طويلة تعرض فيها حالتك العقلية في بلدك التعيس لكنك بسبب الرقابة المفروضة لم ترسلها. حسن، لقد حاولت أن أعطيت فكرة عما يستهلك الجزء الأعظم من أيامي وساعاتي، وذلك جزئياً عن طريق شرح السبب الذي يحدوني الى نشر هذه الرسالة وطبعاً لا أستطيع أن أجيب على ركام الرسائل التي أتلقاها، والتي يطلب أصحابها في معظمها مني ويتوقعون المستحيل، غير أني شعرت أن بعضها لايستحق الإهمال، والى كاتبيها أوجه هذه الرسالة المنشورة، حتى وإن كان ذلك لمجرد أنهم سألوا بفيض من الكرم عن أحوالي.

إن رسالتك السارة لا تنتمي الى أي من الفئات التي ذكرت، إنها لاتحتوي على أي عبارة مقولبة وأيضاً - وهذه معجزة ألمانيا اليوم! - ولا على كلمة شكوى واحدة أو اتهام. لقد نقلتني رسالتك الكريمة والعاقلة، الى عالم من الراحة، وما ورد فيها عن حياتك ترك أبلغ الأثر عندي. إذن فأنت أيضاً، أسوة بصديقنا المخلص، تعرّضتَ مطولاً للمراقبة، ورُميتَ في سجون الغستابو، بل وحُكِمَ عليك بالموت! لقد تلبسني الرعب عندما سمعت عن هذا كله، خاصة وأن رسائلي على الرغم من كل ما أبديت من حذر، قد شكّلتْ ولابد نقطة أخرى في غير صالحك، لكن أخبارك لم تفاجئني كثيراً لأني لم أر فيك شخصاً يضع قدماً في سجن أو معتقل وأخرى في الحزب، ولم ينتبني ظل من الشك في أنك ستكون شجاعاً ويقظاً بشكل يليق ببصيرتك الصافية، وذكائك أو في

أنك تقف الموقف الصائب، لذا كـان من الجلـي أنـك سـتكون معرَّضاً لخطـر حقيقي.

في الواقع، ليس لدي الكثير أقوله لغالبية مراسليَّ من الألمان. إن الكثير مـن الأشياء لم تتغير قط منذ نهاية الحرب الكونية الأولى، ثم إني قد أصبحت أكبر سناً وأكثر ريبة، وكما أن أصدقائي من الألمان كلهم مُتَّحـدون اليوم في إدانتهـم لهتلر، كذلك عندئـذ، في الأيـام الأولى للجمهوريـة الألمانيـة، اتَّحـدوا في إدانـة النزوع الى العدوان، والحرب والعنف. لقد تآخوا معنا نحن المناهضون للحرب، متأخرين قليلاً ولكن باندفاع، وكنا نبجِّل غاندي وورولان كما نبجِّل القديسـين. وكان الشعار السائد هو "nie wieder krieg" ("كفانا حرباً"!) ولكن بعد بضع سنين جازف هتلر بإشعال انتفاضة ميونيخ. وعلى هـذا لاأسـتطيع أن أنظر الى الإجماع الحالي عبر إدانة هتلر بكثير من الجدية، فأنـا أرى أنـه لايقـدِّم أدنـى ضمان لحدوث تغيير سياسي جوهري، أو حتى وجود تبصُّر سياسـي، إلا أنـي أنظر بجدِّية، بجدِّية صارمة، إلى حدوث تغيُّر جوهـري، وتطهـير ونضج عنـد أولئك الأفراد الذين عثروا وسط المصاب الجلل، والعذاب العظيم والمُحرق طوال تلك السنين على الهدى الداخلي، الطريق المؤدية الى قلب العالم، الذين تعلَّمـوا أن يُنعِموا النظر في الحقيقة السـرمدية للحيـاة، هـؤلاء المنتبهـون مـن سُباتهم أحسَّوا اللغز الأكبر وخبروه وعانوه تماماً كما خبرته أنا خلال السـنوات المريـرة بدءاً بعام ١٩١٤، فيما عدا أنهم فعلوا ذلك وهم خاضعون لضغط أفـدح بكثـير، وفي خضم آلام أشد قسوة، ولاشك في أن عدداً لايحصى مـن الرجـال قـد انهـار واستسلم على الطريق المؤدية الى هذه التجربـة وهـذه اليقظـة، وقبـل أن يبلغـوا نضجهم.

من خلف الأسلاك الشـائكة لمعسـكر مخصَّص لسـجناء الحـرب في أفريقيـا يكتب قائد ألماني حول ذكرياته عن رواية دوستويفسكي "منزل الموتـى" وروايـة "سـدهارتا" ويحكي لي كيف أنه يحاول، في حمـأة حيـاةٍ بـلا رحمـة، لا تـترك فُسحةً للحظة من العزلة، أن يعثر على درب التأمل وأن ينفذ الى جوهر الأشياء وإن كان لم "يقرِّر بصـورة نهائيـة أن ينسـحب مـن مظـاهر الحيـاة السـطحية" وتكتب امرأة، كان الغستابو قد أودعها السـجن، فتقـول «لقـد علمـني السـجن

الشيء الكثير، ولم تعد هموم الحياة اليومية ترزح بثقلها علّي». هذه تجارب إيجابية، علامات من الحياة الحقيقية، وأستطيع أن أذكر المزيد من مثل هذه التصاريح لو أن لدي متسعاً من الوقت وقدرة بصرية لأعيد قراءة هذه الرسائل كلها.

تسألني كيف أتدبَّر أموري، وأجيبك بسرعة: لقد تقدَّمتُ في السن ونالني التعب، وتدمير أعمالي، الذي بدأ مع وزارات هتلر، وأكملته القنابل الاميركية، أضفى على سنواتي الأخيرة نبرة خيبة وحزن جهيرة، وعزائي هو أن ثمة نغماً صغيراً يعلو بين حين وآخر فوق النبرة الجهيرة، وأنه مازالت تمر عليّ أوقات أستطيع خلالها أن أستقر في السرمدي، ولكي يبقى جزء من أعمالي، أُعدُّ بين حين وآخر طبعة جديدة سويسرية لأحد الكتب الذي نفد من الأسواق سنوات عديدة، وهذه مجرد إيماءة لأن هذه الطبعات المُعادة لايمكن الحصول عليها طبعاً إلا في سويسرا.

إن الشيخوخة تجلب معها تصلُّب الأنسجة، وأحياناً يرفض دمي أن يروي دماغي كما ينبغي. ولكن ومع ذلك، إن لهذه الشرور جانبها الخيِّر، إن ردَّة فعل الإنسان على الأشياء لاتكون عنيفة، ويسُقِطْ من اهتمامه أشياء كثيرة، ويصبح منيعاً أمام ضربات ومضايقات معينة، وأن جزءاً من الكيان الذي كان ذات يوم أنا قد رحل إلى حيث سيذهب كله قريباً.

من بين الأشياء الخيِّرة التي مازالت قادراً علَى الاستمتاع بها، ومازالت تمدّني بالسرور وتعوضني عن الجانب المظلم، الدلالات النادرة ولكن المؤكدة الى أن ألمانيا الروحانية الأصيلة مازالت موجودة. إنني لا أبحث عنها ولاأعثر عليها في النشاط الهستيري لمُصنّعي الثقافة الحاليين وديموقراطيّي الأوقات الملائمة فقط ولكن في تلك المظاهر المُرضية للتصميم واليقظة، والشجاعة، للإرادة الطيبة والثقة في النفس المجردة من الأوهام كرسالتك، إنني أشكرك عليها. احفظ البذرة، احتفظ بإيمانك بالنور وبالروح. أمثالك قليلون جداً، ولكن لعلكم تشكلون ملح الأرض.

* * *

رسالة إلى مأدبة جائزة نوبل

عام ١٩٤٦

إنني بعرضي لمشاعري وتقديمي تحياتي واحترامي إنما أود أولاً، قبل أي شيء، أن أعبّر عن أسفي لعدم تمكني من أن أكون ضيفكم، لأحييكم وأشكركم شخصياً، فلطالما كانت صحتي سقيمة وقد عَمِلَتْ الأوقات العصيبة التي مررت بها خلال فترة حكم الحزب الاشتراكي القومي، حين دُمِّرتْ أعمالي كلها في ألمانيا وكنت أحترق يوماً بعد يوم بأداء الواجبات الشاقة، عملَتْ على نسفها إلى الإبد. ومع ذلك، إن روحي صامدة، وأشعرني متفقاً معكم، تماماً حول الفكرة التي قامت عليها مؤسسة نوبل، الفكرة القائلة إن الثقافة تتخطى المشاعر القومية والعالمية، وألتزم بخدمة السلام والتصالح وليس الحرب والدمار. إنكم بتكريمي بجائزة نوبل، إنما كرَّمتم في الوقت نفسه اللغة الألمانية والمساهمة الألمانية في الثقافة العالمية. إنني أرى في هذا لفتةَ استرضاء وارادة طيبة، خطوة نحو إعادة التعاون الثقافي بين الشعوب وتوسيعه.

لكن مَثَلي الأعلى ليس التماثُل الثقافي التي تنمحي في ظله الخصائص القومية. بتاتاً. إنني على طول الخط مع التنوع، والتبايُن والتدرُّج، على أرضنا الحبيبة! رائع أن يوجد عدد كبير من الأعراق والأمم، واللغات، وتنوعات كثيرة في العقلية والاستشراف. وإذا كنت أكره الحرب وإخضاع الشعوب والاستيلاء على الأراضي وأناهضها بعناد فذلك جزئياً لأنها تسببت في تدمير الكثير من شخصية الحضارة الانسانية وتبايُنها المحدّدين تاريخياً. إنني عدو «للمبسطين الكبار» وعاشق للجودة، للشكل العضوي وللفذ. وهكذا، بما أن ضيفكم وزميلكم المعتن، أمدُّ يدي إلى بلدكم السويد، بلغتها وثقافتها، بتاريخها الأبي، الثري، والطاقة التي حافظت بواسطتها وطوَّرتْ شخصيتها القومية.

إنني لم أذهب قط الى السويد، ولكن عليّ مرّ السنين وصلني عدد كبير من عرابين الصداقة من بلدكم. أوّلها، والذي تلقّيته قبل أربعين عاماً، كان كتاباً سويدياً، الطبعة الأولى من «أساطير المسيح» وعليه إهداء، مكتوب بخط يد سلما لاغرلوف[1] وعلى امتداد السنين عقدت عدداً من المقايضات القيّمة مع بلدكم. توّجتُها هذه الهبة العظيمة الأخيرة التي فاجأتموني بها، وأقدم لها عميق شكري.

[1] سلما لاغرلوف (١٨٥٨ – ١٩٤٠): كاتبة سويدية، نالت جائزة نوبل للآداب عام ١٩٠٩، أشهر كتبها رواية للأطفال عنوانها "مغامرات نيلز الرائعة".

كلمات في الشكر الوعظي

عام ١٩٤٦

أود من خلال هذه الأسطر أن أعبِّر عن شكري لأولئك الذين هنّأوني بمناسبة نيلي جائزة غوتة، لقد اختلطت عليّ مشاعري وأفكاري عندما تلقيت هذه التهاني كثيراً حتى صَعُبَ عليَّ أن أعبِّر عنها حتى ولو جزئياً. إنني أطلب من أصدقائي أن يتلقّوا النتيجة بتساهل.

لاريب في أن بعضكم مندهش أو حتى منزعج لأنني قبلت هذا الشرف، والحقيقة هي أن ردّة فعلي الأولى الغريزية الصرف لم تكن نعم وإنما لا. وردّة فعلي اللاواعية برزت فجأة من اعتبارات مثل: إن القبول سوف يشكّل عبئاً ثقيلاً على كاهل رجل عجوز يرزح لتوه تحت مايحمل. زيادة على ذلك. كان سيبدو أشبه بنوع من التصالح مع ألمانيا الرسمية، وسيبدو غريباً وزائفاً حقاً أن أقبل هذه الجائزة كنوع من الجزاء والتسوية من بلد أشارك بشكل كامل وللمرة الثانية في إفلاسه، بلد أستأمنته على عمل حياتي فدمَّره، لقد قلت لنفسي للوهلة الأولى. كلا، إن ما أتوقعه بشكل معقول وأطلبه من ألمانيا هو من أبسط حقوقي، هو رد اعتباري من العار الذي ألصقه بي كلٌ من غوبلز وروزنبرغ، وإعادة أعمالي إليّ، أو على الأقل جزء منها، وأيضاً، وهذا أبسط الإجراءات وأشدها بداهة، تعويضٌ ماليّ عما حل بأعمالي. غير أن ألمانيا التي في طاقتها أن تقدِّم لي هذا لم يعد لها وجود.

ثم، كم كانت الصلات بين هذا الشعب العظيم، المحيِّر والنزوي، وبيني، منذ الحرب الكوونية الأولى، شائكة ومعقدة، كم كانت ذات حدّين وصعبة ـ وحتى بالأمس القريب، وقبل أن أقرر إن كنت سأقبل الجائزة أم لا، وصلتني كومة أخرى من الرسائل المهينة من ألمانيا، وقد فاجأتني بكونها تعبيراً وافياً

عن العلاقة القائمة بيني وبين هذا الشعب الذي كانت لغته هي أداتي وموطني الروحي، والذي كنت أنظر الى سلوكه السياسي في العالم بعين الاستياء المضطرد منذ عام ١٩١٤ وكثيراً ما علقتُ عليه.

لكني ما إن مابدأتُ أفكّر في ردود الفعل الأولية هذه حتى ظهرت نقاشات لاتقلّ عنها جودة على الجانب الآخر. إن الجائزة لم تُقدِّمها إليّ تلك «الألمانيا» التي لم يعد لها وجود، وإنما مدينة فرانكفورت العزيزة الجميمة، والديموقراطية المتينة، بثقافتها اليهودية الواضحة، مدينة طالما أبغضها آل هوهنتزولرن[1] بغضاً تاماً منذ اللقاءات التي تمت في كنيسة القديس بولس، وأيضاً لجنةٌ تصرَّفتْ تصرفاً مشرِّفاً وبشجاعة حقيقية تحت ضغط عهد هتلر، وكانت بلا ريب تعي جيداً أنها بانتقائي سوف تربي أعداءً من بين تلك المجموعة التي وصلتني منها الرسائل المشبَّعة بالحقد، الوطنيين المتعصبين الذين دُحِروا لحظةً لكنهم لم ينتهوا قط من العالم.

طبعاً ماكان من الممكن أن اقبل الجائزة لو كانت تنطوي على أي ميزة مادّية لي شخصياً. ولكن ليس هذا هو المهم، سوف يبقى المال في ألمانيا وسوف يتم توزيعه كهبة.

إن الجوائز ومظاهر التكريم ليست بالضبط كما تبدو لنا في سنوات عمرنا المبكّرة. فهي بالنسبة الى المستفيد منها ليست مصدر سرور ولا مناسبة بهيجة، ولا مكافأة مستحقة. إنها مركب صغير من الظاهرة المعقدة - الناتجة الى حد بعيد عن سوء فهم بعض الأمور - المعروفة تحت اسم الشهرة، ويجب تقبُّلها كما هي: أي محاولات من جانب العالم الرسمي للتغلب على حرجه في حضور انجازات غير رسمية. وعند كلا الجانبين هي لفتة رمزية، تعبير عن التنشئة والسلوك الجيدين.

إن تسمية هذه الجائزة باسم غوتة تجعل من المستحيل على متلقّيها أن يشعر أنه يستحقها. ومن غير المتوقع أن يكون الكثير من الفائزين السابقين

---

[1] آل هوهنتزولرت: عائلة حاكمة حكمت على التوالي براندنبرغ، وبروسيا وألمانيا، بدءاً بأوائل القرن الخامس عشر وحتى عام ١٩١٨.

بالجائزة قد شعروا باستحقاقهم لها، إننا نحن أبناء عهدٍ كارثيّ، لانستطيع أن نضع أنفسنا على سوية واحدة سواء مع غوته الشاعر أو مع غوته الانسان. ومع ذلك. أذكرُ وأنا أبتسم بعضاً من ملاحظاته حول شخصية الألمان، وأحيانا يبدو لي أنه لو كان غوته معاصراً لنا لاتفق الى حد ما مع تشخيصي لأخطر مرضين يصيبان عصرنا، ذلك أن الحالة الراهنة للجنس البشري، في، رأيي، تنشأ من عِلّتين عقليتين: جنون العظمة في مجال التكنولوجيا، وجنون عظمة في مجال الوعي القومي. وهما اللتان أعطتا العالم المعاصر وجهه وتصوره لذاته. لقد كانتا المسؤولتين عن نشوب حربين عالميتين وعن عواقبهما، وقبل أن يخمد أوارهما سوف تنتج عنهما عواقب مماثلة.

واليوم، إن أهم مهمة تنتظر الروح الانسانية ومبرِّر وجودها هما مقاومة هاتين العلتين العالميتين. ولهذه المقاومة كرّستُ حياتي، جعلتها مويجة في جدول ماء.

كفى من الجانب الأخلاقي. إن العالم، بالنسبة إلينا نحن العجائز، خاصة عندما نكون كذلك بالمعنى السيء، هو في المقام الأول ظاهرة ومشكلة أخلاقيتان، ووجهه شنيع ومكفهر، لكن طفلاً، أو مؤمناً بالله تقياً، شاعراً أو فيلسوفاً، يرى عالماً مختلفاً جداً، عالماً بألف وجه ووجه، بعضها جميل جمالاً خارقاً. وإذا كنت اليوم أقول بعض الكلام الأخلاقي، مستفيداً من أمتياز العجائز الاعتيادي، فأرجوكم لاتنسوا أني غداً أو بعد غد، على هذا الجانب من القبر أو ذاك، قد أغدو شاعراً أو مؤمناً تقياً، أو أعود طفلاً، وسأكفُّ عن اعتبار العالم والتاريخ مشكلة أخلاقية لكني مرة أخرى سأراهما كدراما قُدسية سرمدية وكتاباً مصوّراً.

وقد تعود أوروبا المحتضرة، بعد أن تتخلّى تماماً عن دورها الرئيسي والفعال، إلى مكانتها الرفيعة السابقة وتصبح مرة أخرى خزّاناً هادئاً، كنزاً من الذكريات النبيلة، ملاذاً للأرواح تقريباً بالمعنى نفسه الذي يقرنه أصدقائي بالكلمة السحرية «الشرق».

إلى زميل شاب في اليابان

عام ١٩٤٧

زميلي العزيز،

رسالتك الطويلة التي وصلتني في شهر كانون ثاني، في وقتِ إزهار الكرز، كانت أول كلمة ترحيب تجد طريقها إلّي من بلدك بعد سنين من الصمت. وأرى على ضوء عدد من الإشارات أن رسالتك الترحيبية وتعاطفك وحسب تعبيرك، يأتيان من عالم اهتزّ بعنف، عالم ارتدّ ظاهرياً إلى العماء، وفي بلدي التي نُحسد عليها بوصفها "جزيرة سلام" تأمل في أن تعثر على عالم روحاني مازال بكراً، على سلسلة مقبولة ومعمول بها من القيم. أنت على حق بمعنى ما، إن رسالتك الفياضة بالعواطف التي يبعث فيها الايمانُ والأسى الحياةَ على الفور، كُتِبَتْ وسط أطلال مدينة كبيرة حيث كان من الصعب حتى الحصول على ورقة ومغلّف. وقد وصلتْ إلى هنا بيدِ ساعيةٍ بريد ريفية ودود، وسط سكينة منزل وقرية لم ينالهما الدمار، في وقت تغمر وادينا كله براعم الكرز ويمكن سماع تغريد العصافير طوال النهار. وبما أن رسالتك هي رسالة شاب إلى رجل عجوز، فقد جاءت إلى مكان حيث، أيضاً بالمعنى الروحي، لاوجود للعماء فيه وإنما نظام واستقرار أكيدين. إلا أن هذا النظام والاستقرار ليسا نتاج الوضع العام في العالم الغربي، أو إرث من الإيمان والعُرف مُصانٌ إلى حد ما، لكنهما نشأآ بالأحرى من التقليد الباقي على قيد الحياة وسط العماء في الوجود المعزول لفرد واحد، هنا في هذا البلد يوجد الكثيرون من أمثال هذا الفرد، عجائز ذوو خلفية ثقافية محترمة، وعلى العموم ليسوا مضطَهَدين أو حتى يتعرضوا للإزدراء والسخرية؛ على العكس، إنهم محترمون، وأقرانهم من المواطنين يستمتعون بصحبتهم ويحافظون عليهم وسط أفول القيم، تماماً كما

يحافظون على أنواع تنقرض من الحيوانـات في المنتزهـات الوطنيـة، بـل إنهـم أحياناً يفخرون بنا ويساندوننا بوصفنا إرثاً غريباً، وصرفاً، لاوجـود لـه في دول جديدة ناشئة كروسيا والولايات المتحدة. أما نحن الشعراء والمفكـرون والمؤمنـون العجائز فلم نعد رأس العالم الغربي وقلبه، إننا آثار متبقية من سلالة تحتضـر، لانلقى نظرة جادة إلا من أنفسنا، ولا ذُرِّية لنا.

والآن لنعد الى رسالتك. إنك تتحدث عن هموم أجدُهـا سطحية. تعبِّر عـن سخطٍ شديد لأن رفاقك من الطلاب لايعتبرونني، كمـا تفعـل أنـت، بطـلاً مـن أبطال الحرية وشهيداً في سبيلها وإنما مجرد كاتب عاطفي متواضع من جنـوب ألمانيا. إنك وإياهم على حق وعلى خطأ؛ ولا مـبرِّر لتنـاول مثـل هـذا التصييـغ بجدية. أو بالأحرى، لامبرِّر لتصحيح رأي رفاقك فيَّ، إذ سواء أكـان حكمهـم صائباً أم خاطئاً فإن ذلك لايؤذي أحداً. ومن ناحية أخـرى، يـازميلي العزيـز، إن رأيـك فيَّ وتقييمـك لي يستدعيان التمحيـص والتصحيـح لأنهـمـا قـد يسـببا الأذى، إنك لست مجرد قارىء شاب وضع يديه في لحظـة تفتـحٍ خاصـة علـى بضعة كتب يحبها، ويمتنّ لها، ويقدِّرها ويغالي في تقديرها، هذا مـن حـق كـل قارىء. وكل قارىء مرشَّح تمامـاً لعبـادة كتـاب أو مقتـه، وهـذا لايـؤذي أحـداً لكنك لست مجرد قارىء شاب متحمس، أنت، كما أخـبرتني بنفسـك، زميـل شاب لي، كاتب في بداية طريقـه، شـاب يحـب الأصيـل والجميـل ويشـعر أن داعياً يدعـوه الى جلـب النـور والحقيقـة الى النـاس.. وفي رأيـي أن مـاهو مبـاح لقارىء ساذج ليس مباحاً لقارىء ناشيء، لإنسان سوف يكتب هو نفسه الكتب وينشرها، لذا لايحق لـه أن يعبـد بـلا تمييز الكتـب والمؤلفين الذيـن يثـيرون إعجابه، هذا إذا لم نقل إنه يتخذهم أمثلة تحتذى. طبعاً إن حبك لكتبي ليـس إثماً، لكنه بلا تمييز ومتطرف وبالتالي لايفيدك كثيراً ككاتب. إنك تـرى فيَّ مـا تتمنى أنت نفسك أن تكونه، وتعتقد أني جديـر بـأن أقلِّد وأُحـاكى: تـرى فيَّ بطلَ الحقيقة، وحاملَ المِشْعَل وجالبَ النور المُلهَمْ من الله إذا لم نقل أني النـور نفسه. وهذا كما سترى قريبـاً ليـس فقـط مبالغـة ومثاليـة صبيانيـة، إنـه خطـأ أساسي. دع القارىء الساذج الذي لاتعني الكتب له الشيء الكثير، يرى مايشاء في الكاتب، لايهم، مهما يقـول سـيكون كلامـاً تافهـاً، إن الأمـر أشـبه برجـل

لايمكنه أن يبني حتى سقيفة حطب مهما طـال عمره ومع ذلـك يستفيض في الحديث عن العمارة، لكن كاتباً شاباً يقع في حبٍ مشبوه مع مؤلفيه المفضّلـين، ومترعاً بالمثالية وأيضاً بالطموح، بلا وعي منه دون شك، ويحمل أفكاراً خاطئـة بشكل جذري عن الكتـب والأدب، لايخلـو من أذى، إنـه خطـر، ويمكـن أن يسبِّب الأذى وأول مَن يصيبه الأذى هو نفسه، لهذا تراني أجيب عن رسـالتك الرقيقة والمؤثِّرة ليس ببطاقةٍ بريدية مصوَّرة وديّة وإنما بهذه السطور. وبمـا أنـك ستغدو كاتباً فإنك تتحمل مسؤوليةً أمام نفسك وأمام قرائك المقبلين.

إن البطل وجالب النور الذي تراه في مؤلِّفك المفضّل الحـالي والـذي تـأمُلُ في أن تصبح مثله هـو شخصية بـارزة لاآبـه لهـا. إن كونـك نشـأت علـى أرضـك الشرقية لهو أمر غاية في الجمال، والخواء، والرفعة، وفوق ذلك كله هو شـديد «الشرقية» .

إن المؤلف الذي أيقظك أو منحك بصيرة لاهو نورٌ ولا حامل مشعل؛ إنـه في أحسن الأحوال نافذة يمكن للنور أن يسطع من خلالهـا علـى القـارىء وغايتـه لاعلاقة لها بأي حال بالبطولة، وبالأهداف النبيلة، أو بالبرامج المثالية؛ عملـه الوحيد هو عمل نافذة، لا لكي يقف في طريق النـور بـل ليـدع النـور يمـر ربمـا سيتوق الى أن يقوم بانجازات نبيلة، أن يصبح محسناً للإنسـانية، وهـذا التـوق نفسه قد يتسبَّب في دماره - ويمنعه من السماح للنور بالدخول. يجب ألا يكـون مرشده وحافزه هو الكبرياء أو الكفاح المحمـوم مـن أجـل الاتضـاع، وإنمـا فقـط حب النور، الانفتاح الى الواقع والحقيقة.

ينبغي ألا يكون ضرورياً أن أذكّرك بهذا، فلا أنت همجي ولاضحيـة تربيـة خاطئة وإنما أنت موالي لبوذيّة زن. إذن فـأنت مؤمـن، لديـك مرشـد للانضبـاط الروحي قلّ نظيره في تعليم الناس كيـف يسـمحون بدخـول النـور، ويتفتّحـون للحقيقة، هذا المرشد سوف يوصلك الى أبعد مما يفعـل أي مـن كتبنـا الغربيـة. وبعضها يحمل إليك الآن سحراً طاغياً. إن أضمـر احترامـاً عظيمـاً لفلسـفة زن. أكثر مما أضمره لمُثُلك العليا المتأوربة[1]. إن زن، كمـا تعـرف أكـثر مـني، هـي

---

[1] المتأوربة: ذات الطابع الأوروبي.

مدرسة رائعة للعقل وللقلب، هنا في الغرب لدينا حفنة من التقاليد المشابهة، لكننا لانُحسِنْ المحافظة عليها، إن لدينا، أنت وأنا، شاب ياباني وأوروبي عجوز، طريقة غريبة في نظر كلٌ منا الى الآخر، نحن الاثنان نشعر بالتعاطف، لاأحد منا منيع أمام سحر أجنبي معين موجود عند الآخر، كلٌ منا يشكّ في أن الآخر يمتلك شيئاً يعجز هو نفسه عن الإحاطة به بشكل كامل. أشعر بالثقة في أن فلسفة زن سوف تحميك من مثل هذه المجلوبية[1]. والمثالية الزائفة، تماماً كما أن المدرسة الكلاسيكية العريقة الجيدة والديانة المسيحية يحرِّمان عليَّ أن أدير ظهري، بأساً من وضعنا الروحي، للعُرف الذي ظل حتى الآن يؤازرني، وأن أرتمي بين أحضان اليوغا الهندي أو أي نظام آخر. ولاأنكر أني أحياناً أتعرض لمثل هذا الاغواء. ولكن على الرغم من سحر أنظمة الانضباط الشرقي، إلا أن ثقافتي الأوروبية تعلّمني ألا أضع ثقتي في جوانبها التي لاأفهمها أو لاأفهمها إلا جزئياً وأن أقتصر على ذلك الجانب منها الذي نجحتُ فعلاً في فهمه. وذاك الجانب له صلة وثيقة بتعاليم وتجربة وطني الروحي.

إن البوذية في قالب زن، القالب الذي تعرفها به، سوف تكون مرشدك، وسندك، ماحييت. سوف تساعدك على تفادي الغرق في العماء الذي تفجّر فوق العالم. لكنها قد تضعك أحياناً في حالةِ صراعٍ مع خططك الأدبية. إن الأدب انشغالٌ خطر بالنسبة الى رجل ذي ثقافة دينية جيدة. وعلى الكاتب أن يؤمن بالنور، ينبغي أن يعرفه عبر تجربةٍ لاجدال حولها، وأن يكون منفتحاً قدر الإمكان أمامه، ولكن يجب ألا يعتبر نفسه جالباً للنور وحتماً ليس النور نفسه. لأنه إن فعل ذلك سوف تغلق النافذة ويتوجه النور، الذي ليس في حاجة إلينا، الى طريق أخرى.

(حاشية، أُضيفت بعد بضعة أيام)

إن طرداً يضمُّ بعض المطبوعات كنتُ قد أرسلته إليك قبل أيام مع أصل هذه الرسالة أعادهما مكتب البريد إليّ بوصفهما غير مقبولين. أيُ عالمٍ غريب نعيش فيه! أنت، مواطن في بلد مهزوم ويحتلّه المنتصر، استعطتَ أن ترُسل إليّ رسالةً

---

[1] المجلوبية: كون الشيء مجلوباً من الخارج أو دخيلاً أو غريباً. ــ المترجم ــ

من ثماني عشرة صفحة، أما أنا، مجرد مواطن في بلد حيادي، فلا يُسمحُ لي أن أبعث إليك برسالة جوابية. ولكن مَنْ يدري قد تصلك هذه التحية ذات يوم عبر الصحافة.

* * *

محاولة تبرير

رسالتان بخصوص فلسطين

جنوا، ٢٢ أيار ١٩٤٨

عزيزي هرمان هسه:

قبل أن أستقل متن السفينة التي ستعيدني إلى بلدتي حيفا، أود أن أتقدَّم منك بطلب.

أتمنى منك وحدك أو مع مجموعة من الكُتّاب العالميين، أن ترفع صوتك في هذه الساعة المأساوية من التاريخ اليهودي! إن الغزو، الذي يُلقي الضوء على ماخلقه كفاحٌ ايثاريّ ولاهوادة فيه لأجيال كثيرة - أقصد المستوطنات، تلك الجزر الحقيقية من النقاء الإنساني[1] والمدن بسكانها ومكتباتها، ليس فقط يهدِّد مواقع عزيزة على البشرية جمعاء، - لكنه أيضاً سيعمل على تدمير نوادر الكتب المطبوعة[2] والمخطوطات في القدس وفي تل أبيب، إذا لم يتدخل العالم

---

[1] من الواضح تماماً أن ماكس برود هذا ليس أكثر من صهيوني آخر ويتبع أساليب الصهاينة المخادع ليبدو أمام أنظار العالم المدافع عن الكنوز الإنسانية، في حين يغفل تماماً عن ذكر المذابح التي تمت في عام ١٩٤٨ وماقبله ومابعده على أيدي «الغزو» الذي يذكره فقط ليبدي خشيته على بعض الأعمال الأدبية من الدمار إن مايهمنا من هاتين الرسالتين ردّ هرمن هسه على هذا النداء الإنساني الكاذب والذي رفض هسه أن يلبيّه، بل ووصفه بأنه كاذب، وهو ردّ أعمق، ويتجاوز كل السياسات الضيقة – المترجم.

[2] الكلمة المستخدمة هنا تعني بالضبط الكتب المطبوعة قبل عام ١٥٠٠ في أوروبا – أي في أول عهد الطباعة.

المتحضر، ولكن أعطيت مثلاً أذكر أن من بينهـا كـامل الأعمـال غـير المطبوعـة لنوفاليس وفرانتز كافكا، وبالإضافة الى أنفـس اللوحـات الفنيـة، والمجموعـات العلمية. إن على مثقفي الأمم كافة أن يبذلوا أقصى الجهود لمنع وقوع مثل هـذا الأمر وأن يعملوا على عودة السلام.

إنني مقتنع بأنه سيكون لِصوتك أبلغ الأثر في استنتهاض الضمـير الإنسـاني من سُباته العميق.

ماكس برود

مونتانيولا، ٢٥ أيار ١٩٤٨

عزيزي هر برود:

في كل يوم تقريباً يجلب لي البريد حفنة من الطلبـات، وأغلبهـا قـادم مـن ألمانيا. أحدهم مريض ويجب أن يذهب الى مصح ليحظى بالرعاية اللازمة وآخر كاتب، أو عالم، أو فنان، يشارك غرفة واحدة مـع ثلاثـة أشـخاص آخريـن أو أربعة منذ سنوات وليس عنده حتى طاولة، فليتني أنقذه، لابد له مـن معيـل، حتى ولو لفترة قصيرة، مع فسـحة مكـان وهـدوء وسـكينه. ويكتـب لي أحدهـم قائلاً: «إن أقل كلمة منك تكفي لجعل وكالات الخدمة الاجتماعية تهبُّ لمدّ يد المساعدة». ويقول آخر «كلمة واحدة منك إلى السلطات السويسرية كفيلة بتوفـير تأشيرة دخول وتصريح بالعمل وربما حتى حق الحصول على المواطنيـة». وكـرد على هذه الرسائل كلها لايسعني إلا أن أقول أنه في بلدنا لن تحرّك كلمـة مـني السلطات ولا أي مؤسسة، لا مصحة ولا حتى دكان خبـاز كـي يعطـي لإنسـان جائع، بغـض النظـر عمَّـن يكـون، ولا حتـى وجبـة واحـدة. إن إيمـان أولئك المتلمسين الأحمق بوجود ساحر يكفي أن يرفع إصبعـه لكـي يحـوّل البـؤس إلى سعادة أو الحرب إلى سلام، هذا الإيمان يذهلني ويحزنني.

والآن ها أنت ذا، الصديق القديم لكافكا المأساوي حتى الأعماق، تتوجه إليَّ لأمر مشابه، وهذه المرة عليَّ أن أعين ليس فقط شخصاً أو بضعـة أشـخاص بـل شعباً بأكمله وأساعد «على استعادة السلام» زيادة على ذلك. إن الفكـرة برمتهـا ترعبني، لأني يجب أن أعترف بأني لا أؤمن البتة بتحرُّك المثقفين القَلِقْ أو في حسن نية «العالم المتحضر». إن العقـل لا يُحسَبْ بالكميّـة ولا فـائدة إن ناشـد

عشرة أو مئة من «المنارات الكبرى» الأقوياء لكي يفعلوا أو لايفعلوا شيئاً، فمثل هذه المناشدة أيضاً لاأمل يُرجى من ورائه، ولو أنك قبل سنين عديدة وجهت مناشدة للجماعات الارهابية الشابة في بلدك, تثير فيهم المشاعر الانسانية والتقوى. واللاعنف، لأخبروك بعبارات واثقة عن رأي الناشطين المسلحين في هذه المُثُل العليا.

كلا، على الرغم من نبل قصدك، لا أستطيع أن أشاركك موقفك، على العكس. إنني أعتبر كل تحرُّك «روحي» كاذب. كل التماس أو موعظة أو تهديد يوجهه المثقفون إلى سادة الأرض، لايقل زيفاً وإيذاءاً وحطّاً من قدر الروح. ويجب تجنّبه تحت أي ظرف كان. إن مملكتنا، ياعزيزي ماكس برود، ببساطة «ليست من هذا العالم». وعملنا ليس أن نعظ أو نأمر أو نناشد وإنما أن نصمد وسط الجُحُم[1] والشياطين. إننا لانستطيع أن نتوقع أن نمارس أدنى تأثير باستغلاله شهرتنا أو من خلال التحرك المهتم لأكبر عدد ممكن من أقراننا، ولاشك في أننا على المدى الطويل سنكون دائما الفائزين، سوف يبقى شيء منا بعد أن يُنْسى وزراء هذه الأيام وجنرالاتها كلهم، ولكن على المدى القصير، الآني، نحن مخلوقات مسكينة، ولن يحلم العالم أن يدعنا نشارك، في لعبته، وإذا كان لنا نحن الشعراء والمفكرون أي أهمية فذلك فقط لأننا مخلوقات بشرية. لأننا على الرغم من أخطائنا كلها لدينا قلوب وعقول وفهم أخوي لكل ماهو طبيعي ومتناسق. إن سلطة الوزراء وباقي صُنّاع السياسة لاتقوم على أساس هُدى القلب أو العقل وإنما على أكتاب الجماهير الذين «يمثلونهم». إنهم يعملون باستخدام شيء لا نستطيع ولا ينبغي أن نلجأ إلى استخدامه، إنه الرقم، والكمية وهذا الحقل يجب أن نتركه لهم. ويجب ألا ننسى أنه حتى هم يجدون صعوبة فيه، بل إنهم أسوأ منا في هذا المجال، ذلك لأنهم لايتحلون بالذكاء، بالقلق الدائم، وبتوازن خاص بهم، ولكنهم ينجرفون، يُضربون، وأخيراً تطيح بهم ملايين الجماهير التي انتخبتهم. وهذا لايعني أنهم لايتأثرون بالأحداث الشنيعة التي تجري تحت أنظارهم وجزئياً نتيجة

---

[1] جحم: جمع جحيم.

أخطائهم، بل إنهم يُصابون بارتباكٍ شديد. لكن لديهم قوانينهم الخاصة التي تحميهم وقد تخفف من شدة وطأة مسؤوليتهم. ونحن معشر حماة الجوهر الروحي، خُدَّام الكلمة والحقيقة، نراقبهم بكثير من الشعور بالشفقة وبالرعب، لكننا لانعتقد أن قوانيننا الخاصة هي أكثر من مجرد قوانين خاصة بنا؛ إنها وصايا حقيقية، نواميس علوية وسرمدية، ومهمتنا هي حمايتها ونحن نعُرِّض هذه المهمة للخطر في كل مرة نوافق، حتى ونحن نضمر أنبل النوايا، على أن نلعب وفقاً «لقوانينهم».

أعلم أن هذا التصريح الفظ سوف يقود بعض المفكرين السطحيين الى الاعتقاد أني أحد أولئك الفنانين الحالمين الذين يؤمنون بأن الفن لاعلاقة له بالسياسات، وبأن على الفنان ألا يعيش في برج عاجي جمالي مخافة أن يخرِّب رؤياه بالاتصال بالواقع الفج، أو أن يوسِّخ يديه. أعرف أني لست في حاجة إلى أن أدافع عن نفسي أمامك في هذا المجال. فمنذ أن أيقظتني الحرب العالمي الأولى بلا رحمة على الواقع، رفعتُ صوتي مراراً وكرَّست الردح الأكبر من حياتي لتحمُّل المسؤولية التي كانت قد ألقيت على كاهلي. لكني لطالما التزمت بصرامة بالحدود بوصفي كاتباً فإني أُذكِّر قرَّائي مراراً وتكراراً بالوصايا العشر الأساسية التي نزلت على البشرية، لكني أنا نفسي لم أحاول قط أن أمارس تأثيراً على السياسة، لم أُوقِّع قط على أي من مئات البلاغات والاحتجاجات، وصرخات التحذير الرصينة، ولكن العقيمة التي لاينى مثقفونا يُصدرونها للإضرار بالقضية الهادفة إلى خير المجتمع. ولاأنوي أن أفعل ذلك.

على الرغم من أني لم أكن قادراً على الاستجابة لطلبك إلا أني بذلت، كما ترى، أقصى جهدي إلى أشخاص آخرين وذلك عن طريق نشر رسالتك وجوابي.

المخلص

هرمن هسه

عن رومان رولان*

عام ١٩٤٨

كلنا يعرف الدور الذي لعبه ليو تولستوي في التطور المبكر لرومان رولان. لقد تعامل الرجل العجوز بجدية مع رسالة الفتى وردّ عليها، أجاب الرجل الشهير بكل رصانة وحب عن أسئلة تلميذ المدرسة، واستجاب كأب وكأخ للسيل المتدفق العنيف من الفتى المضطرب. وقد أدى الحكيم الجليل، بفعله ذلك، عملاً سحرياً ومقدساً، عمل إرسال نداء. وفي سياق حياته الثرية والمثمرة قُدِّر لرومان رولان أن يؤدي هذا العمل بالذات عدداً من المرات. وبعد أن أصبح عجوزاً وعثر على طريقه، أصبح يشجِّع الشبان الباحثين، ومإن يقتنع بحسن نواياهم، فإنه يرسل إليهم نداءً. وكموقظ، وناصح، ورفيق كفاح، كان ذا عون للباحثين الرصينين من جيله هو والجيلين اللاحقين. لقد صان شُعلةً لم تنطفىء بعد، وحتى في ألمانيا، حيث خلال أيام الرعب كانت كتبه الممنوعة تشحذ أبصار وضمائر قِلَّة مخلصة وتُثبِّت قلوبها. إنني مازلت أستقبل أشخاصاً من ألمانيا يذكرونني برولان، ويسألوني عن ذكرياتي الشخصية عنه ويطلبون كتبه.

هناك الكثير من المؤمنين الورعين خارج الكنائس والطوائف، منتشرين في كل أرجاء العالم، رجال حسنوالنوايا يصابون برعب حقيقي جراء انحدار الروح الانسانية، وتبديد السلام والثقة في العالم. هؤلاء الأشخاص ليس لديهم رجال دين أو وسائل تعزية كنسية، ولكن هم أيضاً لديهم أصواتهم تصرخ في البرية،

---

*كتبت هذه المقالة في نهاية عام ١٩٤٨ لكي تقدم في برنامج يذاع في إذاعة باريس في ذكرى رولان.

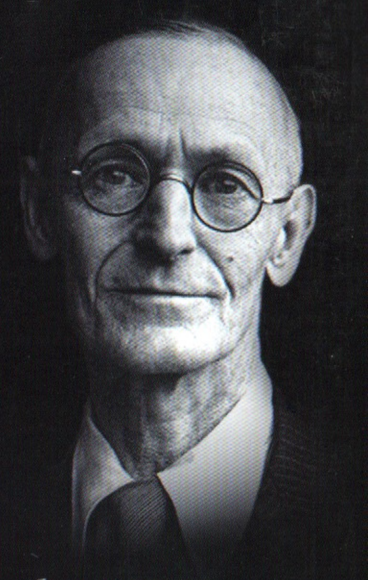
وقديسيهم وشهداءهم، رومان رولان هو أحد هـؤلاء، وليـو تولسـتوي: موقظـه، ومهاتما غاندي، رفيقـه وصديقـه. هـؤلاء المعـزَّون الثلاثـة العظـام مـاتوا لكنهـم مـازالوا أحيـاء في قلـوب الآلاف، إنهـم يسـاعدون الآلاف للاحتفـاظ بإيمـانهم وليرفعوا مشاعلهم لتنوير العالم البليد والفاقد العقل.

انتهى

* * *

بدءاً بـ «ذئب السهوب» التي كانت جزئياً صرخة تحذير مكروبة ضد الحرب القادمة، وقد تعرضت لهذا السبب للهجوم وللسخرية، وحتى لعبة الكريات الزجاجية، بعَالم صورها الذي يبدو ظاهرياً حتى الآن بعيداً عن الوقائع الجارية، سوف يُقابل القارئ هذا الشعور مراراً وتكراراً، وقد تسمع نبرة الصوت ذاتها تتردد في قصائدي.

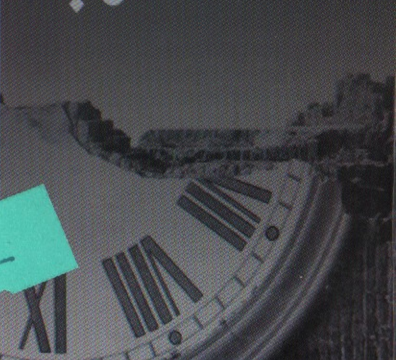
عندما أقول عن مقالاتي إنها «سياسية» فإني دائماً أضعها بين أقواس، إذ ليس فيها من السياسة غير جوّها العام الذي خُلقَتْ فيه. أما من النواحي الأخرى فهي مناقضة للسياسة، ذلك لأني في كل من هذه المقالات جاهدت كي أقود القارئ ليس إلى عَالَم أشد شحناً بمشكلاته السياسية، وإنما إلى كيانه الأعمق أمام كرسي محاسبة ضميره هو إنني في هذا على خلاف مع المفكّرين السياسيين على مختلف مناحي تفكيرهم وسوف أظل، بعناد، أجد في الإنسان، في الإنسان الفرد وفي روحه، عوالم لا تصل إليها الدوافع والأشكال السياسية.



hermann hesse

If The War Goes On...

إذا ما استمرت الحرب



ISBN 978-9933509453

نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح